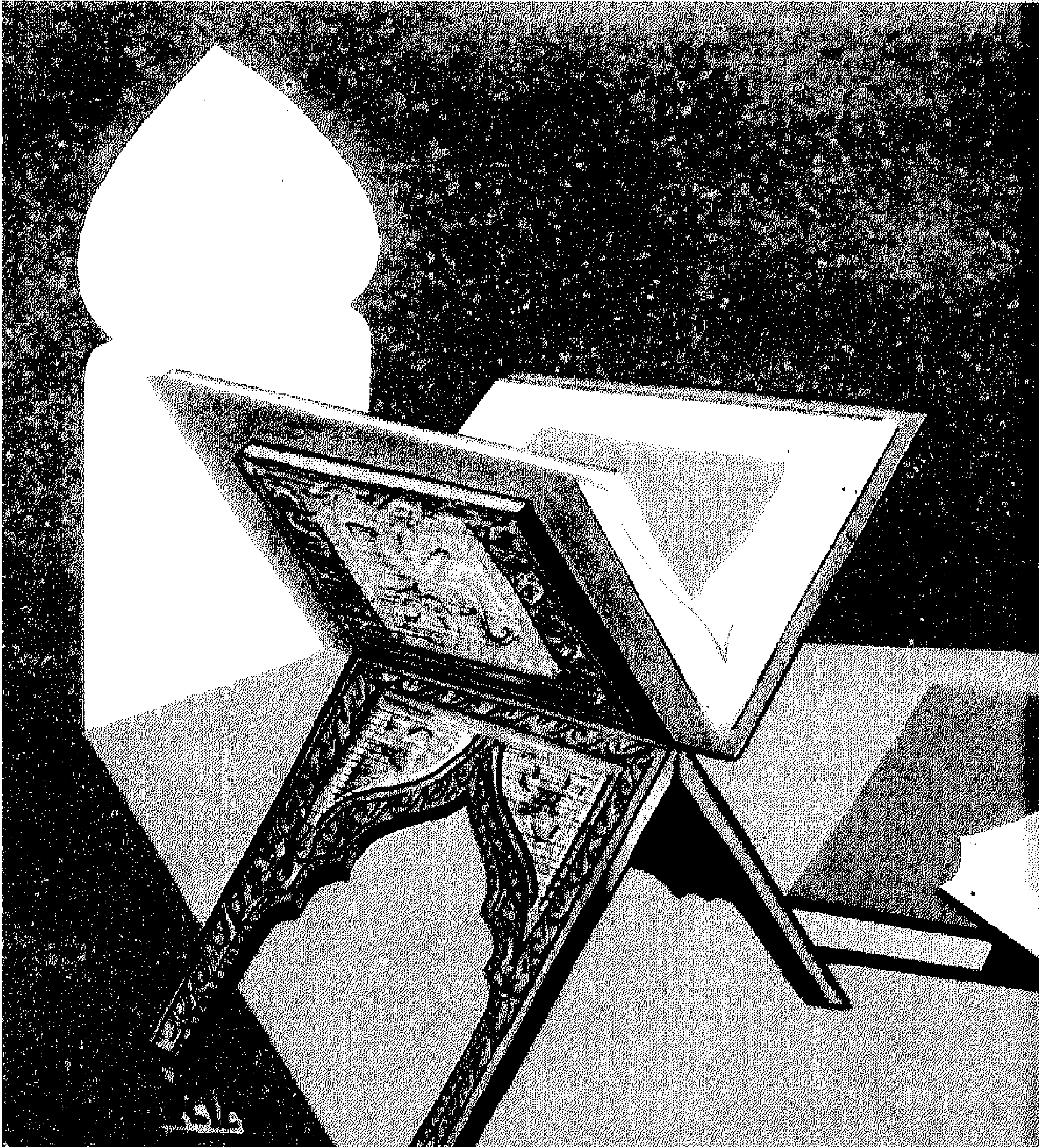
فتحي رضوان

اقرأ

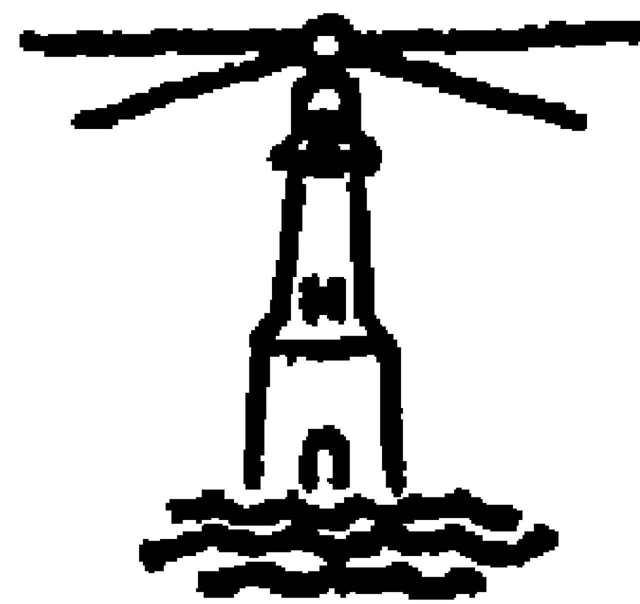
الإسلام ومشكلات الفكر





تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دار المعارف بمصر

خذ المعارف من دار المعارف

فتحي رضوان

الإسلام ومشكلات الفكر

اقرأ ٣٧٧

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٧٧ (عدد خاص بعيد الأضحى المبارك)

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

القرآن

إنه أعجب كتاب عرفته الإنسانية بين جميع الكتب السماوية والبشرية ؛ فهو كتاب ثبت بنصه أربعة عشر قرناً أو يزيد ، لم يطرأ عليه تغيير واحد ، لم يحذف منه حرف ، ولم يضف إليه حرف ، وبقي يقرأ ويكتب ويدرس ، ويناقش ، في نصه الأصيل . والإنجيل والتوراة ترجم كل منهما إلى اللغات الأخرى بل إلى كل اللغات : لا ليفهمها الراغبون في الدرس العلمي البحت ، بل ليتعبد بهما في ترجماتهما المسيحيون واليهود .

أما القرآن ، فعلى الرغم من أنه ترجم إلى كل لغات الأرض(١) ، فقد بقي في نصه الأصيل ، ككتاب للعبادة : لا يقرأ سواه ، ولا يتلى غيره ، في القارات الخمس ، وعلى مدى القرون المتتابعة ، وعلى الرغم من تطورات عظيمة طرأت على العالم ، سياسياً واقتصادياً ، واجتماعياً ، ودينياً : وعلى تغيير الحدود الجغرافية ، ونشوء وسائل جديدة لا حصر لها في كل درب من دروب الحياة وتغيير أسلوب الناس ، في كل ما يتناولونه أو يضطربون فيه .

وقد لا يكون هذا أمراً غريباً ، يستوقف النظر ، إذا كان المؤمنون للقرآن والقارئون له ، من أبناء العربية التي كتب بها ، ولكن الواقع غير ذلك : فالمسلمون ينتشرون في أفريقيا وآسيا ، وهم موجودون في أوربا وأمريكا ؛ ولغاتهم ولهجاتهم متباينة ، وكثرتهم العظمى ، لا تقرأ العربية ، وقد لا تفهمها ، ولكنهم يتعبدون بالقرآن بنصه العربي ، وفيهم من يحفظه عن ظهر قلب ، وينطق بآياته نطقاً صحيحاً ، متفقاً مع قواعد اللغة ونحوها ، ومع ذلك ، يعجز عن أن يرد عليك ، بكلمتين عربيتين ، إذا خاطبته بالعربية .

وأغرب من هذا ، أن الملايين تحفظ هذا الكتاب عن ظهر قلب ، من أوله إلى آخره ، والجماهير التى لا تحفظه ، تعرف بما يشبه الغريزة موطن الخطأ فيه إذا انتقل حرف من موضعه ، أو إذا استبدل القارئ حرف الفاء ، بحرف الواو مثلا .

والمسلمون لا يقرءون القرآن فقط ، بل إنهم يرتاونه ، ثم يوقعونه بما يسمى التجويد ، على وضع معروف ، له قواعد وأصول ، فإذا أدى على هذه الصورة كان له أثر عميق فى نفوس سامعيه ، يبتعث نشوة الإعجاب . ولقراءاته أصول جمعها علم ، اسمه علم القراءات ، بيّنوا أن من هذه القراءات الصحيح والمشهور والشاذ ، ثم ألفوا فى هذه القراءات وأصولها الكتب (١) .

أما النص القرآنى نفسه ، فيقوم على دراسته أكثر من علم : يدرس فيه علماء أصول الدين ما جاء فيه عن الله سبحانه ، وعن ملائكته ورسله ، وكتبه واليوم الآخر ، وعن العبادات ، من صلاة وصوم وزكاة وحج . ويدرس فيه الفقهاء الأحكام ومصادرها ، وطرق الاستدلال عليها ، ويدرس فيه أهل اللغة قواعد اللغة ، ونحوها وصرفها ، وأهل البلاغة والبيان والبديع ، أصول هذه العلوم جميعاً .

وكلما مرت الأيام زادت هذه العلوم اتساعاً ، وزاد أصحابها فيها تعمقاً ، وانقسموا إلى المدارس والمذاهب ، وقام بينهم حوار وجدل ، وأثمر هذا كله كتباً وموسوعات .

فهو بحق أعجب كتاب عرفته الإنسانية ، لا يشبهه فى صفاته وخصائصه ، وتأثيره على الذين يؤمنون به ، أى كتاب آخر ، يؤمن به

---

(١) من ألفوا فى علم القراءات : أبو عبيد القاسم بن سلام ، وأحمد بن جبير الكوفى وإسماعيل بن إسحق المالكى ، وأبو جعفر بن جرير الطبرى ، وأبو بكر محمد أحمد بن عمر الداجونى ، وأبو بكر بن مجاهد . .

أتباع أى دين غير دين المسلمين .

* * *

نزل القرآن أول ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بغار حراء ، على بعد ثلاثة أميال من « مكة » ، فى شهر رمضان . وقد اختلف الرواة فى اليوم الذى تم فيه النزول ، فهو فى أقوالهم السابع ، أو السابع عشر ، أو الرابع والعشرون . كما اختلف فى سنة نزوله ، أتكون السنة الأربعين بعد عام الفيل ، والرسول آنذاك فى الأربعين من عمره — أم الحادية والأربعين ؟ وكان أول ما نزل من القرآن — على القول الراجح — (اقرأ باسم ربك الذى خلق) .

ثم نزلت سورة « المدثر » كاملة ، فكانت أول سورة من سور القرآن تنزل كاملة . أما سورة اقرأ فلم ينزل منها سوى (اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم) .

وقد استمر نزول القرآن اثنتين وعشرين سنة ، وشهرين وعشرين يوماً . .

وقد بلغت سور القرآن ١١٤ سورة ، وبلغت عدة الآيات فى هذه السور ٦٢٣٦ آية . وقد قسمت السور إلى ثلاثين جزءاً ، وقسم الجزء إلى حزبين ، والحزب إلى أربعة أرباع .

وقد ورد حديث يقول : « أنزل القرآن على سبعة أحرف » ، وقد اختلف فى معنى هذا الحديث ، على نحو أربعين قولا ، نجمل أهمها فيما يأتى [1] .

١ — المراد سبع لغات ، وهى لهجات يتكلم بها العرب . واعترض على هذا الرأى بأن لغات العرب أكثر من سبع لغات ، فقيل إن المقصود هو أفصح تلك اللغات .

---

(١) الإتقان لجلال الدين السيوطى .

٢ ـ وقيل بأن الأحرف السبعة هى سبع قراءات للفظ القرآن، منها الصحيح ، والشاذ والضعيف والمنكر .

٣ ـ وقال ابن قتيبة : إن المراد، الأوجه التى يقع بها التغاير فأولها ما يتغير حركته ، ولا يزول معناه ولا صورته مثل (ولا يضار كاتب) بالفتح أو الرفع . وثانيها ما يتغير بالفعل من أمر وكان فى صيغة الطلب أو الماضى ، وثالثها ما يتغير باللفظ مثل ننشرها وننشزها ، ورابعها ما يتغير بإبدال حرف قريب المخرج مثل (طلح منضود ، وطلع منضود) ، وخامسها ما يتغير بالتقديم والتأخير مثل (وجاءت سكرة الموت بالحق) بدلا من (وجاءت سكرة الحق بالموت) وسادسها ما يتغير بزيادة أو نقصان مثل الذكر والأنثى (وما خلق الذكر والأنثى) وسابعها ما تغير بإبدال كلمة بأخرى مثل (كالعهن المنفوش) و (الصوف المنفوش) .

٤ ـ وقال رأى رابع : الكلام لا يخرج عن سبعة أوجـــه فى الاختلاف ، فى الأسماء : الإفراد والتثنية والجمع والتذكير والتأنيث ، وفى الأفعال من ماض ، ومضارع وأمر . والثالث وجوه الإعراب ، من نصب ورفع وخفض ، والرابع النقص والزيادة ، والخامس التقديم والتأخير، والسادس الإبدال ، والسابع اختلاف اللغات واللهجات (كالفتح والإمالة والترقيق والتفخيم والإدغام والإظهار) ونحو ذلك .

واختلف أيضاً فى تسمية القرآن ، فقائل إنه أطلق عليه القرآن اسما خاصاً به ، كالإنجيل والتوراة ، غير مشتق ، خاص بكلام الله ، وقد سمى قرآناً ، ليختلف عن ما يسمى به العرب مجموع أشعارهم وهو « الديوان » وسمى القسم من كلامه « سورة » ، ليختلف عن « القصيدة » عند العرب ، وسميت أجزاء السورة « بالآية » بدلا من بيت الذى هو جزء القصيدة ، وسمى آخر الآية « فاصلة » ، بدلا من قافية فى الشعر العربى .

وقيل إنه مشتق من قرنت الشىء بالشىء ، لأنه يقرن السورة بالسورة .

وقيل مشتق من « القرائن » لأن آيات الله يصدق بعضها بعضاً وقيل إنه مشتق من « القرء » أى الجمع :

ويسمى القرآن أيضاً : بالكتاب ، والكلام ، والنور ، والهدى ، والرحمة ، والفرقان ، والشفاء ، والموعظة ، والذكر ، والحكم ، والقول ، والنبأ العظيم ، وأحسن الحديث ، والمثانى ، والتنزيل ، والروح ، والوحى ، والبصائر ، والبيان ، والعلم ، والحق ، والصدق ، والعدل ، والأمر ، والبشرى ، والبلاغ .

* * *

ويهمنا فى تاريخ « القرآن » أمران ، أولهما كيف كانت تنزل الآيات ؟ وثانيهما كيف جمع القرآن ؟ لأن ما يتعلق بهاتين الناحيتين موضح بأجلى بيان . إن القرآن ، وإن كان كتاباً سماوياً ، كان للناس أعظم نصيب فى جمع آياته ، وتحديد أحكامه مما يؤيد رأينا من أن الإسلام دين الإنسان أساساً ، وشكلا ، أو جوهراً ، ومظهراً . والقرآن وهو دستور هذا الدين ، وكتابه المبين ، يحمل من خصائص الدين الإنسانية ما يحمله الدين نفسه .

خذ مثلا أن هذا القرآن لم ينزل مرة واحدة على الرسول ، ولم يصدر كما تصدر شرائع هذه الأيام ، دفعة واحدة ، فقد قلنا إن الوحى استمر ينزل بآى القرآن وأحكامه اثنتين وعشرين سنة ، وشهرين وعشرين يوماً .

ويقول الله سبحانه وتعالى : « وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث »(١) .

ورد على اعتراض المشركين : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة »(٢) ، وأجاب عن ذلك إجابتين فقال : « كذلك لنثبت به فؤادك »(٣) ؛ وقال تعالى : « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق

---

(١) الإسراء : ١٠٦ . (٢) الفرقان : ٣٢ .
(٣) الفرقان : ٣٢ .

وأحسن تفسيراً »[١] . فنزول القرآن مقسطاً أو منجماً ، طوال هذه السنوات كان ليثبت قلب الرسول ، فى وجه الصعاب التى تعترض سبيله ، وبطء الناس فى الالتفاف حوله ، والالتفات إليه ، وما يراه من ضعف الناس ، وشدة جزعهم فى الإدبار ، وعظيم فرحهم فى الإقبال ، وادعائهم غير ما يضمرون ، وطلبهم ما لا يستحقون . وكان أيضاً ليقرأه الناس على مكث ، لتستقر معانيه فى النفوس ، ولكيلا يأتى المشركون بمثل ، إلا ويرد عليه القرآن بأحسن منه ، وليفسره ، ويبين فيه وجه الحق ، «ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً».

وما يقوله بعض العلماء من أن الرسول لم يأمر بجمع القرآن فى حياته ؛ لأنه كان يعلم بأن فى القرآن الناسخ والمنسوخ ، أى أن بعض أحكام سيستبدل بها غيرها ، فهذا المعنى يتصل بما نحن فى صدده من قول ، لأن مؤدى هذا الكلام ، أنه كان للأحداث والتطورات وحجج الخصوم ، « ومسلكهم ، صداه فى القرآن »

وقد جاء فى كتاب تاريخ التشريع للشيخ محمد الخضرى :

« وكانت الآيات التشريعية ، وهى آيات الأحكام ، تنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى الغالب جواباً لحوادث فى المجتمع الإسلامى ، وتعرف هذه الحوادث بأسباب النزول ، وقد اعتنى بها جماعة من المفسرين وألفوا فيها كتباً ، وجعلوها أساساً لعلم القرآن ، وأحياناً كانت تنزل الآيات جواباً عن أسئلة يسألها بعض أصحابه ، وقليلا ما كانت تنزل الأحكام مبتدئة » .

وفى القرآن من الآيات ما يدل بعضها على أنها جواب لأسئلة ، منها : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) ، (ويسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج) (ويسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين) ، (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى) ،

---

(١) الفرقان ٣٣ .

(ويسألونك عن الساعة أيان مرساها) ، (ويسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول) ، (ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً) ، (ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربى) ، (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير) ، (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير) .

وجلى أن هذه الأمثلة ، شملت الصغير والحقير ، وما يتعلق بالغيب ، وما يتعلق بشئون العيش ، فمن الروح إلى الحيض ، ومن الساعة إلى الخمر ومن الأنفال إلى الهلال ، وهكذا . .

إنه كتاب للناس حقًا ، لا يحتقر خاطراً يجول برأس إنسان ، ولا يتعالى عن سؤال من امرأة أو أعمى ضرير .

نزل القرآن بأنه (لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله) فجاء أعمى يشكو فأصبحت الآية : (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر) .

* * *

وقد قسم القرآن إلى مكى ومدنى ، والمكى عمومًا هو ما نزل فى مكة وما حولها من القرى والمواقع ، كعرفات ومنى ، والحديبية . والمدنى ، هو ما نزل فى المدينة وما حولها كبدر وأحد . وقد اختلف العلماء فيما يعتبرونه مكيًا ، وما يعتبرونه مدنيًا ، فكانت لهم فى ذلك ثلاثة مذاهب :

الأول : أن المكى ، ما نزل قبل هجرة الرسول ، والمدنى ما نزل بعدها ، سواء نزل بمكة أو بالمدينة عام الفتح أو عام حجة الوداع . أو بسفرة من الأسفار .

والثانى : أن المكىّ ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدنى ما نزل بالمدينة .

والثالث : أن المكى ما وقع خطابًا لأهل مكة ، والمدنى ما وقع خطابًا لأهل المدينة .

ونحن لا يهمنا بيان هذا المذهب فى ذاته ، إلا من ناحية

التدليل على أن نزول القرآن ، كان صدى لما يجرى فى المجتمع الإسلامى ، وأنه كان يسجل أحداثـًا ، ووقائع الحركة الإسلامية ، فى مدّها وجزرها ، وفى اصطدامها بالمشركين وتعثرها فى العقبات ، وفى انتصارها على الخصوم ، وقهرها إياهم ، ودحض أكاذيبهم وتفنيد دعاويهم .

ولذلك يقولون : إن صيغة الخطاب فى الآيات المكية ، هى : (يأيها الناس) و (يا بنى آدم) فى حين أن صيغة الخطاب فى الآيات المدنية : (يأيها الذين آمنوا) .

ويقولون : إن السور المكية خلت من آيات الأحكام ، إذ أن هذه الآيات نزلت فى القسم المدنى من القرآن ؛ ذلك أن الإسلام فى مكة كان فى مرحلة الدعوة ، وجمع الأنصار ، ولم يكن المجتمع الإسلامى قد تكون بعد ، إذ أن المسلمين كانوا قلة ، وكانوا يعانون عدوان الأكثرية القريشية وحصارها لهم ، ومقاطعتها إياهم . فلما تمت الهجرة ، واستطاع المسلمون أن ينازلوا القريشيين فى غزوة بدر ، وأن ينتصروا على خصومهم ، أصبح الأمر يقتضى تشريعـًا ، فكان التشريع .

ومن الحقائق التى تظهر اتصال القرآن بالحياة ، وبالدعوة الإسلامية ، وبكل ما يتصل بها ، وبكل ما يثيره خصومها من حجج ، أن ثلث القرآن نزل ردًّا على جدل اليهود ، وتشكيكهم ، وسخريتهم بالنبى وبالمسلمين .

ولما كانت إقامة الرسول فى مكة ، أطول من إقامته فى المدينة ، إذ بلغت إقامته فى مكة بعد الدعوة اثنتى عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يومـًا ، فى حين بلغت إقامته فى المدينة ، تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام ، فإن المكى من القرآن ١٩ جزءاً ، والمدنى ١١ جزءاً ، وجملة الاثنين ثلاثون جزءاً .

ولم يكن نزول القرآن ردًّا على الكفار والمشركين واليهود وجدلا معهم ، ولا إجابة عن أسئلة المسلمين فقط ، بل كان ينزل أحيانـًا بنص العبارة

التى تأتى على لسان بعض صحابة الرسول . ومما يذكر مثلا على ذلك ، قوله تعالى : (واتخذوامن مقام إبراهيم مصلى) ، فقد نزلت فى سورة البقرة عام حجة الوداع ، لما طاف النبى ، فقال له عمر : هذا مقام أبينا إبراهيم الخليل قال : نعم ، قال : أفلا نتخذه مصلى ؟

وأغضبت بعض نساء الرسول ، الرسول عليه الصلاة والسلام ، فاشتد عليهن عمر ، وقال : (لعل الله يبدله أزواجاً خيراً منكن) ، فنزلت الآية فى سورة « التحريم » : (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن) ؛ وقال عمر : قلت : يا رسول الله لو أمرت نساءك أن يحتجبن ، فإنهن يكلمن البر والفاجر ، فنزلت آية الحجاب .

* * *

وفى القرآن جانب يريك كم كان هذا الكتاب حيًّا ، قال الحسن : كنا لا ندرى ما الأرائك حتى وفد علينا رجل من أهل اليمن ، فأخبرنا أن الأريكة عندهم الحجلة فيها السرير[1] ، فالقرآن لم يستعمل لغة الحجاز وحدها ، بل استعمل ألفاظاً من لهجات جميع القبائل « فمعاذير » هى « ستور » بلغة اليمن و « المسطور » هو الكتاب بلغة حِمْيَر ، و « خاسئين » : « صاغرين » بلغة كنانة ، و « شروا » : « باعوا » بلغة هذيل ، « زيلنا » : « ميزنا » بلغة حِمْير ، و « القطر » : « النحاس » بلغة جُرْهُم ، و « الرس » : « البئر » بلغة أزد ، و « الوصيد » : « الفناء » بلغة مذحج ، و « لينة » : « نخلة » بلغة الأوس .

بل إن فى القرآن ألفاظاً غير عربية ، وقد أنكر ذلك الإمام الشافعى ، وقال أبو حنيفة إنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين ، فمن زعم أن فيه غير العربية ، فقد أعظم القول ، وقال ابن فارس : لو كان فيه من غير لغة العرب لتوهم أن العرب إنما عجزت عن الإتيان بمثله لأنه أتى بلغات لا يعرفونها . ولكن جمهور العلماء يرى أن فى القرآن عدداً غير قليل من

---

(١) المختار من الإتقان فى علوم القرآن .

الألفاظ الأعجمية ، وهذا دليل على أن اللغات فى فترات حياتها وشبابها تكون من القوة والثقة بنفسها ، والتفتح على غيرها ، بحيث تضم إلى مفرداتها ما تراه جارياً على قياس ألفاظها ، ووزن كلماتها دون خشية أو تردد .

* * *

على أن تاريخ كتابة القرآن ، ثم جمعه ، ثم الاتفاق على مصحف واحد ، أى جمع رسمى للقرآن ، وإبطال ما عداه ، يزيد من ظهور خصائص هذا الكتاب الإلهى الإنسانية ، واتصال نزوله ، وتقرير أحكامه بالناس ، وبما يجرى فى حياة المسلمين ، وما يساورهم من شكوك ، وما يقيمه خصومهم فى وجوههم من حجج ، وما يعترض حياتهم من مشكلات العمل وعوائق الظروف وملابساتها .

حدث زيد بن ثابت قال : « قبض النبى ، صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن القرآن قد جمع فى شىء » . وقال الخطابى : « إنما لم يجمع صلى الله عليه وسلم القرآن فى المصحف ، لما كان يترقبه من ورود ناسخ ومنسوخ لبعض أحكامه أو تلاوته ، فلما انقضى نزوله بوفاته ، ألهم الله الخلفاء الراشدين ذلك وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة ، فكان ابتداء ذلك على يد الصديق بمشورة عمر » .

وقال الحاكم فى المستدرك : جمع القرآن ثلاث مرات :

١ — إحداها بحضرة النبى ، صلى الله عليه وسلم ، عن زيد بن ثابت ، قال : « كنا عند رسول الله ، نؤلف القرآن من الرقاع » . والمراد بتأليف ما نزل من الآيات المفرقة فى سورها ، جمعها فيها بإشارة النبى عليه السلام .

٢ — والثانية بحضرة أبى بكر . عن زيد بن ثابت قال : « أرسل إلىّ أبو بكر بعد مقتل أهل اليمامة [1] ، فإذا عمر بن الخطاب عنده ، فقال أبو بكر : إن عمر أتانى فقال : إن القتل استحر بقراء القرآن

---

(١) وهى إحدى معارك المسلمين مع المرتدة عقب وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام .

وإنى أخشى أن يستمر القتل بالقراء فى المواطن ، فيذهب كثير من القرآن ، وإنى أرى أن تأمر بجمع القرآن . فقلت لعمر : نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ؟ قال : هو — والله — خير . فلم يزل أبو بكر يراجعنى حتى شرح الله صدرى للذى شرح له صدر أبى بكر وعمر ، فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف ، وصدور الرجال ، ووجدت آخر سورة التوبة عند أبى خزيمة الأنصارى لم أجدها مع غيره . فكانت الصحف عند أبى بكر حتى توفاه الله ، ثم عند عمر حياته ، ثم عند حفصة بنت عمر » .

٣ — والجمع الثالث هو ترتيب السور فى زمن عثمان . عن أنس : أن حذيفة بن اليمان قدم على عثمان ، وهو يشترك فى غزو ثغور أرمينية مع أهل الشام ، وغزو أذربيجان مع أهل العراق ، فأفزع حذيفة اختلافهم فى القرآن ، فقال لعثمان : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى ، فأرسل إلى حفصة زوجة الرسول وابنة عمر بن الخطاب ، وكان القرآن الذى كتب فى عصر أبى بكر قد أودع لديها ، أن أرسلى إلينا الصحف ، ننسخها فى المصاحف ، ثم نردها إليك .

وأمر عثمان فألف من زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد ابن العاص ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، هيئة لترتيب السور فى مجلد واحد أو مصحف — ولمراجعة النصوص التى به فى الصحف التى كانت عند حفصة . وقال عثمان للرهط القريشيين — أى القريشيين من أعضاء هذه الهيئة — إن اختلفتم وزيد بن ثابت فى شىء من القرآن ، فاكتبوه بلسان قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم فقط ، ففعلوا حتى إذا نسخوا الصحف فى المصاحف ردّ عثمان الصحف إلى حفصة ، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا ، وأمر بما سواه من القرآن فى كل صحيفة أو مصحف أن يحرق[1] .

---

(١) المختار من الإتقان فى علوم القرآن ص ٥٤ .

العقيدة والشريعة فى القرآن

لما كان أساس الإسلام هو التوحيد ، كان قوام أحكامه جميعاً ، التكامل المفضى إلى السلام ، غاية الإسلام النهائية . فنظرة الإسلام إلى كل شىء هو الوحدة : نظرته إلى الكون ، وإلى الإنسان . . ففى ظل الإسلام لا يقوم صراع بين الإنسان ونفسه ، ولا بين الإنسان والجماعة . ولا بين الإنسان والكون ، إذ أن التناسق هو ثمرة الإسلام ، ونتيجته الحتمية التى لا تتخلف عنه ، ذلك لأن خالق الأكوان كلها واحد ، فالإرادة التى تسوسها واحدة ، والقوانين التى تصدر عن هذه الإرادة ، وهى القوانين التى تحكم الكون ، كما تحكم الإنسان الفرد ، واحدة (وما كان معه من إله إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض) .

ومن هنا لم تقم حدود فاصلة فى الإسلام : بين الدين والدنيا ، ولا بين الدنيا والآخرة ، ولا بين الروح والجسد ، ولا بين الماديات والمعنويات ، ولا بين الفرد والجماعة ، ولا بين الإنسان والكون ، فالجميع يشملهم نظام واحد ، مستقر ثابت ، واضح السنن : (ولن تجد لسنة الله تبديلا) ، وهو نظام خير تسوسه إرادة حكيمة عاقلة ، مبصرة مدبرة ، تدعو عباد الله أن يفكروا ويتدبروا ، ويكشفوا أحكام هذا النظام ، ويطلعوا على قوانينه ، ليكونوا أعظم قدرة على الانتفاع منه ، والتمتع بطيباته (كلوا من طيبات ما رزقناكم) ، (إن فى خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا) .

وتبعاً لقانون الوحدة والتكامل فى القرآن ، تكون العقيدة فى الإسلام ، والنظام المبنى عليها ، والمتفرع عنها ، شيئاً واحداً ، فليس فى الإسلام عقيدة تقوم بنفسها ، ثم شريعة تستقل عنها ، وتناظرها ، وإن كانت

تجاورها ، وتتصل بها ؛ ذلك أن كل ما كان جوهريًا فى الإسلام هو من عقيدته وشريعته معًا . فليس فى هذه الأحكام الأساسية ، ما هو داخل فى نطاق الشريعة ، ثم ما هو داخل فى نظام العقيدة ؛ ولكن كل ما كان أصليًا أو أساسيًا جوهريًا فهو من الشريعة إن شئت ، أو من العقيدة إن أردت لأنهما فى واقع الأمر شيء واحد لا شيئان ولو تساويا ، قال الله تعالى : (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذى أوحينا إليك) (١) ، (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) (٢) ، (ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها) (٣) .

ولكن حدث أن تقدم العلم ، وانقسمت علوم المسلمين ، تبعًا لذلك إلى أقسام حملت أسماء جديدة ، من تفسير إلى حديث ، إلى فقه وأصول فقه ، وكلام ومنطق . ثم استعمل المحدثون لفظ الشريعة ، فيما يستعمل فيه لفظ القانون فى البلاد الحديثة ، فى الشرق والغرب ، فأصبح ما يتعلمه الطلاب فى الكليات والمعاهد ، من أحكام الدين بعضه متعلقًا بالعقائد (هو قسم العبادات) ، وبعضه متعلقًا بالعلاقات بين الأفراد ، سمى (بالمعاملات) بل إن البعض يدخل فى الشريعة أحكام الصلاة والزكاة والحج ، ويقصر العقيدة على أصول الإيمان الكبرى ، أى ما يتصل بوحدانية الله ، والثواب والعقاب ، والجنة والبعث والنشور ؛ وهذا تطور ربما جاز للتيسير على طلاب العلم ، أو للنزول على مقتضى التصنيف والتبويب العملى ، فى حين أن الشريعة والعقيدة اسمان لمسمى واحد ، والمسلمون يؤمرون بأداء أحكامهما معًا : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون) (٤) (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون) (٥) (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) (٦) .

---

(١) سورة الشورى . (٢) سورة المائدة .
(٣) سورة الجاثية . (٤) سورة المائدة .
(٥) سورة المائدة . (٦) سورة المائدة .

فعدم الأخذ بأحكام القرآن فسق وظلم ، ثم هو أيضاً كفر ، أى أنه مخالفة للشريعة ومروق من العقيدة .

والأستاذ الشيخ محمود شلتوت — رحمه الله — وإن قال بأن للإسلام شعبتين هما العقيدة والشريعة ، قد انتهى إلى ما نقرره ، قال : « ومن قرأ القرآن عرف أن الإسلام له شعبتان أساسيتان ، لا توجد حقيقته ولا يتحقق معناه إلا إذا أخذت الشعبتان حظهما من التحقق والوجود فى عقل الإنسان وقلبه وحياته » .

ثم قال : « وإذاً فالإسلام يحتم تعانق الشريعة والعقيدة بحيث لا تنفرد إحداهما عن الأخرى على أن تكون العقيدة أصلا يدفع إلى الشريعة ، تلبية لانفعال القلب بالعقيدة وعليه فمن آمن بالعقيدة وألغى الشريعة أو أخذ بالشريعة وأهدر العقيدة ، لا يكون مسلماً عند الله » .

وتقرير كون الشريعة والعقيدة ، فى القرآن وفى الإسلام ، شيئاً واحداً ، والنص عليه ، ولفت النظر إليه ليس تقريراً علمياً بحتاً ، يراد به تجنب الناس الوقوع فى خطأ ليس له نتائج مباشرة فى حياة الناس كما نصحح لهم مثلا تاريخ بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو نصحح قول القائل بأن الأرض مسطحة ، إنما نريد من هذا التقرير أن ننبه إلى خاصية التوحيد والشمول ، والتناسق والتكامل ، فى القرآن ، وأن نثبت فى الذهن والوجدان معاً أن هذه ميزة الإسلام على غيره من المذاهب الحديثة التى تؤثر الآن فى حياة الناس فى الشرق ، وتشكل أفهامهم وأذواقهم ، وتصوغ أسلوب حياتهم ، وطرائق معيشتهم .

والالتفات عن هذه الخاصية يدفع بعض الباحثين فى شئون المسلمين ، من المسلمين والمستشرقين على السواء ، إلى تقرير خطأ مؤداه أن تدهور حال المسلمين فى العصور الأخيرة يرجع إلى إهمالهم أحكام الشريعة ، ويقصدون بذلك إهمال أحكام الإسلام فيما يخص الثروة وتوزيعها ، أو إقامة ما يسمى هذه الأيام بالعدالة الاجتماعية من جهة ، وحكم سليم

من جهة أخرى ؛ وهذا النظر خطأ كله ، إذ لو عاد المسلمون إلى العقيدة ، لقادتهم فى الحال ، ومباشرة ، إلى التزام واحترام كل ما يراه أصحاب هذا النظر شريعة . وإذا كان المسلمون قد تراخو فى إشاعة العدل الاقتصادى بين ظهرانيهم ، وفى إقامة حكم سليم ، يحترم فيه الحاكم إرادة الرعية ، ويسهر على مصالحها ، ويدفع الأذى عن مقومات حياتها ، ويلتمس نصيحة أهل الرأى فيها ، فذلك لأن العقيدة ذوت وذبلت ، حتى لم يعد باقياً منها إلا ما يكفى للحرص على التسمى باسم الإسلام ، وعلى شرف الانتماء إليه ، ربما من قبيل التعود البحت ، إذ لا يكلف هذا الانتماء جهداً ولا بذلا ولا سعياً .

فمحاولة إقامة الشريعة — حسبما تعارف عليها هؤلاء المحدثون قبل إعادة بناء العقيدة وإشعال جذوتها — هى من قبيل وضع العربة أمام الجواد ، أو تقديم النتيجة على السبب ، ولعل العودة إلى تاريخ الإسلام منذ بعث الله رسوله ، محمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، خير ما يعيننا على فهم أن الإسلام عقيدة فحسب ، وأن كل ما جاء ثمرة لهذه العقيدة ، أو تفصيلا لها ، أو تطبيقاً لأحكامها ، تبع يأتى حتماً ولا يتخلف عنها إلا قليلا .

لقد بعث رسول الله ، ليدعو الناس إلى الإيمان بأن : لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . ولم يدعهم بادئ ذى بدء إلى صلاة يقيمونها ، ولا إلى صوم يلتزمونه ، ولا إلى زكاة يؤدونها ، ولا إلى حج يقومون به ، بل إنه لم يحرم عليهم الخمر ، إلا بعد عشرين سنة ، من بدء الدعوة ، كما لم يحرم عليهم الربا ، ولم يرسم لهم طريقاً فى الزواج أو الطلاق ، يخالف ما ألفوه عن أجدادهم ، فأبقى هذا الذى توارثوه ، حتى أمر الله ؛ بتغييره بعد سنين طويلة من بدء الدعوة حتى إن بعض المسلمين كان يضيق بأحكام كانت قائمة فى الجاهلية ، ويطلب إلى الرسول أن يغيرها ، لشدة ضررها وعظم بلواها ، فلا يستجيب لهم ، حتى ينزل فى ذلك الشأن

قرآن ، ومثال هذا حالة الظهار التي نزلت فيها الآية الأولى من سورة المجادلة : (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير) .

ولكن العرب لم يطيقوا دعوة الإسلام ، إلى نبذ الشرك بالله ، وإلى الإيمان بعقيدة إله واحد ، على النقيض مما يذهب إليه البعض حديثاً ، مسايراً مذاهبهم وتفسيرهم العام للتاريخ من أن قريشاً رفضت دعوة الإسلام ، لأنه فرض عليها في أموالهم حقوقاً للفقراء ، وأمر بالزكاة ، فقوض نفوذ القرشيين وسلطاتهم المالية ، أو لأن الإسلام ، كان دين العامة ، التف حول رايته السوقة والفقراء ، فليس ذلك صحيحاً بشقيه ، فالزكاة وجميع الأحكام المالية وغير المالية تأخر نزول الآيات الآمرة بها إلى ما بعد الهجرة ، أي بعد ثلاثة عشر عاماً من بدء الدعوة . فقد فرضت الزكاة في السنة الثانية من الهجرة .

أما محمد فهو في القمة من النسب الشريف في قريش ، وقريش في القمة من الأنساب والأعراق بين العرب ، والذين آمنوا بدعوة محمد كلهم شريف وحسيب ونسيب ، فأبو بكر وعثمان وطلحة والزبير وعمر وأبو عبيدة وعلي وحمزة — كل أولئك أشراف ، وبعضهم غني ، واسع الثراء . ولكن هذه الحقيقة بشقيها لم تخفف في قليل أو كثير من بغض قريش للدعوة ، ولا من حماستها في محاربتها والتضييق عليها ، وتأليب الناس والقبائل على فكرتها ، ومحاصرتها بالإرهاب والتعذيب ، وبالدعوة اللسانية ، وبالعدوان المادي . لم تترك قريش عيباً إلا ألصقته بمحمد ، بعد أن كان أثيراً لديها ، حبيباً إلى قلب رجالها لصدقه وأمانته ، ولطفه ودعته ، وذكائه وحكمته ، فقد قالوا إنه كذاب ومفتر ومجنون وكاهن وساحر ، وإن ما قاله يُملى عليه بكرة وأصيلا ، وإنه أساطير الأولين .

ويمكننا أن نفهم لماذا ضاقت قريش بهذه الدعوة البسيطة ، قبل أن يُفرض على المؤمنين بها شيء من العبادات ، أو من التكاليف التي تمس

المال ، أو تتطلب بذل النفس ، فحسب الدعوة أن تكون صادرة من إله خالق كل شيء فى السموات والأرض حتى تنقطع لديه شفاعة ذوى الجاه ووساطتهم ، فإذا كان البعث والنشور ركن الزاوية فى هذه العقيدة الجديدة ، وأنه (لا تزر وازرة وزر أخرى) ، وأن (من يعمل سوءاً يجز به) فقد تساوى الناس روحياً مساواة تتضاءل إلى جانبها آثار المساواة المادية ، إذ لم يعد فى وسع أبى سفيان ولا أبى لهب ولا أبى جهل أن يزعموا أنهم معفون من الحساب والعقاب ، وأن لهم أن يفعلوا ما يشاءون دون حسيب أو رقيب .

وقد استطاعت الدعوة الجديدة ، لصدقها ، أن تمدّ الداخلين فى زمرتها ، بثبات وصبر ، فى وجه الشدائد التى لاقوها ، وآلام الاضطهاد التى سلطت عليهم . وبفضل هذا الثبات والصبر ، نجحوا فى أن يغيروا المجتمع القرشى فالمكى والعربى ، عن طريق هذه الكلمات القليلة « لا إله إلا الله » ، فقد تسامعها العرب جميعاً — على مرّ الأيام — ولم يستطع أحد منهم أن يقف منها موقف غير المبالى ، فنهم من ثار عليها وغضب على الداعى إليها ، ومنهم من أصم أذنيه عن سماع كلامه من فرط الضيق به ، ومنهم من أدهشته الدعوة وحيرته ، فلم يقطع فى أمرها بشىء ، فهو راض يوماً بها ، ومشوق إلى سماع أنباء رسولها يوماً ، ومنهم المأخوذ بهذا القرآن العجيب ، وأسلوبه الجديد غير المسبوق ، والمعجب بشخص الرسول وخلقه وعفته ولطفه ، ولكنه مع ذلك أضعف من أن ينزع نفسه من تقاليد مجتمعه أو أن يعالن ذوى قرباه ورحمه بالخلف ، وأن يجاهرهم بأنه اختار لنفسه غير طريقهم . ومنهم من كتم إيمانه حتى يهىّء الله له مخرجاً ، ولكن على أية حال ماجت الحياة العربية بالحيوية التى دفعت بها إليها هذه العقيدة ، ودار جدل عنيف بين المعسكرين ، حول العقيدة فى أصلها الأصيل ، ولم يتجاوز هذا إلى شىء من فروعها : فالكفار والمشركون لم يجادلوا فى الصلاة ولا فى الزكاة ولا فى الحج ، ولو أنهم

استثقلوا هذه الفروض ، ولو أنهم سخروا من المصلين حين يصلون ، ومن كل سكنة وحركة من سكنات وحركات المؤمنين بالدين الجديد . ولكنهم جادلوا فأكثروا الجدل فى أن الله واحد ، وأن الآلهة يجب أن يزولوا ، وأن الأصنام والأوثان لاتضر ولا تنفع ، وأنها لا تخلق ذبابًا ، كما جادلوا فأطالوا الجدل فى عقيدة البعث ، واليوم الآخر ، والحساب والعقاب والثواب . وعلى الرغم من العناد والمكابرة ، فإن المشركين لم يكونوا طائفة واحدة ، إنما تفرقت بهم السبل أمام الدين الجديد ، وقد حرص القرآن أن يسجل مواقفهم جميعًا ، ومن ذلك قوله تعالى : (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا) .

وقوله تعالى : (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابًا وعظامًا أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون ، إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما نحن بمبعوثين) .

وقوله تعالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به ، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة) .

وما جاء فى سورة البقرة : (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون) .

وما جاء فى سورة النساء : (مذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء) .

وهذه الطوائف المختلفة إنما اختلافها بيان لما أصاب المجتمع القديم من هزة تباينت آثارها فى أعضاء هذا المجتمع حسب مصالحها ، وطبيعة أخلاقها وصفاتها ، وما تركته العقيدة الجديدة فى هذا المجتمع المتصلب ، هو ما تتركه كل عقيدة صالحة فى مجتمع فاسد متحلل ، انتهت حياته ، وزالت مسوّغات وجوده مع اختلاف فى الأثر الباقى لكل عقيدة .

ولست تجد فى القرآن بسوره الأربع عشرة بعد المائة ، وبأجزائه الثلاثين ، وبآياته التى زادت على ستة آلاف آية — جدلا حول عبادة

من العبادات ، التى فرضها القرآن على المسلمين ، ورسم قواعدها الكبرى ، بل إن ما جاء فى القرآن الكريم من أحكام هذه العبادات ، تقريراً لها ، وبيانًا لأوضاعها ومواقيتها ، قليل غاية القلة ، خذ مثلا ما ورد فى شأن الصلاة ، فإن الآيات التى تتضمن فرضها ، أو تظهر حكمها العام ، لا تزيد على أربع هى :

(إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا موقوتًا) [١] ،

(يأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم) [٢] ،

(حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) [٣] ،

(أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل) [٤] .

أما ما عدا ذلك من الآيات ، مما ورد فيه لفظ الصلاة ، وما اشتق من مصدرها من صفات أو أفعال ، فهى لاتبين حكمًا ولا تقرر أصلا ، وإنما تدعو دعوة عامة مطلقة إلى الصلاة ، وتثنى على المقيمين لها ، والمحافظين عليها ، وغير الساهين عنها ، فضلا عن أثرها ، فى تزكية النفس ، والتقريب إلى الله ، والنهى عن المنكر .

ولقد دل ما قاله رسول الله عليه الصلاة والسلام لوفد قبيلة ثقيف ، حينما أبدوا رغبتهم فى اعتناق الإسلام ، على ما نقوله ، من أنه حسب المرء أن تصلح عقيدته ويشرح الله صدره للدين حتى يؤدى العبادات كلها ، مدفوعًا بقوة هذه العقيدة التى لا تقاوم . فعن عثمان بن أبى العاص قال : لما قدم وفد ثقيف ، نزلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأنزلهم المسجد ليكون أرق لقلوبهم ، فاشترطوا ألا يعشروا ولا يحشروا ، ولا يجبوا » . فقال صلى الله عليه وسلم : «لكم ألا تعشروا ولا تحشروا ، ولا خير فى دين ليس فيه ركوع » .

وعن وهب قال : سألت جابراً رضى الله عنه عن شأن ثقيف إذ

---

(١) سورة النساء .
(٢) سورة المائدة .
(٣) سورة البقرة .
(٤) سورة الإسراء .

بايعت ، فقال اشترطت ألا صدقة عليها ولا جهاد ، وأنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « سيصدقون ويجاهدون إذا أسلموا » .

صدق رسول الله العظيم . فالعقيدة باب كل خير ، ومفتاح كل صلاة وزكاة وحج ، وسبيل الجهاد الصادق ، والبذل الذى لا يشوبه منّ ولا أذى ، وهو مصداق قوله صلى الله عليه وسلم إن فى جسم الإنسان مضغة إن صلحت صلح الجسد كله ، وإن فسدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب أو كما قال .

ولما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وولى أبو بكر أمر المسلمين ، ارتد من ارتد من المسلمين ، رفضاً منهم للزكاة فجمع أبو بكر كبار الصحابة يستشيرهم فى قتال الذين منعوا الزكاة ، وكان رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وطائفة من المسلمين معه ألا يقاتلوا قوماً يؤمنون بالله ورسوله ، وأن يستعينوا بهم على عدوهم ، ولعل أصحاب هذا الرأى — على ما يثبته المؤرخون الإسلاميون — كانوا كثرة الحاضرين ، فى حين كان الذين أشاروا بالقتال هم القلة . ولكن أبا بكر قال فى حزم وإصرار : « والله لو منعونى عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعه » ، ولم يثن هذا القول عمر عن أن يرى ما فى القتال من تعريض المسلمين لخطر تخشى مغبته ، فقال كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها ، وحسابهم على الله » ، فأجاب أبو بكر على الفور : « والله لأقتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فإن الزكاة حق المال ، وقد قال رسول الله إلا بحقها » .

ولا ينازع امرؤ فى أنه لا أحد كعمر بن الخطاب تشدداً فى كل ما يتصل بالدين ، وبعداً عن الترخص ، فى أمر قضى به الله ، أو أمر به رسوله ، كما ليس كمثله أحد تفقهاً فى الدين ، واجتهاداً فى تبين أحكامه ، إلا القلة القليلة من كبار صحابة الرسول رضى الله عنهم ،

ولذلك كان جداله مع خليفة رسول الله ، عن فهم وحرص على الدين ، وكان أساس فهمه أن الذين لم يجحدوا الدين ، ولم ينكروا رسالة نبيه وخاتم الرسل أجمعين ، هم مسلمون سلمت عقيدتهم ، ولكن أبا بكر ، كان إمام المسلمين ، وراعى أمنهم ، وكان يرى فى السكوت على منع الزكاة ، ووفاة الرسول لم ينقض عليها إلا أيام ، قد يفتح أبواب فتنة تأتى على الدين كله ، وتقوض المجتمع الإسلامى من أساسه ؛ وقد كان بذلك أصدق حساً سياسياً وأبعد رأياً ، شأنه فى كل ما ثار من فتن فى أعقاب وفاة رسول الله ، وهذا ما جعله خليفة لرسول الله . ولكن الذى يهمنا هنا هو رأى عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى أن الإيمان بالله ورسوله هو جوهر الدين ، وأن هذا الجوهر إذا سلم من الشوائب يقود صاحبه حتماً إلى أن يقيم أركان الدين الأربعة الباقية التى لا يكمل الإسلام إلا بها ، ولا يقوم إلا عليها ، وهو ما قاله رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وأحسب أن ما أقوله هنا هو من المسلّمات التى لا يصح أن يثور حولها جدل ، ولكنى أرمى إلى ما وراء ذلك ، أرمى إلى أن ردّ الأمور كلها فى الإسلام إلى العقيدة هو الفارق المميز للإسلام عن غيره من المذاهب القديمة والحديثة ، التى تقوم بينها وبين الإسلام وجوه شبه ، حقيقية حيناً ، وظاهرية حيناً آخر .

فتلك المذاهب جميعاً تقوم أساساً على نظام سياسى واجتماعى ، ركن الزاوية فيه سلطة تملك إلزام الناس بمبادئ هذا النظام وأحكامه ، فى حين أن الإسلام — وإن كان للوالى فيه سلطة إقامة الحدود التى بينها الدين ، وإنزال القصاص ، وإعلان الجهاد ، ضد أعداء الإسلام ، وسلطة التشريع ، فيما هو من جرائم التعزير ، وهى الجرائم التى ترتكب ضد الأفراد والمجتمع ، التى لم يرد بشأنها نص فى القرآن أو السنة — الأصل فيه أنه (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغي) ، والأصل

فيه (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين) ، و (إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) ؛ فإذا قامت جماعة المسلمين أو مجتمعهم ، أو دولتهم ، حسبما تشاء ، فالوازع القلبى ، والباعث النفسى ، هو قانونهم الأسمى ، وهو الذى يمنع الواحد منهم من ارتكاب المعصية ، ولو خلا إلى نفسه ، وهو يخاف هذه المعصية الخفية غير المنظورة ، والتى لا يطلع عليها إلا الله ، أكثر من خشيته سلطان الحاكم وسيفه ونطعه ، بل إنه يرحب بالجزاء الدنيوى ، ولو بلغ حدّ الموت بالرجم ، أسوأ أنواع الموت ، وأطولها عذاباً ، كما فعل ماعز المقرّ بارتكاب الزنا ، والغامدية ، لينجوا من عذاب الضمير ، ومن غضب الله ، أى من عذاب الآخرة . فالمسلمون آمنوا بحق أن الله يعلم ما يبدون وما يكتمون ، وأنهم ما يكونون فى شأن إلا كان معهم ، ويعلم السر وأخفى ، ويعلم ما تخفى الصدور . ولذلك قامت حكومة الضمير التى لا تحتاج إلى عسس يدورون فى الليل والنهار ، يتلصصون ، ليسترقوا السمع ، ويهتكوا أسرار البيوت ، ويقيموا الرقباء الذين لا يعرف أحد نصيبهم من الصدق والأمانة .

ولعل هذا هو السر فى أن الأحكام التى وردت فى القرآن عن المال ، ونظام الحكم قليلة ، إذ صرف أكثر الكلام فى القرآن ، إلى بيان العقيدة ، والتدليل عليها ، وتحسين الإيمان فى القلوب ، وإظهار مهالك المشركين ، وتردى المنافقين وسوء عاقبة المذبذبين ، وسوء منقلب الظالمين ، وسرعة زوال كل لذائذ الحياة ، وقلة شأن عرضها ، وتحسين أنواع من الخلق ، يؤدى إلى هدوء نفس الفرد ، وطمأنينة الجماعة ، وقوة الرابطة بين المسلمين ، وتوثيق روابطهم .

ولدينا فيما أثبتته الآثار فى القديم والحديث ، الأدلة على ما أثمرته هذه التربية ، ففى القديم رويت لنا حكاية تلك الفتاة التى أمرتها أمها أن تقوم فتخلط الماء باللبن أو تمذقه به ، ثم تبيعه للناس ، التماساً

لمزيد من الكسب ، وإن كان حراماً ، فرفضت الفتاة أن تطيع أمر أمها قائلة إن الخليفة منع ذلك، فقالت لها أمها : « إنك بموضع لا يراك فيه الخليفة عمر ، ولا منادى عمر » ، فقالت الفتاة : « يا أماه والله ما أطيعه فى الملأ ، وأعصيه فى الخفاء ! » . وكان عمر سائراً فى الليل يرعى شئون الرعية التى كانت منها هذه الفتاة ، فلما أصبح الصباح ، دعاها فزوجها لابنه عاصم فوالدت ابنتها من عاصم ، عمر بن عبد العزيز أعدل الخلفاء الأموين ، ولم تكن هذه الفتاة إلاواحدة من عامة المسلمين، وكانت مثلا منهم ، يتكرر بلا شك .

أما فى الحديث فقد حكمت تركيا شرق أوربا أكثر من خمسة قرون ، وكان فى وسع خلفاء بنى عثمان سلاطين تركيا ، أن يحملوا أهل هذه البلاد قسراً على الدخول فى الدين الإسلامى ، ولقد هم أكثر من مرة بعض السلاطين بشىء من ذلك لولا أن شيوخ الإسلام فى تركيا، منعوهم ، وهددوهم بالإفتاء ضدهم ، وتأليب الناس عليهم. وقد تداولت الأنظمة هذا الجانب فى أوربا ، فأصبحت ملكية مطلقة ، وأصبحت تدين بالمذاهب الفاشية ، ثم بالشيوعية ، حسب النظام الحاكم لها .

والأمثلة كثيرة على أن العقوبة وحدها ، مهما بلغت من الشدة والردع ، لاتكفى للقضاء على الجريمة ، ولا على إرهاب الجناة ، ولا فى إشاعة الفضيلة ، أو توفير الأمن والطمأنينة ، فحيث توجد أسباب الإجرام من الظلم ، ونهب أرزاق الضعفاء ، واستعلاء الأقوياء، وسد أبواب العمل الشريف فى وجه طالبيه ، وكره الحاكم نصيحة الصادقين ، وانعدام الشجاعة عند من تقع على أكتافهم تبعات الرأى والهدايا والقيادة، فلاشىء يمنع الجريمة حتى المقصلة وحبل المشنقة . وقد سجل تاريخ الجريمة فى بريطانيا مايؤيد هذا تماماً ، فقد فشت جريمة النشل فى لندن حتى اضطرت الحكومة إلى سن تشريع يعاقب النشالين بالموت ، ووضعت الحكومة يدها فعلا على بعض هؤلاء النشالين ، وأقامت مشانق

فى ميدان فسيح فى لندن لتنفذ فيهم العقوبة ، فتقاطر ألوف الناس ليشاهدوا هذا المشهد المثير ، فانتهز عدد من مهرة النشالين فرصة انشغال الناس واستغراقهم فى رؤية الشنق ، وأعملوا مشارطهم فى جيوبهم ، وملأوا أيديهم بمال لم يجمعوا مثله فى عام .

وقد نشر أخيراً « رمزى كلارك » النائب العام الاتحادى فى الولايات المتحدة إحصائية عن جرائم بلاده فى عام ، فجاء فى هذا البيان أنه تقع جريمة قتل كل ٤٣ دقيقة فى الولايات المتحدة ، وجريمة اغتصاب امرأة كل ١٩ دقيقة ، وجريمة سرقة كل دقيقتين وجريمة سطو على المنازل كل ٢٠ ثانية ، وسطو على السيارات كل ٤٨ ثانية ، واختطاف رجال كل ٢٠ ثانية .

فإذا علمت أن الولايات المتحدة ، هى نموذج للدولة المتحضرة التى تبلغ فيها الثقافة والتربية مبلغاً لا تبلغه فى دولة أخرى فى آسيا ولا فى أوربا ، وأن غناها يضرب به المثل ، وتقدمها الآلى والفنى ، أمنية كل دولة كبرى ، أدركت كيف تعجز الحضارة الحديثة عن أن تخلق مجتمعاً آمناً خالياً من الجريمة ، أو تتناقص فيه الجريمة على الأقل ولا تزيد فيه .

وهذا ما هدى إليه الإسلام الناس ، فتناول أولا ، نفوسهم وقلوبهم ، وعرف أنه هنا تكمن سر قوة الإنسان ، فالإصلاح يبدأ منهما ، والإصلاح ينتهى إليهما ، وأنه لا عدل سياسى ولا عدل اجتماعى ، ولا حكومة صالحة ، ولا مجتمع آمن ، إلا بعد أن يؤمن الإنسان الفرد بهذا العدل ، ويعتبره من واجباته الشخصية ، ويعتبر نفسه حارساً عليه وضامناً له ، ويخشى من الخروج عليه أو المساس به ، خشية تكاد تبلغ مبلغ رد الفعل اللاشعورى ، الشبيه باختلاج العين ، عند سقوط النور عليها ، أو الاتجاه إلى الخلف ، اتقاء لضربة من الأمام . وهذا ليس بمستبعد ، فالإنسان فطر قابلا للتشكل ، قادراً على إحداث

المطابقة بينه وبين البيئة التى يعيش فيها سواء كانت بيئة طبيعية أو اجتماعية .

ولو فعلنا كما فعل الإسلام فى ثلاث وعشرين سنة فقط ، هى الفترة التى قام فيها محمد بن عبد الله ، عليه الصلاة والسلام ، بين ظهرانى المسلمين ، فى بلد لا مثيل له فى الجدب والفقر . وخلوه من مصادر الثروة ومن أسباب العيش ، فضلا عن غلظ طبع أهله ، وتشتتهم فى القفار ، وتوزعهم فى حواشى الجزيرة العربية ونواحيها ، وتناثرهم فى أطرافها وأعطافها ، وسرعة ميلهم للقتال ، وكرههم الخضوع للحاكم ، وميلهم إلى الجدل ، وشدة تمسكهم بتقليد الآباء ،وتراث الأجداد لأدركنا كيف استطاع الإسلام ، فى هذه الحقبة التى لا تحسب فى أعمار الدول الكبرى ، إلا برهة لا يحس بها ، ولا يلتفت إليها ، أن يجعل منهم أمة متحدة ، وحكومة مركزية تبسط سلطانها على مساحة من الأرض تكاد تبلغ مبلغ القارة ، وأن ينشئ لهم نظاماً اجتماعياً ، وقانوناً ، وأن تظلهم – فوق كل ذلك – عقيدة واحدة ، تتناول الصغير والكبير ، من شئون حياتهم وأمور معاشهم .

فلننظر كيف كان تطبيق منهج الإسلام ، القائم على العقيدة ، فى مجال المال . لقد وضع الإسلام ، بآيات القرآن أولا ، ثم بسنة رسول الله ثانياً قواعد عامة ، ضابطة لاستنبات المال ، ثم لاستعماله ، وتوزيعه تقلم أظافر المال ، لتقلل من ضراوته وتجعله فى خدمة الناس ، لا غولا يلتهم سعادتهم ، ويهدد أمنهم ، ونحن لا نملك التوسع فى القول– ولذلك نورد هذه القواعد فى إجمال وإنجاز .

أولا : لا مصدر للمال إلا العمل ، ولابد أن يكون عملا مشروعاً ، فكل كسب يأتى بغير جهد – عدا الميراث – هو حرام ، ومن هنا حرمت عقود الغرر ، وحرم بيع غير الموجود ، لأنه كسب الحظ فيه هو مصدره .

ثانياً : إن المال أصلا هو مال الله : (وآتوهم من مال الله الذى آتاكم) ، والناس مستخلفون فيه : (وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) ، فهو وديعة بين أيدينا نمتحن بحسن رعايتها ، وردها إلى صاحبها ، بعد إدارة نافعة يعود خيرها على أكبر عدد من الناس .

ثالثاً : أن خير القربات إلى الله الإنفاق فى سبيل المصلحة العامة (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) .

رابعاً : أن شر ما يفعله الناس هو اكتناز المال وحبسه عن التداول ، والاستعلاء بالمال : (وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً) .

خامساً : ليس لمن حرم المال أن يحسد الناس على ما آتاهم الله منه ، فهو رائح غاد ولا يبقى إلا العمل الصالح .

سادساً : الإسراف مكروه : (والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) .

سابعاً : ومن لا يحسن استعمال المال وإدارته ترفع يده عنه .

ثامناً : المال لا يلد مالا ، وإنما الذى يلد المال العمل : (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس)

تاسعاً : هناك الكثير من الأخلاق الاقتصادية التى يدعو لها الإسلام ، كالوفاء بالعقود ، وتحريرها بالكتابة ، وإحسان الوزن والكيل ، والنهى عن الغش وتحريم الاحتكار .

عاشراً : نظام الميراث فى الإسلام الذى يفتت الثروة ويمنع تجميعها وتركيزها . هذا الإطار العام الذى قد يبدو فضفاضاً ، يتيح للمستغلين والمتحايلين على القانون مجالا فسيحاً ، هو فى واقع الأمر ، ضيق غاية الضيق ، مع العقيدة الصالحة ، مانع كل استغلال للمال ، والسعى فى الاستكثار منه ، ولو عن طريق حلال ، داع إلى سد حاجات المجتمع ، وإلى مكافحة الفقر ، وسد المنافذ

إليه ، فإلى جانب هذه المبادئ ، قواعد تمليها العقيدة وترتفع بها إلى مستوى القانون الملزم مثل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أى أهل عرصة أصبح فيها امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى » ، ومثل قوله عليه الصلاة والسلام : «ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم » .

فإذا لم توجد العقيدة الصالحة ، فقد تساوت الأنظمة كلها فيما تتيحه من الاستغلال السيئ للمال . ولكل نظام ثغراته وعيوبه ، التى تجعل المال فى ظله أداة إكراه وقهر ، واستعلاء وخوف . فإن اجتمع فى يد الأغنياء الأفراد ، فرضوا سلطانهم على الناس ، وجعلوا الحكومة فى خدمتهم ، وإن نزع المال منهم ، لم نضمن أن يجتمع فى يد جماعة صغيرة ، تشيع لوناً آخر من الإرهاب الذى يكمم الأفواه ويقذف الرعب فى القلوب ، أما مع العقيدة الصالحة ، ذات المبادئ الواضحة ، فيمكن أن تسن الشرائع المنظمة للمال ، المقيدة له ، المانعة من تملك أنواع منه ، أو إسناد إدارته إلى جماعة من الناس ، أو إبقائه فى أيدى أصحابه تحت رقابة الحاكم ، ورقابة الرعية معاً ، إذ أن هذه القوالب جميعاً لا ينقشع عنها سوءها إلا بهذه الرقابة الساهرة اليقظة ، الحساسة المدركة رقابة الضمير ، الذى استمد حيويته وشجاعته من عقيدة تجعل من المصلحة العليا قانوناً مهيمناً .

وما فعله القرآن فى مجال المال ، فعله فى مجال الحكم فقد قرر مبادئ أساسية هى :

أولا : العدل .

ثانياً : الشورى .

ثالثاً : المساواة .

رابعاً : وجوب نصح الحاكم ، ووجوب انتصاح الحاكم ، وتلمسه الرأى عند أهل الرأى . .

خامساً : الأخذ على يد الظالم ، وإلا كان المظلوم ظالماً : (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً) .

وفى ظل هذه المبادئ ، مع العقيدة الصالحة ، نضمن قيام حكومة عادلة ، أما إذا أقمت نظاماً نيابياً حراً ، أو نيابياً رياسياً ، أو شمولياً كلياً ، أو ديموقراطياً اجتماعياً ، بغير هذه العقيدة ، فالظلم واقع بصورة من الصور ، وإن أرقت بحار الله مداداً فى الدفاع عنها ، فالانتخابات وسيلة تقرير الحرية لا تضمن خلوها من تزييف الحاكم فى بلاد لم يقوَ فيها رأى الشعب العام ، ولا تضمن أن يكون نظامها فاسداً فى بلاد قوى فيها هذا الرأى، وأخيراً لا تضمن تقاعس الناس عن الإقبال عليها ، وهو أمر تقرره كل كتب القانون الدستورى .

ولسنا فى حاجة إلى أن ندلل على فساد هذه الأنظمة جميعاً ، فإن ما يعانيه العالم اليوم من التمزق ، الذى تفتت فى ظله الدول إلى قسمين وثلاثة ، فأصبح فى ألمانيا قسمان ، وفى إيرلندا ثلاثة ، وفى الهند الصينية خمسة ، وفى فلسطين ثلاثة ، وأصبح العالم عوالم ، على الرغم من الطائرات التى تلغى المسافات ووسائل الإذاعة المسموعة والمرئية ، التى تنقل إليك فى لحظة أصواتاً صادرة من أركان الدنيا السبعة ، والتى يصابح الناس فيها ويماسيهم ، أنباء الفواجع السياسية ، والاضطرابات الجنسية ، والقتل بالجملة ، والتهيؤ للحرب ، والخوف الدائم من القنبلة الذرية — إن هذه المعاناة وحدها ، دليل على أن هذه الأنظمة جميعاً ، أخفقت فى تحقيق الرخاء والأمن والسلام ، وأنه لا بد من العودة إلى مصدر الخير الذى لا شية فيه ولا ريبة ، العقيدة الإنسانية الصالحة ، التى تنظر إلى الناس جميعاً ، أمة واحدة ، وتقودهم بغير قهر ولا استعلاء على ضوء وجدانهم ، وبوحى من قلوبهم .

المنهج الثابت فى القرآن الكريم

قال الله تعالى : (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)[1] وقارئ القرآن الكريم يجد فى كل ما يتصل به آيات صدق هذه الآية . فللقرآن نظام يختلف عن نظام كل كلام سبقه للبشر . سواء كان هذا الكلام للعرب أو لغيرهم ، وسواء كان هذا الكلام شعراً أو نثراً مرسلا أو موزونًا . فقد قسم إلى آيات ، وضمت الآيات سور ، واختلفت الآيات والسور ، فى الصياغة والمعنى ، والأسلوب والمعنى ، والأداء والموسيقى ، عن كل ما أنتجته وأبدعته قرائح الكتاب والشعراء ، على مر الحقب والعصور .

ولكن لهذا النظام الثابت من حيث الصورة والشكل ، منهج داخلى ثابت كذلك ، قد لاتلمحه العين ، إلا بعد تثبت وروية ، ولكن هذا المنهج الداخلى ، على خفائه ، أدل على أن منهج القرآن جزء من نظام قائم بدوره على قواعد ثابتة ، هى فطرة الناس التى فطرهم الله عليها من جهة ، والنواميس الدائمة للكون من جهة أخرى .

ولسنا نستطيع أن نحصى جميع الدلائل على وجود هذا المنهج ، ولكن فى الوسع أن نجتزئ ببعضها . وقد يدل الجزء على الكل ، كما يشير القليل إلى الكثير .

فمن عناصر هذا المنهج الثابت :

أولا : لا يأتى ذكر الخير والشر ، فى موضع من القرآن ، إلا كان ذكر الخير سابقًا على ذكر الشر ، كما تسبق الحسنات السيئات ، والثواب العقاب .

---

(١) سورة النساء : ٨٢ .

ثانياً : لا يذكر الجهاد ، أو لا يدعى الناس إليه إلا كان الجهاد بالمال سابقاً للجهاد بالنفس .

ثالثاً : لا يذكر الكثير إلا والقليل رجحت كفة القليل .

رابعاً : لا تذكر أنعم الله على الناس ، إلا سبق السمع والبصر .

خامساً : لا يشار إلى العبرانيين ، فى مواضع الرضا عنهم ، أو تذكيرهم بفضل الله عليهم ، إلا وسموا باسم بنى إسرائيل ، ولا يشار إليهم فى مواضع السخط عليهم ، وتعديد سيئاتهم إلا وسموا باسم « اليهود » أو الذين هادوا .

فإذا بدأنا بأول هذه العناصر ألفينا ما نشير إليه من تقديم الخير على الشر فى السور القصار والسور الطوال على السواء ، ومن ذلك : (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) فى سورة الزلزلة ، وفى سورة التين : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) ، وفى سورة الليل : (إن سعيكم لشتى فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى ، فسنيسره للعسرى) ، وفى سورة الشمس : (قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها) ، وفى سورة البلد : (ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة ، أولئك أصحاب الميمنة ، والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة) ، وفى سورة الفجر : (فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربى أكرمن ، وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربى أهانن) ، وفى سورة الأعلى : (سيذكر من يخشى ويتجنبها الأشقى) ، وفى سورة الانفطار : (إن الأبرار لفى نعيم ، وإن الفجار لفى جحيم) ، وفى سورة عبس : (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة) . وتقديم الخير على الشر ، والتبشير على التنفير ، والثواب على العقاب ، والجنة على النار ، منهج يتفق مع

طبيعة الإسلام"، باعتباره دين الفطرة ، فالأصل فى الإنسان فى نظر الإسلام ، الخير ، بدلالة صريح نص آية التين : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) .

فالشر طارئ على الإنسان ، لم يخلق به ، وقصة آدم فى القرآن ، وهى القصة التى تروى خلق الإنسان ، تؤكد أن الإنسان خلق صالحاً قابلا للخير ، قادراً على إتيانه ، وإن كان قد سقط فى المعصية ، فلأنه لم يقاوم الغواية التى أتت إليه من خارج نفسه ، لذلك أمر بأن يتحصن أمامها ، بالإيمان أو بالتقوى ليعصماه من التردى فيها . فالله تعالى يقول فى سورة الأعراف فى الآية العاشرة وما بعدها : (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين)، وقال : (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولاتقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) ، وفى سورة الحجر فى الآية الثامنة والعشرين : (فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ، فسجد الملائكة كلهم أجمعون) ، وفى الآية الثلاثين من سورة البقرة : (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) .

وهذه الآيات كلها ناطقة الدلالة بأن آدم كان محل رضاء ربه ، فقد سواه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وعلمه الأسماء كلها دون الملائكة ، وأمر الملائكة أن يسجدوا له ، فسجدوا له كلهم أجمعون ، وقد خاطب آدم ربه هو وزوجه ، فدعاهما إلى أن يتمتعا بالجنة وخيراتها ، وأن يأكلا رغداً منها حيث شاءا بغير حسيب ولا رقيب ، وكل أولئك دلائل الرضاء ، ودلائل استحقاق آدم وزوجه هذه الأنعم ، لولا أن الشيطان قد تصدى لهما ، فأغواهما وأزلهما عنها ، (فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ، فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم ،

قلنا اهبطوا منها جميعًا فإما يأتينكم منى هدى ، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وهذه الأدوار كلها تجملها آيات سورة التين : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون) .

فالخير أصل الإنسان ، وفطرته التى فطر عليها ، إلا أنه ضعيف ، وقد توعده الشيطان بالغواية ، فمن تبع الشيطان فقد تردى إلى أسفل سافلين ، ولكن من تاب وعاد إلى الإيمان ، واستعصى على الشيطان ، فله أجر غير ممنون .

ومن ثَمَّ كان من الطبيعي أن تسبق الإشارة فى القرآن إلى الخير الإشارة إلى الشر ، والبشرى بالجنة الإنذار بالنار ، وثواب الصالحين المحسنين عقاب الكافرين المذنبين ولو افترض القرآن ، أن الشر أصل الإنسان ، وفطرته التى فطر عليها ، لكانت الدعوة إلى الدين عبثًا من العبث ، إذ لا يستطيع الإنسان أن ينسلخ من طبيعة خلق عليها ، ولا أن يخرج منها ، ولكان الإيمان لونًا من الخوارق لايتم إلا نادراً ، ولا يتأتى إلا لصفوة الصفوة الذين لايجود الزمان بهم إلا فى الحقب المتباعدة ، وفى الآماد المتطاولة .

ومن هنا لسنا مع المفسرين الذين يذهبون إلى أن آيتى : (لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين) قد نزلتا فى الوليد ابن المغيرة ، أو كلدة بن أسيد ، كما أننا لسنا مع الذين يفسرون قول الله تعالى : (ثم رددناه أسفل سافلين) بأن الله يرد الإنسان إلى أرذل العمر ، وهو ما ارتآه الضحاك والكلبى على ما أورده القرطبى فى الجامع لأحكام القرآن ، ولا مع الذين فسروا (أسفل سافلين) بأنها النار .

فالآيتان تقصدان مطلق الإنسان ، وهما تتحدثان عن الإنسان الذى قال فى حقه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله خلق آدم على

صورته » فى رواية ، « وعلى صورة الرحمن » فى رواية أخرى .

فمطلق الإنسان ، بجسمه وعقله وروحه ونفسه ، وطاقاته العظيمة ، وقدراته الهائلة ، وطموحه إلى الخير ، وحبه غير المتناهى للعلم ، وميله إلى المخاطرة ، ودأبه على التجديد والتطوير ، والكشف والإبداع ، وتضحيته بذاته وماله من أجل فكرة مؤمن بها ، أو عقيدة يطمئن إليها ، هو تجسيد حي للفظى (أحسن تقويم) ، إلا أن الإنسان يطوى فى بناء جسمه من الأجهزة التى أعدها الخالق سبحانه وتعالى لتبقى على الإنسان الفرد ، وعلى الإنسان الجنس ، وهما غريزتا حب الطعام والتناسل ، وهما جهازان يجعلانه قريباً من الحيوان شبيهاً له، بل أكثر ضراوة منه ، وأشد ميلا إلى الفتك والقتل ، وأبرع فى ابتداع أسباب الدمار والهلاك ، لنفسه ولجنسه ، ولذويه وأهل وطنه وملته . وهو بهذا يهبط إلى أسفل سافلين ، متأثراً بغواية الشيطان ، فالإنسان قابل للغواية ، بحكم غرائزه اللازمة للإبقاء عليه فرداً وجنساً : (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزماً) .

ومن هذا كله كان منهج القرآن قائماً على تقديم الخير على الشر ، وتقديم التبشير على التنفير ، وتقديم الحسنات على السيئات ، فمنهج القرآن : الأخلاق ، وهدفه التربية والتقويم ، ولا أمل فى دعوة ولا نصيحة . ولا دين أو عقيدة ، إلا إذا اطمأنّ الإنسان إلى أن أبواب الخير مفتوحة أبداً ، وأن السعى من أجل الآخرة ، والمثل الأعلى ، متيسر على الدوام ، وهذا ما فعله القرآن ، ونجح فيه كأعظم ما يكون النجاح .

وقد يتصل بهذا العنصر الأول من عناصر المنهج القرآنى الثابت أن يكون الجهاد بالمال سابقاً على الجهاد بالنفس ، والأمثلة على ذلك :

(إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله)[1] (الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم

---

(١) سورة الأنفال : ٧٢ .

أعظم درجة عند الله)[١] ،(لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم)[٢] ، (انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله)[٣] ، (فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة)[٤] .

فما سر تقديم المال على النفس فى آيات الجهاد ؟

السر فى ذلك هو منهج الإسلام أيضاً فى كل ما يتصل بالدعوة إلى الدين . فالإسلام باعتباره دين الفطرة من جهة ،ودين التقويم والإصلاح والتسامى بالإنسان إلى أعلى المراتب حتى يكاد يبلغ مرتبة الملائكة من جهة أخرى ، يبدأ بالإنسان من حيث هو . فيقر للإنسان بما عليه من قصور ، وخوف ، وحرص على ما وجد عليه آباءه وأجداده ، وكراهية للتغيير والتطور ، وإشفاق من بذل المال ، وفرار من مواطن التضحية بالنفس . فالإنسان هو كذلك ، بادئ ذى بدء ، ولكن النفس الإنسانية أشبه بالمنجم العميق ، الذى إن أحسنت التنقيب فيه ، والوصول إلى أعماقه وجدت الجواهر والذخائر ، وبهرك ما فى باطنه من نفائس وبدائع .

يبدأ القرآن بتقرير الواقع البشرى فيقول فى الآية الرابعة عشرة من سورة آل عمران : (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين ، والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث) .

هذه حقيقة ثابتة لا ينفع إنكارها ، ولا إغماض العين عنها .

والحقيقة الثانية المتفرعة عن الحقيقة الأولى: أن الإنسان حريص على المال ، أكثر من حرصه على البنين ، لذلك قال القرآن : (المال والبنون زينة الحياة الدنيا) ، (يوم لا ينفع مال ولا بنون) ، (عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال وبنين) ، (إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً) .

---

(١) سورة التوبة : ٢٠ .
(٢) سورة التوبة : ٨٨ .
(٣) سورة التوبة : ٤١ .
(٤) سورة النساء : ٩٥ .

ومن هنا ، كان امتحان الله للناس ، بما ينزله بهم من الجوع ونقص الأموال مثل نقص الأنفس : (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس) .

هذا كله سبب لتقديم المال على النفس فى آيات الجهاد ، وسبب آخر يتصل بتاريخ الدعوة الإسلامية ، ففى خلال ثلاثة عشر عاماً اقضاها المسلمون فى مكة ، مهبط القرآن الأول ، وموطن الدعوة فى أولى مراحلها ، كان سبيلهم فى معاملة المشركين دفع السيئة بالحسنة : (ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) ؛ لذلك كان الجهاد بالمال هو أول ما يدعى إليه المسلم ، وكان المشركون وكفار قريش يسلكون سبيل مقاطعة المسلمين الأوائل ، ويقبضون أيديهم على المال ، حتى لايصل إلى أنصار محمد ، مؤملين أن يصرفهم الجوع وقلة الزاد عن البقاء معه فى صفوف الإسلام : (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا) .

والسبب الثالث فى تقديم المال على النفس فى آيات الجهاد هو سنة التطور والتدرج التى سلكها الإسلام فى كل ما فرضه على المسلمين ، فكما تدرج فى تحريم الخمر ، وفى تحريم الربا ، وفى فرض العبادات على المسلمين ، بما فيها من صلاة وزكاة وحج ، فقد أخر الإسلام فرض الجهاد بالسلاح ، ورد العدوان بالقوة حتى اكتمل إيمان المسلمين ، وألفوا الحرمان فى سبيل العقيدة ، وتدربوا على أداء تكاليف الدعوة الروحية ، التى هى عصمة المقاتل ، وسر ثباته ، ومصدر قوته ، فالذراع التى تحمل السلاح هى التى تضرب وليس حد سيف ، وقلب المقاتل ، هو عدته وليس قوة بدنه .

ولا يهول المقاتلين الأوائل ، والمجاهدين الرواد ، فى مطلع الدعوات ، ومفتتح الحركات ، شيء ككثرة خصوم الفكرة الجديدة ، أو الدعوة الوليدة ، ولا يفت فى عضدهم مثل قلتهم هم . ومن هنا حرص القرآن

الكريم ، على التهوين من شأن « الكثير » الخبيث ، والإعظام من شأن « القلة » المختارة ، المؤمنة بالقرآن .

وكالعهد بالقرآن يضع القاعدة العامة ، ثم يردفها بما يفصلها ، ويبين أحكامها ، ويضرب الأمثلة على صحتها . فالقاعدة فى شأن الكثرة والقلة ترد فى الآية المائة فى سورة المائدة : (قل لا يستوى الخبيث والطيب ، ولو أعجبك كثرة الخبيث) ، ثم ترد هذه القاعدة أكثر تفصيلا فى الآية التاسعة والأربعين بعد المائتين فى سورة البقرة (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) .

ثم تتوالى بعد ذلك الأمثلة على قلة جدوى الكثرة فى ذاتها ، وبعضها يؤخذ من حياة المسلمين أنفسهم ، كما ورد فى الآية الخامسة والعشرين فى سورة التوبة : (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا) .

وبعد ذلك لا يرد الكثير ولا الكثرة إلامشفوعين بما يهون من أمرهما ويحط من قدرهما إذا كانا مجرد كثرة : (لا خير فى كثير من نجواهم) ، (وإن كثيراً من الناس لفاسقون) ، (وإن كثيراً من الناس بلقاء ربهم لكافرون) ، (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) ، (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون) .

ويخاطب الله تعالى الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله : (وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله) ثم : (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) .

ثم يعود القرآن يصف كثرة الناس بالعيوب التى تتسم بها الكثرة عادة ، قبل الإيمان والهداية : (وإن أكثركم فاسقون) ، (ولكن أكثرهم للحق كارهون) ، (ولا تجد أكثرهم شاكرين) ، (وما يتبع أكثرهم إلا ظناً) .

بقى أن نضرب مثلين على المنهج الثابت للقرآن الذى تلمحه العين ، على خفائه ، يسرى فى آيات القرآن سريان الماء فى النبات ، يبدأ من

الجذور إلى الساق إلى الفروع ، ويبعث فيه الحياة .

المثل الأول هو تقديم السمع على البصر ، فى كل موضع فى القرآن ، عددت فيه أنعم الله على الناس ، وذكرت الجوارح التى يتصل عن طريقها الإنسان بالعالم الذى يعيش فيه .

يتقدم السمع على البصر باعتبارهما نعمتين من نعم الله ، ويتقدم السمع على البصر عندما يذكران فى موضع حرمان الكفار والمشركين والضالين منهما ، باعتبارهما رمزاً على الهداية ، وأداة للإيمان ، ويتقدم السمع على البصر عندما يذكر القرآن الكريم أسماء الله الحسنى وصفاته جل وعلا . فلننظر إلى الأمثلة لنر هذا الثبات المثير لأعظم الدهشة : (قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أمن يملك السمع والأبصار)(١) .

(ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون)(٢) .

(وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة)(٣) .

(إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا)(٤) .

(وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة)(٥) .

(ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار)(٦) .

(قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم)(٧) .

(أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم)(٨) .

(ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم)(٩) .

(حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم)(١٠) .

(والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير)(١١) .

---

(١) سورة يونس : ٣١ .
(٢) سورة هود : ٢٠ .
(٣) سورة النحل : ٧٨ .
(٤) سورة الإسراء : ٣٦ .
(٥) سورة المؤمنون : ٧٨ .
(٦) سورة السجدة : ١٩ .
(٧) سورة الأنعام : ٤٦ .
(٨) سورة فصلت : ٢٢ .
(٩) سورة البقرة : ٥ .
(١٠) سورة فصلت : ٢٠ .
(١١) سورة المجادلة : ١ .

(فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً) [١] .
(أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) [٢] .
(صم بكم عمى فهم لا يرجعون) [٣] .
(قال لا تخافا إننى معكما أسمع وأرى) [٤] .
(والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات) [٥] .
(أفأنت تسمع الصم أو تهدى العمى) [٦] .
(والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا) [٧] .

وفى القرآن ما يزيد على ثلاثين موضعاً وصف فيه الله تعالى وتبارك ذاته بأنه (السميع العليم) ، يمكن الرجوع إليها .

ولم يأت هذا التقديم اعتباطاً ، وإلا ما التزمه القرآن من أوله إلى آخره التزاماً دقيقاً ، ولكن لهذا الترتيب ما يسوّغه .

أولا : فالسمع هو أسبق حواس الطفل إلى وصله بالكون الذى نعيش فيه . فعينا الطفل تقع عليهما المرئيات دون أن تنقلا إليه معنى ، لأن الصورة لاتفهم فى ذاتها إلا مرتبطة بقدر من المعرفة لا يتأتى للطفل ، فى حين أن الطفل يستجيب لدى أول ميلاده للأصوات المزعج منها والمؤنس ، ولذلك يحصن الطفل ضد صدمات الصوت ، بما يبعثونه فى بلادنا من أصوات فى اليوم السابع لمولده .

ثانياً : إن حاسة البصر على علو مقامها عند الإنسان لا تبلغ حاسة السمع فى اتساع المدى ، وفى القدرة على الشمول والإحاطة . فالإنسان يرى فى اتجاه واحد ، فى حين أنه يتلقى الأصوات فى آن واحد من كل جهة تحيط به . سواء كان مستقبلا مصدر الصوت أو مستدبراً .

---

(١) سورة النساء : ١٣٤ .
(٢) سورة محمد : ٢٣ .
(٣) سورة البقرة : ١٨ .
(٤) سورة طه : ٤٨ .
(٥) سورة الأنعام : ٢٩ .
(٦) سورة الزخرف : ٤٠ .
(٧) سورة الفرقان : ٧٣ .

وسواء كان السامع فى الخلاء أو وراء جدار داخل أبنية ، فالإنسان يسمع وهو فى فراشه ، ملتحف بغطائه ، صوت الذئب فى الحقل أو الغابة ، وبينه وبين مصدر الصوت أمتار وأمتار ، وهو لا يدرى فى أى موقع من الغابة أو الحقل يكمن صاحب الصوت . كما يسمع وهو جالس فى بيته بين أهله أصوات البنادق والمدافع ، تقع على بعد أميال منه ، ويميز بين صوت وصوت ، ثم إن أكثر معرفة الإنسان عن أذنيه . ويرمز بالسمع للطاعة والهداية والانقياد . والعلم الحديث جعل السمع وسيلة الاتصال بالدنيا كلها عن طريق أجهزة الأسماع التى بلغت كفايتها إلى أبعد الحدود وأعلاها . أما الإذاعة المرئية فلا تزال متخلفة وراء الإذاعة المسموعة بكثير ، وإن كان من الممكن أن تلحق بها عن طريق الأقمار الصناعية .

ثالثاً : إن فقدان البصر مصاب جلل عند الإنسان ، ولكن الأعمى يبقى على اتصال بالجماعة التى يعيش فيها بفضل حاسة السمع ، أما الأصم فتنعدم صلته بالجماعة ، إذ لا يملك وسيلة للتفاهم معها ، وتلقى عواطفها ومشاعرها ، والوقوف على آرائها وخواطرها .

رابعاً : وصف الله تعالى ذاته بأنه سميع ، لأن السمع ، معناه عند عباد الله الاستجابة لهم ، والرحمة بهم ، والعطف عليهم ، والمغفرة لذنوبهم . فى حين أن البصر معناه ، مراقبة أعمالهم ، والوقوف على ما يخفونه من أخطائهم وآثامهم . والناس لا تكف عن التوبة إلى الله سبحانه وتعالى ، تلتمس عنده العون ، وتطلب منه الثواب .

* * *

للعبرانيين فى القرآن اسمان فهم تارة : « اليهود » ، وتارة ثانية : « بنو إسرائيل » . ولكن الاسم الأول ، لا يرد إلا فى حالة الغضب والتنديد فى حين لا يرد الاسم الثانى إلا حيث يذكر الله أنعمه على بنى إسرائيل ، أو يذكرهم بها ، أو يعبر عن رضاه عنهم ، فى مرحلة من مراحل حياتهم كثيرة التقلب .

ولليهود اسم ثالث ، هو « الذين هادوا » وهو لا يرد فى الأغلب الأعم إلا فى حالتى السخط عليهم أو التنديد بسيئات أعمالهم عدا موضع أو موضعين .

وإليك الشواهد على ما قدمنا :

— (يا أيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء) (١) .
— (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا) (٢) .
— (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود) (٣) .
— (ما كان إبراهيم يهودياً) (٤) .
— (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه) (٥) .
— (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) (٦) .
— (ومن الذين هادوا سماعون للكذب) (٧) .
— (قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت) (٨) .

أما اسم « بنى إسرائيل » فيرد فى المواضع التالية :

— (وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا) (٩) .
— (ولقد بوأنا بنى إسرائيل مبوأ صدق ورزقناهم من الطيبات) (١٠) .
— (يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم) (١١) .
— (ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة) (١٢) .

ومسوغ هذه التفرقة أن إسرائيل هو يعقوب ، ويعقوب هو من

---

(١) سورة المائدة : ٥١ .
(٢) سورة المائدة : ٦٤ .
(٣) سورة التوبة : ٣٠ .
(٤) سورة آل عمران : ٦٧ .
(٥) سورة النساء : ٤٦ .
(٦) سورة النساء : ١٦٠ .
(٧) سورة المائدة : ٤١ .
(٨) سورة الجمعة : ٦ .
(٩) سورة الأعراف : ١٣٧ .
(١٠) سورة يونس : ٩٣ .
(١١) سورة طه : ٩٠ .
(١٢) سورة الجاثية : ٦ .

أنبياء الله ، وهو ابن نبى هو إسحق ، وحفيد نبى هو إبراهيم ، فهو حلقة فى سلسلة صالحة من الأنبياء والصالحين ، فنسبة أحفاده إليه ، وتسميتهم باسمه ، أقرب إلى الإعزاز والتدليل منه إلى مجرد التسمية المجردة من العطف أو السخط . ولذلك لايستقيم القول أن ننسب اليهود إلى أبيهم الذى اصطفاه الله على الناس ، واختاره للرسالة ، ثم يلعنون أو تذكر سيئاتهم .

أما اسمهم العام ، الذى لايذكر فيه اسم أبيهم ، فلا بأس من إيراده مقروناً بما يستحقونه من التعنيف والتنديد .

* * *

لعلنا استطعنا أن نتبين هذا المنهج الثابت فى القرآن الذى توزن فيه الألفاظ مهما صغرت ، والأسماء مهما دقت ، بميزان عام شامل ، يستند إلى روح الإسلام ، ونظره إلى الأمور ، وإلى الأعمال ، فلا يشذ عن هذا المنهج لفظ ولا عبارة .

وقد لا نتبين ما فى هذا المنهج وبنائه من إعجاز إلا إذا ذكرنا أن القرآن لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم دفعة واحدة ، وأنه نزل منجماً على مدى اثنتين وعشرين سنة ، وشهرين وعشرين يوماً ، وأنه نزل فى مائة وأربع عشرة سورة ، وأن عدة الآيات فى هذه السور ٦٢٣٦ آية .

ولم ينزل القرآن على رسول الله فى بلدة واحدة ، بل نزل بعضه فى مكة ، وقدر ذلك ١٩ جزءاً من ثلاثين جزءاً يحتويها القرآن ، والباقى وقدره ١١ جزءاً نزل فى المدينة ، ونزل بعض القرآن فى مواضع بين مكة والمدينة ، ونزل فى السلم والحرب ، والهزيمة والنصر ، وفى فترات الشدة ومراحل الفرج ، أفلا يكون لكل هذا الزمن الطويل ، وهذه التقلبات الكبيرة ، والشدائد المتلاحقة ، أثر فى هذا المنهج ، فيبقى ثابتاً لايهتز ، واضحاً لايغمض ، واحداً لا يتعدد ؛ فهذه آية من آيات إعجاز القرآن ، جديرة بأن تستوقف النظر ، وتملأ النفوس إعجاباً ، وتملأ القلوب خشوعاً .

تكامل الإنسان في القرآن

إن غاية الإسلام هى السلام . فأحكامه من أوامر ونواه ، وقواعده من أصول وفروع ، ومنهاجه من تربية وتنشئة ، تنتهى جميعاً إلى تحقيق سلام الإنسان : سلام الإنسان مع نفسه ، ثم عائلته : جماعته الصغيرة ، وموطنه : جماعته الأوسع نطاقاً ، فالإنسانية قاطبة : جماعته الكبرى ، وأخيراً مع الكون الفسيح ، الذى يعيش فيه ، ويتأثر به .

فالقرآن (يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام) ، (والله يدعو إلى دار السلام) ، والمسلمون المؤمنون (لهم دار السلام عند ربهم) ، وهم عند دخولهم الجنة تحييهم الملائكة (وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم) ، وهم فيها (لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاما) ، والله جل وعلا (هو الملك القدوس السلام) .

وليس السلام بالمطلب الهين ، فبواعث القلق والخوف والضيق ، ودواعى التردد والارتياب والشك ، تصاحب الإنسان منذ يولد حتى يوسد التراب . فهو بعجزه أمام الكون المترامى غير المتناهى ، وجهله سر ظواهره الواضحة دع ، عنك الخفية ، وحيرته أمام آفاقه الفسيحة غير المحدودة وقوانينه الدقيقة غير المفهومة ، وفزعه لما يقع فيه من تطورات تسبب له الكوارث المهلكة من زلازل وبراكين ، وسيول وأعاصير ، وتقلبات جوية تدمر زرعه حيناً وتبيد نسله حيناً ، أصبح الخوف هو القانون المسيطر على حياة الإنسان . ومن ثم بذل الإنسان الأول أكبر جهده ، وصرف معظم وقته لتأمين نفسه ، من عوادى الطبيعة وعوادى الحيوان ، بل عوادى الإنسان نفسه ، وأصبح يعرف أن تحصيل رزقه ، وتوفير قوته ، وتهيئة مسكنه والاستئثار بأنثى أو إناث ، لا تهيئ كلها له السعادة التى ينشدها ، لأن خوفه المستمر من خطر حقيقى أو متوهم ،

حال أو متوقع ، يعكر صفوه ، وينفى عنه لذة الطعام ، ويبدد له راحة البال .

ولذلك كانت قاعدة الإسلام التى يقوم عليها كل بنائه هى السلام . فإله المسلمين هو السلام ودار المسلمين هى دار السلام ، وتحية المسلمين فى الدنيا هى السلام ، وتحيتهم فى الآخرة هى السلام (خالدين فيها بإذن ربهم ، تحيتهم فيها سلام) ، (ويلقون فيها تحية وسلاما) ، والجنة هى سلام دائم (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما إلا قيلا سلاماً سلاماً) .

فكيف يحقق الإسلام للمسلمين السلام ؟ إن الإسلام يقيم صرحه الشامخ بأحكام وأنظمة على العقيدة ، فالعقيدة هى مستودع قوة الإنسان وسر أسرار الوجود الإنسانى بأسره ، منها البداية وإليها النهاية ، فإذا كانت عقيدة الإنسان مفضية إلى تفتيت النفس الإنسانية وإحالتها إلى ميدان صراع بين قوتين من قواه ، تتجاذبه يميناً ويساراً ، سدت سبل السلام فى وجه الإنسان . أما إذا كانت عقيدة الإنسان تخلق منه وحدة متآلفة متسقة ، فقد أصبحت قوة لا ترد ، تتضاءل أمامها مفزعات الكون ، وتتبدد ظلمات الوجود .

وأولى مشكلات الإنسان التى حيرته وأرهقته وبددت قواه العقلية والروحية ، هى مشكلة الخير والشر فى الوجود . وقد تباينت مواقف المذاهب الإنسانية من هذه المشكلة . فعقائد ترى أن القوى المسيطرة على هذا الكون هى قوى الشر ، وأن الخير عاجز أمامها لا قبل له بمواجهتها فضلا عن التغلب عليها ، فلا سبيل له إلا الاستسلام لها ، أو ترضيتها ما استطاع ، فإن استخلص من براثنها شيئاً فإلى حين ، إذ لاتلبث أن تستعبده وتلتهمه ، لأن قانون هذا الوجود هو الفناء لا البقاء ، والفساد لا الصلاح ، والعنف لا الرحمة ، والخوف لا المحبة — وبالجملة كل شىء باطل .

وعقيدة ترى أن الوجود معركة ، هى حرب سجال بين الشر والخير ، يكسب هذا حيناً ، ويخسر حيناً ، وهى معركة لا تنتهى ، ولا تحقق شيئاً ، فما يبنى يهدم ، وما يهدم يبنى ، وما يزول يعود للظهور ، وما

يظهر يختفى من جديد ، وهكذا دواليك ، وعلى الإنسان أن يقاوم ، فهذا قدره ، وإن كانت مقاومته عبثًا ، فهى من قبيل ما كتب على « سيزيف » فى أساطير اليونان ، يصعد بالكرة إلى أعلى الجبل ، ولكنها لاتلبث أن تتدحرج إلى سفحه ، فيعدو إليها ليعود بها من جديد إلى القمة فتفلت منه إلى السفح من جديد .

وعقيدة ثالثة ترى الخير والشر عنصرين متكاملين كأنهما الليل والنهار ، أو الشهيق والزفير ، لاتكمل الحياة بدونهما ، فالخير ينقضه الشر ، ليأتى خير أكمل ، لينقض من جديد . ولا معنى للحياة إلا بنقض أحدهما الآخر ، وتعاقبهما ، لتكون حياة أكمل .

أما الإسلام فينظر إلى نفس الإنسان ، كما سبق القول، على أنها مستودع قوى الكون الذى يعيش فيه الإنسان فهى أقوى من الوجود المادى ببحاره وأنهاره وأمواجه وأبراجه وزلازله وبراكينه وسيوله وأعاصيره ، فالمؤمن الذى يطيع ربه يكون ربانيًا ، يقول للشىء كن فيكون ، والنفس الإنسانية تذكر فى القرآن قرينًا لآفاق الكون فى أكثر من موضع : (وفى الأرض آيات للموقنين ، وفى أنفسكم أفلا تبصرون) (١) ، (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) وآخر الأمر أن التغيير يدعه الله للنفس الإنسانية : (إن الله لايغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) .

ومن هنا ليس هناك شر محض ، ولا خير محض ، بل لعله لا شر قط ولا خير قط ، وإنما هناك نفس صالحة مؤمنة ونفس ضالة كافرة . ومن هنا أيضًا يغفر الله الذنوب جميعًا إلا أن يشرك به ، (إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ذلك لأن الشرك بالله هو قفل نوافذ النفس الإنسانية فى وجه الكون كله ، فالشرك هو الجهل فى أقبح صوره ، لأنه يسد الطريق فى وجه الفضائل الإنسانية الأولى : العدل ، والصدق ، والإخاء ، والمساواة .

---

(١) سورة الذاريات ٢٠ ، ٢١ .

وبعد ذلك يتدرج الإنسان فى مدارج القوة والسعادة ، بمقدار نصيبه من العقيدة الصالحة ، فيستحيل الكون خيراً وتزول الشرور ، وتصبح ظواهر الكون العظيم آيات الله للإنسان ، عليه أن يتدبرها ، وينتفع منها ، لا على اعتبار أنها كوارث صادرة عن كون أعمى ، يخبط بغير نظام .

قال الله تعالى : (وعسى أن تكرهوا شيئًا ، وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم) (١) .

فما يكرهه الإنسان ويحسب فيه أذاه قد يكون خيراً له ، ينفعه أو يقويه ، أو يرد عنه أذى لا يعلمه ولا يدريه ؛ وما يحبه الإنسان ، ويحرص عليه ويتشبث به ، قد يرديه أو يشقيه ، أو يهيئ له ضرًّا لا يخطر له على بال.

وفى موضع آخر من القرآن ، هو الآية التاسعة عشرة من سورة النساء ، يبدو هذا المعنى أكثر جلاء ووضوحًا :

(فعسى أن تكرهوا شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) .

فهذه الآية الكريمة زادت وضوحًا مقدار ما قد يقع فيه الإنسان من خطأ فى تقدير الشرور والخيرات ، فهو لا يكره شيئًا ينفعه فقط بل يحرم نفسه من شيء فيه خير كثير له .

فالخير والشر إذن أمران مردهما تقدير الإنسان إياهما ، فإذا أخطأ ولم يحسن التقدير كان الشر فيما ظنه خيراً ، والخير فيما ظنه شرًّا فإذاً ما يحتاج إليه الإنسان ، هو المعرفة السليمة والتقدير الحسن ، حتى لا يؤذى الإنسان نفسه من حيث أراد لها الخير (وما أصابك من سيئة فمن نفسك) (٢) .

وفى القرآن موضعان آخران لا يكمل القول بغير الرجوع إلى قول الله تعالى فيهما . أول الموضعين الآية ١٦٨ من سورة الأعراف :

---

(١) سورة البقرة : ٢١٦ . (٢) سورة النساء : ٧٩ .

(وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) ، وثانى الموضعين الآية الخامسة والثلاثون من سورة الأنبياء (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) . فالخير والشر فى ضوء هذه الأحكام السماوية مبعثهما نفس الإنسان ، ومقدار علمه ، ونصيبه من العقيدة الصالحة ، فالسلاح الذى يدفع به الإنسان عن نفسه الأذى ، هو نفس السلاح الذى قد يقتل به الإنسان نفسه أو أحب الناس إليه ، عمداً أو خطأ ، والآلة التى يمهد بها الإنسان الأرض ، هى الآلة التى يمكن أن يقصم بها ظهر الحيوان الذى يعينه ، والطعام الذى يمنحه القوة والصحة ، يمكن أن يكون الطعام الذى يسبب التخمة ، فالمرض فالموت .

فالله يبتلى الإنسان بالسلطان والثروة والنفوذ ، وجمال الوجه ، وحب الناس وكثرة العلم ؛ إذ قد يكون له من وراء كل هذه الخيرات شرور ، وأذى كبير . كما يبتليه بالضعف والمرض والجهل والفقر ويكون له من وراء ذلك خير كبير .

فى الأولى : قد يبطره الجاه والمال ويدخل فى قلبه الغرور ، ويضيع عليه فرصاً ويجلب عليه كراهية الناس ، فيفقد كل ما جمع .

وفى الثانية : قد يدفع شعور الإنسان بجهله إلى طلب العلم ، ويدفعه الفقر إلى التواضع وتآلف الناس ، وضبط النفس واحتمال مشقات الحياة .

وما يحدث للأفراد يحدث للجماعات . فكم من جماعة ابتليت بموقع من الأرض جدب ، فأحسنت رعايته ، واستخرجت منه الكنوز والثروات ، وأخرى أصابت موقعاً غنياً وسخياً ، أفاء عليها فيه الله ، فأورثها الرخاء والترف والرخاوة والاستهانة ، فغلبها على أرضها أقوام آخرون أجلاف لا نصيب لهم من العلم والمدنية . وهذا هو قانون الحضارة الدائم : أمم تعلو بجدها وصبرها ، وتقوى بتماسك أبنائها ، وتحملهم المشاق ، فإذا حققت الثروة والجاه ، غفلت عن سلاحها ، وأهملت

علمها ، فإذا هي لقمة سائغة لغيرها ممن هم أقل منها علماً وثروة ،وأكثر منها جلداً وصبراً .

وفى القرآن آيات كثيرة ، تذكر المسلمين بهذا القانون ، وتعرضه فى أكثر من صيغة (أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة) [١] ،(أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثاراً فى الأرض ، فأخذهم الله بذنوبهم، وما كان لهم من الله من واق) [٢]. (أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثاراً فى الأرض فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون) [٣].

وهذا هو القانون الذى يفسر به «توينبى» المؤرخ الإنجليزى التاريخ العام كله ، ويسميه قانون «التحدى» فمن نزل به شر ، سواء كان ضيقاً فى الرزق ، أو فقراً فى الأرض ، أو ابتلاء بجار لا يكف عن العدوان ، حفزه هذا المكروه ، أو ذلك الشر ، إلى تجميع قوته ، واستثارة كامن مواهبه ، ليعلو عليها وينجو منها ، فإذا هو أحسن حالا ، وأقوى مما كان ، وأقدر على الحياة .

ودلالات التاريخ القديم والحديث ، ودلالات حياة الأفراد الكبار والصغار تؤيد هذا القانون القرآنى ، فأهل المناطق الباردة التى لا ينقطع فيها هطول الأمطار ، وإظلام الضباب ، وتنطفىء فيها الشمس ، وتهبط درجة الحرارة إلى ما دون الصفر بكثير ، تطيب فيها الحياة ، ويحلو مذاقها ، وتزدهر فيها الفنون ، وتؤتى ثمارها ، ويضطرد فيها سير العلوم وتزكو آثارها عن بلاد أحسن أرضاً ، وأطيب جواً .

---

(١) سورة فاطر : ٤٤ . (٢) سورة غافر : ٢١

(٣) سورة غافر : ٨٢ .

فالإنسان ، بفضل عقيدة القرآن ، ليس عنصراً ضعيفاً لا حول له ولا قوة ، أمام عالم أعمى ، لا سبيل إلى التفاهم معه ، أو تحقيق الأمن فيه ، بل إن الإنسان يملك مصيره ، ويشق فى هذا الكون طريقه ، وبقدر إيمانه يعلو على ما يبدو شرًّا مستطيراً ، أما هذا العالم ، بشقيه الظاهر والباطن ، فخاضع للإنسان ، إن عرف كيف يهتدى إلى مقاليده ومفاتيحه ، بفضل إيمانه بنفسه وإراداته فى طلب العلم وتحصيله، فالله تعالى يقول لنا : (وسخر لكم الأنهار)[١] ،(وسخر لكم الشمس[٢] ،والقمر دائبين) ، (وسخر لكم الليل والنهار)[٣] ، (الله الذى سخر لكم البحر)[٤] ثم (ألم تروا أن الله سخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض)[٥] .ليس إذن الكون المادى الذى يحيط بنا عدوًّا لنا ،وإن أصابنا من بعض ظواهره كوارث ، فحسب الإنسان أن يتأمل ، ويدرس ، ويتعلم، حتى يمكنه أن يتقى هذه المصائب المدلهمة ، ثم يحولها إلى خير كثير . والعلم يثبت لنا صحة هذا النظر .

وإذا عرف الإنسان صلة الشر والخير بنفسه ، كما عرف صلته بهذا الكون المسخر له ، وأدرك أن عقيدته ، ومقدار إيمانه ، هو الذى يحقق له الخير أو يوقعه فى الشر ، بدت له الحياة جديرة بأن تحيا ، وبدت له صعابها ومشاقها ، خليقة بأن تحتمل لتدرس ، ثم لتتقى ، ثم لتستحيل مصدراً للنعم . وأخيراً بدت له الحياة ذات معنى وأنها ليست عبثاً لا طائل تحته ، وأن معناها هذا خليق بأن ينجينا من شدة الفرح بما تحقق من خير ، ومن شدة الجزع لما يصيبنا من ضر : (لكيلا تأسوا على ما فاتكم ، ولا تفرحوا بما آتاكم) ، فهذه التقلبات امتحان مستمر للإنسان ، ليسبر غور نفسه ، وليقيس قوته وقدرته، وليستخرج من

---

(١) سورة إبراهيم : ٣٢ . (٢) سورة إبراهيم : ٣٣ .
(٣) سورة الجاثية : ١٢ . (٤) سورة لقمان : ٢٠ .
(٥) سورة لقمان : ١٢٠ .

أعماقها مزيداً من خيراتها وفضائلها التي قد يبقى جاهلاً إياها مغضاً من قدرها ، حتى تكشفها له الأحداث ، وتريها إياه المحن .

ولكن هذه الحياة لا تستمد معناها منها نفسها ، إذ أنها ليست سوى الطريق إلى حياة أعلى منها شأناً ، وأكبر منها معنى ، تلك هي الحياة الأخرى ، هذه الدار الأخرى عند المسلم استحثاث مستمر دائب لا ينقطع لخطاه نحو الكمال والتسامي ، ولا نهاية لهذا السعي ، ما دامت الحياة متصلة ، وما دام كل عمل مهما صغر له جزاؤه في هذه الدنيا ، وفي الآخرة على السواء :

ولهذا فالدعاء — دعاء المسلمين ، كما علمنا القرآن : (ربنا آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة) .

والصلة بين الدنيا والآخرة ، في الإسلام ، صلة غاية في اللطف ، ولهذا تخفى على غير المسلمين ، وتخفى أحياناً على بعض المسلمين ، فإن هؤلاء وأولئك يرون في القرآن ذماً في الإقبال على الدنيا ، والانصراف إليها : (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور) ، (قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى) ، (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو) فالقرآن لا يزال يذكر المسلمين بأن ما في الدنيا زائل وفان ، ولا قيمة له لكنها كذلك — إذا قورنت بما في الآخرة ، وبما عند الله ، وبالجهاد في سبيل المبادئ التي تجعل حياة الإنسان — أفضل وأنقى وأجمل . ولكن الدنيا في ذاتها ، ليست مهملة ، ولا منسية عند المسلمين لأن قانون المسلمين (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا) و « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

وفي هذين الأثرين تكاد تتساوى الكفتان ، فكأن الدنيا والآخرة ندّان ، وهما ندّان طالما اتصلت أولاهما بأخراهما ، أما إذا كانت الدنيا عالماً قائماً بذاته يقف الناس عنده بآمالهم وهمومهم وسعيهم وتفكيرهم ، فهي في هذه الحال دار لعب ولهو ، وهي متاع الغرور ،

وهى متاع قليل ، بل إنها شر مطلق ، فالحكم على الدنيا ، وخيرها وشرها ، فرع من قانون الخير والشر فى الإسلام، فما قصد من الدنيا خيرها الزائل من متع البدن ، والثروة والأولاد والأموال ، وحب الشهوات فهى مفضية إلى الجحيم والخسران ، أما إذا كانت الدنيا مقدمة للآخرة فقد أصبحت داراً جديرة بأن يرعاها الإنسان ، ويزيد من جمالها ، ومن أمنها ، وخيرها ، لأنه لن يصيب خيراً فى الآخرة إلا بعمل فى الدنيا ، إذ لايستطيع الإنسان أن يقفز إلى الآخرة من فوق الدنيا فإنها الطريق إليها ، ولا طريق سواها . فالصلة إذن بين الدنيا والآخرة وثيقة إلى أقصى حد ، والمسلمون مطالبون بأن يجعلوا دنياهم على نسق أخراهم . أن يجعلوها دار محبة ، لا جدال فيها يفضى إلى الشحناء ، ولا أحقاد ، ولا تعطيل لمصالح الناس ، ولا أذاهم باللسان أو باليد أو حتى بالخاطرة تمر فى الرأس .

والأمثلة على ما نقول كثيرة ، نجتزئ بأوضحها دلالة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « يثاب المرء على اللقمة حتى يرفعها إلى فى امرأته » وقال رسول الله يوماً لبعض أصحابه : « فى وضع أحدكم صدقة» والوضع هو ماء الرجل يقذف به عند المعاشرة الزوجية . فقال أصحاب رسول الله : يا رسول الله ، أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ فقال : « نعم أرأيتم إذا وضع فى حرام أيكون عليه وزر ؟ (قالوا : نعم) . قال : كذلك إذا وضعه فى حلال يكون له أجر » .

ومن هذين الأثرين يظهر جلياً أن ما يبدو شديد الصلة بالحياة الدنيا ، من لقمة تؤكل ، ومن لقاء بين الزوجين يتم ، وهو ما يبدو فى الوقت نفسه منقطعاً عن الحياة الأخرى ، التى هى حياة الأرواح التى فرغت من هموم الدنيا ولذائذ البدن -. هذا الذى يبدو دنيوياً غير روحى ، وغير أخروى ، هو بميزان الإسلام ، عمل صالح ، فسيكون له جزاء فى الدنيا وفى الآخرة ، إذ أن كل ما يسبب للناس فى الدنيا ،

راحة أو متعة أو نفعًا ، وما ييسر لهم صعبًا أو يقرب لهم بعيداً ، أو يوضح لهم غامضًا ، أو ينفى عنهم أسباب الفرقة والشقاق هو عمل أخروى له جزاء فى الدار الآخرة .

فالثواب ليس وقفًا على العبادات بأنواعها ، لأن العبادة فى الإسلام ليست الصيام والقيام والإنفاق والحج ، قال رسول الله يومًا : « إن من الذنوب ذنوبًا لا يكفرها الصيام ولا القيام » فقال أصحابه : وما يكفرها يارسول الله : قال : « الهموم فى طلب العيش » .

ومن قبيل هذا : « لمداد تريقه أقلام العلماء خير من دماء الشهداء » .

وفى هذا المعنى ماروى عن رسول الله من أن الناس تحدثوا إليه عن رجل يصوم النهار ويقوم الليل فقال : « ومن يقوم عليه ؟ » أى من يوفر له أسباب العيش ؟ قالوا : أخوه . قال : « أخوه أعبد منه ؟ »

ولقد نهى الرسول صحابته أن يصوموا فلا يفطرون ، أو أن يقوموا الليل كله فلا ينامون ، أو يهجروا الناس ، وقال : « أنا أصوم وأفطر ، وأقوم وأنام وأتزوج النساء » .

وقد قال لنا الله تعالى فى سورة الجمعة : (يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله ، وذروا البيع ، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله) ، فالتجاور الشديد بين الصلاة والانتشار فى الأرض ، مما يشعر بتكامل العملين وعدم انفصال أحدهما عن الآخر ، وقد قال الله تعالى أيضاً : (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) ، وهو سؤال يستنكر فيه الله تعالى هذا التحريم لزينة الحياة وطيباتها ، لأن دنيا المسلمين ، هى دنيا الجمال ، والأناقة ، دنيا العاملين الذين يجتمع فى عملهم النشاط ، ولطف المعاملة .

فالحياة الدنيا ، إن كانت استكثاراً للأموال وتفاخراً بالأولاد ،

واستعلاء على الناس ، ونسياناً لما يدعو إليه القرآن فى كل خطوة ، وفى كل حركة ، من إقامة العدل ، وإشاعة الرحمة ، وإذاعة العلم ، وصلة الرحم والأخذ على يد الظالم ، فهى الخسران والبوار .

وفى هذا المبدأ الذى يصل الدين بالدنيا ، والأولى بالآخرة ، يصبح الإنسان كلاً لا ينفصل ، فليس فى الإسلام روح بلا بدن ، ولا بدن بدون روح ، وليس هناك حاجيات للإنسان روحية ، وأخرى مادية ، فكل عمل مادى بحت ، كطعام يؤكل أو شراب يشرب ، أو امرأة يتزوجها ، أو بناء يقيمه ، أو تجارة يديرها ، أو مساكن يرضاها كل أولئك له جانبه الروحى ، وهو لا ينسى ، لأن العبادة فى ذاتها شديدة الاتصال بالجانب المادى لحياة الإنسان ، فهى لا تصقل روحه ولا تنقى قلبه فقط ، وإنما تقيم حياته اليومية ، على أسس أكثر سلامة وتعينه على أن يربح ، وعلى أن تزداد الحياة ، لطفاً وأناقة وجمالا ، ولهذا جاء فى الأثر : «إن لبدنك عليك حقاً» وجاء فيه : « إن مصلحة الأبدان قبل مصلحة الأديان» ، و« إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » .

من كل هذا لم يكن ممكناً أن يصيب المجتمع الإسلامى ، ما أصاب غيره من المجتمعات من التصدع بسبب هذا الصراع بين الفرد والجماعة ، فالمذاهب الفردية تعلى من شأن الفرد ، ولا تطيق أن تمس حريته ، أو ينتقص ماله ، وترى الفرد هو الغاية من كل قانون ، وركن الزاوية فى كل نظام ، وتحسب أن تنافس الأفراد الحر الطليق ، هو الذى يؤدى إلى زيادة الثروات ، ونمو الطاقات ، وازدهار الأفكار والابتكار ؛ وأن الأفراد السعداء الأقوياء هم الأفراد الأحرار ، وأن الجماعة السعيدة هى التى تتكون منهم .

أما المذاهب الاجتماعية ، فترى ان الافراد ، إذا أطلقت لحريتهم العنان ، فقد استحالت حياتهم إلى فناء ، إذ أن الفرد يجب أن يستزيد

من المال ، بأى سبيل ، وأن يحصل على القوة بكل وسيلة ، وعندها سيداس الفقراء والضعفاء بالأقدام ، ومن هنا لن تقوم فى المجتمع سعادة ، بغير نظام يقدم مصلحة المجموع على الفرد ، ويحدد الحريات ، ويوقفها إذا اقتضت المصلحة ، ويوجه الثروات ويصادرها ، إذا لم تكن ثمة وسيلة غير المصادرة للإصلاح . أما الإسلام ، فقد أعلى قدر الإنسان ، وحمى شخصه ، وماله ، ومسكنه ورأيه ، من عدوان العادين ، ولكنه أخرج الإنسان منذ مولده اجتماعيًا يحب الجماعة ولايراها عدوًا له ، فقد قال رسول الله : « يد الله مع الجماعة ، والشيطان مع الفذ » ، وقد قال العباس عم الرسول للرسول عليه الصلاة والسلام : لو نقيم لك عرشًا ، فإن الناس قد آذوك ، فقال : « والله لا أزال بين ظهرانيهم ينازعوننى ردائى ، ويصيبنى غبارهم حتى يريحنى الله منهم » .

فالرسول ، وللمسلمين قدوة حسنة فيه ، كان يرى أن مكانه هو بين الناس ، لا يبتعد عنهم ولا يقوم بينه وبينهم حاجب يحجبه عنهم ، فعلموا أن المسلمين يجب أن يعيشوا معًا يتقاسمون السراء والضراء ، وقد حفظوا عن قرآنهم : (إنما المؤمنون إخوة) ، وعلموا من الرسول أنا لايكمل إيمان أحدهم ، حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، وأن مثل المسلمين فى توادهم وتراحمم ، كالجسد إذا اشتكى عضو منه ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى . وبفضل هذه الروح الجماعية ، عند أفراد المسلمين كانت الجماعة محببة إليهم ، ليست عدوًا لهم ، ولا شيئًا منفصلا عنهم ، كما هى مثلا فى المذاهب الشمولية أو الكلية فى أوربا الحديثة ، كالفاشستية والنازية ، فقد قال « ألفرد روكو » وزير العدل فى حكومة موسولينى : « إن الجماعة فى المذهب الفاشستى ليست مجموعة الأفراد ، وإنما هى كائن مستقل عنهم ، منفصل عن وجودهم ، له ذمة خاصة به تتراكم فيه وتجتمع حصيلة التراث السابق على مولد هؤلاء الأفراد ، والذى يستمر بعدهم »

أما الجماعة فى الإسلام ، فهى المصلحة العليا للأفراد ، ولكن يحكمها الدين الإسلامى ، أى عقيدة الإسلام ، كما تحكم كل فرد منهم ، فليس للجماعة حق ليس للأفراد ، فهى لا تستبيح حرمات الناس ، وهى لا تقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وهى لا تمثل بالأحياء ولا بالموتى ، لأن الحاكم المسلم كالفرد كلاهما خاضع لحكم الإسلام ، فإن خرج عليه جاز محاكمة الحاكم ، وعزله ، بل الحكم عليه بالموت . فدولة المسلمين لا يحق لها كغيرها من الدول أن تطارد الأفراد ، وتتجسس عليهم ، بل إن المواثيق والعهود ، تربطها كما تربط أى فرد ، فقد قيل يوماً لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن جماعة من غير المسلمين ارتبطت معهم بميثاق تتهيأ لنقض العهد والانقضاض على المسلمين ، فلم يأذن للمسلمين أن يبادئوها بالخيانة أو يسبقوها إلى الغدر ، وقال : أوفوا لهم واستعدوا » ومن هنا لم يقم بين المسلمين فى عهود دينهم المشرقة ، ما قام فى ظل الدول الأخرى من صراع دام بين الأفراد والدولة ، أو بين الحاكم والمحكوم ، وهيأتهم العبادات الجماعية من صلاة الجماعة والصلاة الجامعة يوم الجمعة ومؤتمر المسلمين الشامل فى يوم الحج ، أن يتشربوا روح الجماعة ، وأن يتعلقوا بها ، وأن يتحاشوا ما استطاعوا أن يخرجوا عن سبيل المسلمين متذكرين قول الله تعالى : (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا) .

وبهذا كله تصبح دنيا المسلمين دنيا سلام حقاً ، سلام يشمل الفرد والجماعة ، ويشمل الحاكم والمحكوم ، ويسود علاقة المؤمن بنفسه ، وعلاقته بربه ، وعلاقته بالكون الفسيح الذى يزداد له كل يوم فهماً ، وعليه سلطاناً ، فيزداد معرفة ، وعلماً وطمأنينة وسلاماً .

أضعف الإيمان

جاء فى الحديث الشريف : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وهذا أضعف الإيمان » .

ويحسب بعض مفسرى هذا الحديث ، أن الصفة هنا ترجع إلى الإيمان ، والواقع أن الموصوف هنا هو الوسيلة التى يتوسل بها الإيمان لا الإيمان نفسه . فالمؤمن الذى يغير المنكر بقلبه ، كالمؤمن الذى يغيره بيده سواء بسواء ، وإيمان الأول ، كإيمان الأخير لا يشوبهما ضعف ولا يلحقهما وهن . كلاهما مؤمن قوى تقى ، نهض بواجبه وأبرأ ذمته ، وعلى الله جزاؤهما وثوابهما .

والدليل على ما نقول أمران :

أولهما : القاعدة الشرعية الأساسية :
(لايكلف الله نفساً إلا وسعها) . .

وثانيهما : الحديث الشريف : « أفضل الإيمان شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناه إماطة الأذى عن الطريق » .

فمن القاعدة الأولى نعلم جميعاً أن آيات القرآن الكريم توالت على أن الإنسان يحاسب على ترك الحسنة وإتيان السيئة فى حدود قدرته واستطاعته ، فمن تعدى عن فعل الخير ، أو واقع الشر عن عجز أو إكراه فلا إثم عليه ، والله غفور رحيم ، وهو حكم تقضى به البداهة ، ولذلك جاءت شريعة المسلمين لتؤيده ولتبنى أحكامها على أساس منه ، لأن الإسلام هو دين الفطرة ، أى دين البداهة السليمة التى لاتصادم منطقاً مستقيماً ، ولا تعارض مصلحة ظاهرة ، فالإسلام يرى أن تحميل الناس ما لا يطيقون وتكليفهم مالا يستطيعون ، أمر لايصدر عن عاقل ، وشر

لاينجم عنه إلا شر أكبر منه . بل إن الإسلام لا يقنع بأن تدور أحكامه ، وأوامره ونواهيه مع الاستطاعة والقدرة إذ أنه لايدع باباً من التخفيف أو التيسير إلا فتحه ، لحمل الناس على أحكامه ، عن طواعية واختيار ليتدرجوا هم أنفسهم إلى ما فيه المشقة حتى يبلغوا ، ما يسميه الإسلام « الإحسان » .

فقاعدة « لايكلف الله نفساً إلا وسعها » كأصل أصيل فى التشريع والتقويم والهداية ، تأكدت بقوله تعالى (فمن اضطر غير باغ ولا عاد فإن الله غفور رحيم) (١) ، (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به) (٢) ، (ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لايجدون ما ينفقون حرج) (٣) .

وفى القرآن آيات تفصل هذا المبدأ ، وتطبقه ، ففى سورة التوبة (لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم) ففى هذه الآية لم يفضل المؤمنين المجاهدين على من عداهم من المؤمنين ، إلا أن يكون المؤمن الذى قعد عن الجهاد خالياً من العجز ، قادراً على الجهاد ، ولذلك جاء وصف (غير أولى الضرر) تطبيقاً للقاعدة العامة وقد روت لنا سورة التوبة أيضاً حكاية هؤلاء المجاهدين الفقراء الذين أرادوا أن يجاهدوا ، ولكن حال دون هذه الإرادة أنهم لم يجدوا دابة تحملهم ، ولم يجد الرسول لهم ظهراً ، ينقلهم إلى ميدان القتال ، فخفف عنهم القرآن ، وأذهب عنهم الحزن ، وأكد لهم أن ثوابهم لن يضيع . قال الله تعالى (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون) ، وفى سورة النحل : (من كفر بالله من

(١) سورة النحل . (٢) سورة البقرة .
(٣) سورة التوبة .

بعد إيمانه — إلا من أكره — وقلبه مطمئن بالإيمان) ، فحتى إعلان الكفر ، وهو أكبر الآثام ورأس المعاصى ،مغفور ما دام عن إكراه ، لاعن اقتناع مستقر ، ونفس مطمئنة إلى الكفر .

وإلى جانب هذا تأتى أحكام التيسير التى هى جزء من الشريعة لا يتجزأ منها ولاينفصل عنها ، تطبيقاً للحديث : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه ، كما يحب أن تؤتى عزائمه » ومن هذه الآيات(يريد الله أن يخفف عنكم)[1]، (وما جعل عليكم فى الدين من حرج)[2]، (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)[3]

أما الحديث الشريف : « أفضل الإيمان شهادة أن لا إله إلا الله وأدناه إماطة الأذى عن الطريق» فعبارته قاطعة الدلالة على أن المقصود فى لغة الحديث النبوى بأفضل الإيمان وأدناه، هو الأعمال التى يهدى إليها الإيمان ، فالحديث لايفاضل بين إيمان وإيمان ، وإنما بين عمل وعمل ، أو قول وعمل ، أو قول وقول ، وكلها مما يأمر به الإيمان أو يدعو إليه ويحبب فيه ويعين عليه ، ولكن هذه الأعمال فى ذاتها تتفاوت فضلا ونفعاً للناس ، كما تتفاضل من حيث إنها أسرع إلى تحقيق الخير ، وأفعل فى رد الشر .

ومن ثم يكون المؤمن الذى رأى منكراً فود أن يغيره بيده ، فعجز عجزاً حقيقياً ، ثم أراد أن يغيره بلسانه فاستحال ذلك أيضاً عليه ، فغيره بقلبه ، فى مثل إيمان الذى أراد أن يغير المنكر بيده فأعانه الله على ذلك ووفق إلى ما أراد . ولكن لابد أن يكون العجز حقيقياً لا مدعى به ، وأن تكون نية المؤمن ، قد انصرفت إلى رد الشر ، وفعل الخير ، إيماناً واحتساباً لا مراءاة للناس ، والتماساً للمعاذير ، ورداً للتهمة . أما إذا كان الاعتذار بالاستحالة أو عدم الاستطاعة، التماساً للنجاة ، وحرصاً

---

(١) سورة النساء .
(٢) سورة الحج .
(٣) سورة البقرة .

على الحياة فهذه صفة المنافقين ، لأن المؤمن الصادق لايدخل فى حسابه ولا يشغل باله رأى الناس ، فلايهمه أن يقولوا عنه أبلى فأحسن البلاء ، أو تقاعس ولم يؤد الأمانة ، لأنه — من وحى إيمانه — لايقنع بأقل من الكمال ، ولامتخل حتى يبذل النفس وكل المال . وفقهاء المسلمين يتفقون على أن إزالة الشر باليد واجبة ، ما لم تؤد إلى شر أكبر منها ، والأمر موكول إلى المؤمن ليستفتى قلبه ، فإن رأى إزالة المنكر باليد مستطاعة — ولو مع المشقة — وأنها لاتؤدى إلى شر أكبر منها أقدم ، فإن وفق فبها ونعمت ، وإلا فقد اجتهد وله أجر الاجتهاد . وقد جرى الناس على أن يقللوا من قدر إزالة المنكر بالقلب ، هذا إن فهموا معناها . والواقع أن إزالة المنكر بالقلب ، لاغنى عنها لمن أراد أن يزيل منكراً بيده أو بلسانه ، فاليد واللسان خادمان مطيعان للقلب ، يأتمران بأمره ، ويستمدان منه القوة وقد لايبلغان مبلغ قوته ، فليس كل مؤمن مقاتل يحسن استعمال السلاح ، وليس كل مؤمن قؤولا فصيحاً ، وإن كان المؤمن يجد فى إيمانه ، ما يعوض النقص فى الكفاية فى معالجة فنون الحياة ، وأساليب القتال ، وطرائق القول والأمانة . وإزالة المنكر بالقلب ، هى رفض لهذا المنكر ، ولعنه فى الليل والنهار والضيق به فى السكنة والحركة وانتظار الفرصة المواتية ، لإزالته باليد أو شجبه على الأقل باللسان ، والتنديد به ، ، والإهابة للعمل ضده . وما تغير فى أحوال الناس شىء إلى خير ، ومازال عن الناس شىء من الشر إلا إذا انعقدت قلوبهم على إزالته ، فإذا أصبحوا رأوا أنفسهم — من غير حديث أو اتفاق — قد أجمعوا على المناداة بسقوطه ، ثم الاستعداد للقتال للقضاء عليه والخلاص منه . والعجيب فى إيمان القلوب أن له إشعاعاً ، لا يمكن كتمانه أو إخفاؤه ، أو إقامة السدود فى وجه اتساعه ، وإيمان القلوب شىء غير هذا القول اللسانى ، الذى يتناجى به الناس عند نزول المكروه بهم من ظلم أو فساد ، فقد تكون هذه المناجاة سبيلا إلى تثبيط الهمة ،

وصرف الناس عن العمل ، لأنها قول يراد به إزجاء الفراغ ، أو ادعاء المجاهدة فى سبيل الخير . . والحق أنه لاتوجد فى قوى هذا الكون ، قوة تعلو على الإيمان ، أو تغلبه ، ولو كانت قوة منبعثة من البارود والنار ، أو من الكهرباء والبخار أو منطلقة من الطاقة الذرية ، أو ثمرة لقنبلة هيدروجينية ، وليس هذا الكلام شعراً إنما هو حقيقة علمية محسوبة بالأعداد والأرقام ، ومرسومة فى جداول وكشوف ، لعل قوة الإيمان مردها أنها قامت عند المسلمين وعند كل المؤمنين على الاقتناع العقلى بقدر ما قامت على نبض الوجدان وإشراقه ، فليس هو شعوذة ولا سحراً ، وإنما هو علم بما يحرك هذا الكون ويحكمه من قوانين تشمل آفاقه البعيدة بقدر ما تحكم نفس الإنسان ، الذى استخلفه الله وسخر له ما فى السموات والأرض جميعاً ولقد ساق إلينا العلم الحديث فى دنيا السياسة والاقتصاد لا فى دنيا الأديان والعقائد الدليل على أن القنابل الساحقة الماحقة ، قادرة على إزالة المدن وتقويض المصانع والجسور ، وقتل ألوف الناس فى جزء من ثانية ، ولكنها عاجزة أشد العجز عن تقوض الإرادة الإنسانية أو الفت فيها . لقد قتلت وأحرقت وأغرقت وأبادت ، قنبلتا هايروشيا ونجازاكى مائة ألف أو يزيد من اليابانيين ، فسلمت اليابان للولايات المتحدة وفى أقل من القليل استطاعت إرادة اليابانيين الحياة وإصرارهم على سبق العدو ، أن يعيدوا بناء ما تهدم ، وتعمير ما تخرب ، ثم على أن يكونوا أنداداً لمن أنزلوا بهم الهزيمة ، ثم أن يسبقوهم فى مجالات تفوقهم وتخصصهم : التجارة والصناعة ، حتى يكون مطلب الدولة الفائزة من الدولة المهزومة أن ترفع من قيمة عملتها عنواناً على سلامة اقتصادها ، ودليل الرفاهية والغنى . وحدث شىء مثل هذا فى ألمانيا التى ضربت قنابل الولايات المتحدة مدنها وأزالت مصانعها . لقد صدق رسول الله إذ قال : «ألا إن فى الإنسان لمضغة إن صلحت صلح ، وإن فسدت فسد ألا وهى القلب» .

الحمد لله

يبدأ المصحف . بفاتحة الكتاب ،وتبدأ الفاتحة بلفظى (الحمد لله) . والمتفق عليه ، أن فاتحة الكتاب هى السورة الثانية التى نزلت كاملة بعد سورة « المدثر » التى نزلت بعد آيات (اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم)، فلماذا بدأ كتاب المسلمين بحمد الله ، ولم يبدأ مثلا بأن لا إله إلا الله ، وهو ما بعث به رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وما أمر بأن يقاتل الناس حتى ينطقوا بها ، معلنين أنهم يؤمنون بمدلولها ؟

وهل صحيح أن الحمد لله ، كما قال جميع المفسرين ، هى فقط الثناء الجميل على الله عزّ وجل : والإقرار بأنه مستحق للحمد على كل ما يحمد عليه سواه من الصفات والنعم ، أو أن لله حكمة أكبر : من أن نثنى عليه ، وعلى صفاته ،وعلى نعمائه ، إقراراً بربوبيته ، وإذعاناً لألوهيته ، وشعوراً بعبوديتنا لذاته ، وخضوعاً لأحكامه وآياته. لننظر أولا إلى ما قاله المفسرون وهو فى جملته متشابه .

جاء فى القرطبي . عن أبي هريرة وأبي سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا قال العبد الحمد لله قال صدق عبدى ، الحمد له » . وعن أنس : « إن الله ليرضى عن العبد ليأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها » . وعن أنس أيضاً : «ما أنعم الله على عبد نعمة فقال الحمد لله إلا كان الذى أعطاه أفضل مما أخذ » . وعن أنس كذلك : « لو أن الدنيا بحذافيرها بيد رجل من أمتى ثم قال الحمد لله لكانت الحمد لله أفضل من ذلك » . وشرح ذلك أبو عبد الله فقال ـ : معناه عندنا أنه قد أعطى الدنيا . ثم أعطى

على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها ، فكانت هذه الكلمة أفضل من الدنيا كلها ، لأن الدنيا فانية ، والكلمة باقية ، هى من الباقيات الصالحات ،وقيل فى بعض الروايات : لكان ما أعطى أكثر مما أخذ. فصير الكلمة إعطاء من العبد ، والدنيا أخذاً من الله ، فهذا من التدبير . كذلك يجرى فى الكلام أن هذه الكلمة من العبد ، والدنيا من الله ، وكلاهما من الله فى الأصل، الدنيا منه والكلمة منه ، أعطاه الدنيا فأغناه، وأعطاه الكلمة فشرفه بها فى الآخرة » .

وروى ابن ماجه عن ابن عمران : أن عبداً من عباد الله قال : يارب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك ، فعضلت بالملكين (صعب فهمها على الملكين) فصعدا إلى السماء وقالا : يا ربنا إن عبدك قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ، قال الله عزوجل — وهو عالم بما قال عبده — ماذا قال عبدى ؟ قالا : يا رب ، إنه قد قال : يا رب لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك ، وعظيم سلطانك، فقال الله لهما اكتباها كما قال عبدى ، حتى يلقانى فأجزيه بها » .

وعن أبى مالك الأشعرى : الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان ، وسبحان الله ، والحمد لله تملآن ، أو تملأ ما بين السماء والأرض » .

وقال القرطبى : اختلف العلماء أيما أفضل : قول العبد : الحمد لله رب العالمين ، أو قول لا إله إلا الله ؟ فقالت طائفة : قوله الحمد لله رب العالمين أفضل ، لأن فى ضمنه التوحيد الذى هو لا إله إلا الله ، فنى قوله الحمد لله توحيد وحمد ، وفى قوله لا إله إلا الله ، توحيد فقط . وقالت طائفة : لا إله إلا الله أفضل ، لأنها تدفع الكفر والإشراك ، وعليها يقاتل الخلق ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أمرت بأن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ».

ثم قال القرطبي : والحمد فى كلام العرب معناه الثناء الكامل ، والألف واللام لاستغراق الجنس من المحامد ، فهو سبحانه يستحق الحمد بأجمعه إذ له الأسماء الحسنى ، والصفات العلا .

وقد ذهب أبو جعفر الطبرى وأبو العباس المبرد — على حد رواية الطبرى — إلى أن الحمد والشكر بمعنى واحد ، وقال بعض العلماء إن الشكر أعم من الحمد ، لأنه باللسان والجوارح والقلب ، والحمد إنما يكون باللسان خاصة ، وقيل الحمد أعم ، لأن فيه معنى الشكر ومعنى المدح ، وهو أعم من الشكر ، لأن الحمد يوضع موضع الشكر ولا يوضع الشكر موضع الحمد ، وروى عن ابن عباس أن « الحمد لله كلمة كل شاكر ، وأن الله قال لنوح عليه السلام (فقل الحمد لله الذى نجانا من القوم الظالمين) ، وقال إبراهيم عليه السلام (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق) ، وقال فى قصة داود وسليمان : (وقالا الحمد لله الذى فضلنا على كثير من عباده المؤمنين) ، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم (وقل الحمد لله الذى لم يتخذ ولداً) ، وقال أهل الجنة : (الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) ، (وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) ، فهى كلمة كل شاكر .

وعقب على ذلك كله القرطبي فقال : الصحيح أن الحمد ثناء على الممدوح بصفاته من غير سبق إحسان ، والشكر ثناء على المشكور بما أولى من الإحسان . وعلى هذا الحد قال علماؤنا : الحمد أعم من الشكر ، لأن الحمد يقع على الثناء وعلى التحميد ، وعلى الشكر ، والجزاء مخصوص إنما يكون مكافأة لمن أولاك معروفاً ، فصار الحمد أعم فى الآية لأنه يزيد على الشكر .

وقال شفيق بن إبراهيم فى تفسيره الحمد لله قال : وهو على ثلاثة أوجه : أولها إذا أعطاك شيئاً لتعرف من أعطاك ، والثانى أن ترضى

بما أعطاك، والثالث مادامت قوته فى جسدك ألا تعصيه. فهذه شرائط الحمد.

وأضاف القرطبي أن الله سبحانه أثنى بالحمد على نفسه ، وافتتح كتابه بحمده ، فمعنى الحمد لله رب العالمين ، أى سبق الحمد منى لنفسى ، قبل أن يحمدنى أحد من العالمين ، وحمدى نفسى لنفسى فى الأزل لم يكن بعلة ، وحمد الخلق مشوب بالعلل . وقيل لما علم سبحانه عجز عباده عن حمده ،حمد نفسه بنفسه لنفسه فى الأزل ، فاستفراغ طوق عباده هو محل العجز عن حمده . ألا ترى سيد المرسلين كيف أظهر العجز بقوله « لا أحصى ثناء عليك » .

وقيل : حمد نفسه فى الأزل لما علم من كثرة نعمه على عباده وعجزهم عن القيام بواجب حمده ، فحمد نفسه عنهم. لتكون النعمة أهنأ لديهم ، حيث أسقط عنهم ثقل المنة .

والحمد لله ، تقرأ برفع الدال ، ويكون معنى الآية ، فى هذه الحالة ، أنها تتضمن خبراً معناه أن الحمد من قارئ الآية ، ومن جميع خلق الله ، أى أنه يقرر حقيقة استحقاق الله للحمد عن كل ما يحمد له سواه سبحانه ، ومن جميع خلقه ، فى حين أنه إذا قرأ الآية بفتح الدال ، كان معنى ذلك قوله « حمدت الله حمداً » فكان الحمد ــ بهذا المعنى ــ من القارئ وحده .

وقال قوم إنما نقول الحمد لله تعرضاً لعفو الله ومغفرته وتعظيماً له وتمجيداً ، فهو خلاف معنى الخبر وفيه معنى السؤال . وفى الحديث « من شغل بذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين» .

وقال الطبرى ، على حد رواية القرطبي أيضاً ، الحمد لله ثناء أثنى به على نفسه ، وفى ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه ، فكأنه قال : « قولوا الحمد لله » .

ويقول الطبرى : معنى « الحمد لله » الشكر خالصاً لله جل ثناؤه ، دون سائر ما يعبد من دونه ، ودون كل ما برأه من خلقه ، بما أنعم على

عباده ، من النعم التى لا يحصيها العدد ، ولا يحيط بعددها غيره أحد ، فى تصحيح الآلات لطاعته ، وتمكين جوارح أجسام المكلفين لأداء فرائضه ، مع ما بسط لهم فى دنياهم من الرزق ، وغذاهم به من نعيم العيش ، من غير استحقاق منهم ذلك عليه ، ومع ما نبههم عليه ، ودعاهم إليه من الأسباب المؤدية إلى دوام الخلود ، فى دار المقام من النعيم المقيم ، فلربنا الحمد على ذلك كله أولا وآخراً .

وعن الحكم بن عمير : إذا قلت الحمد لله رب العالمين فقد شكرت الله فى أمرك . قال وقد قيل : إن قول القائل « الحمد لله » ثناء على الله بأسمائه وصفاته الحسنى ، وقوله « الشكر لله ، ثناء عليه بنعمه وأياديه » . وعن كعب « من قال الحمد لله فذلك ثناء على الله » . وعن الأسود بن سريع : ليس شىء أحب إليه من الحمد من الله تعالى ، والملك أثنى على نعمته فقال الحمد لله .

وقال أبو جعفر : ولاتمانع بين أهل المعرفة باللغة العربية من الحكم بالصحة لقول القائل : الحمد لله شكراً ، فقد تبين — إذا كان ذلك عند جميعهم صحيحاً — أن الحمد لله قد ينطق به فى موضع الشكر ، وأن الشكر قد يوضع موضع الحمد ، لأن ذلك لو لم يكن كذلك لما جاز أن يقال الحمد له شكراً فيخرج من قول القائل «الحمد لله» مصدر : الشكر ، لأن الشكر لو لم يكن بمعنى الحمد كان خطأ أن يصدر من الحمد غير معناه وغير لفظه .

وقيل إن دخول الألف واللام فى الحمد ، معنى لا يؤديه قول القائل حمداً بإسقاط الألف واللام ، وذلك أن دخولهما فى الحمد منبئ عن أن معناه جميع المحامد والشكر الكامل لله ، ولو أسقطنا عنه لما دل إلا على أن حمد قائل ذلك لله دون المحامد كلها ، إذ كان معنى قول القائل « حمداً لله . . أو حمد لله » أحمد الله حمداً ، وليس التأويل فى قول « الحمد لله رب العالمين » تالياً سورة أم القرآن : أحمد الله ، بل

التأويل فى ذلك ما وصفنا من أن جميع المحامد لله بألوهيته ، وإنعامه على خلقه بما أنعم عليهم به من النعم التى لا خفاء لها فى الدين والدنيا . والعاجل والآجل . ولذلك المعنى تتابعت قراءة القراء وعلماء الأمة على رفع الحمد من (الحمد لله رب العالمين) دون نصبها الذى يؤدى الدلالة على أن معنى تاليه كذلك أحمد الله حمداً ، ولو قرأ قارئ ذلك بالنصب لكان عندى محيلا معناه ، ومستحقاً العقوبة على قراءته إياه كذلك ؛ إذا تعمد قراءته كذلك ، وهو عالم بخطئه وفساده .

ثم قال : ما معنى قوله « الحمد لله » ؟ أحمد الله نفسه جل ثناؤه فأثنى عليها ، ثم علمناه لنقول ذلك ، كما قال ووصف به نفسه ؟ فإن كان ذلك كذلك ، فما وجه قوله تعالى ذكره (إياك نعبد وإياك نستعين) ؟ ، وهو عز ذكره معبود لا عابد؟ أم ذلك من قيل جبريل أو محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقد بطل أن يكون ذلك لله كلاماً .

قيل : بل ذلك كله كلام الله جل ثناؤه ، ولكنه جل ذكره حمد نفسه وأثنى عليها بما هو أهل له ، ثم علم ذلك عباده ، وفرض عليهم تلاوته ، اختباراً منه لهم ، وابتلاء . فقال لهم قولوا : (الحمد لله رب العالمين) وقولوا : (إياك نعبد وإياك نستعين) فقوله (إياك نعبد) مما علمهم جل ذكره أن يقولوه ويدينوا له بمعناه، وذلك موصول بقوله : (الحمد لله رب العالمين) ، وكأنه قال : قولوا هذا وهذا .

وقد أورد الشيخ محمد رشيد رضا ، ما ذهب إليه شيخه محمد عبده من أن الحمد الثناء باللسان ، وقيدوه بالجميل ، لأن كلمة ثناء تستعمل فى المدح والذم معاً ، يقال أثنى عليه شراً ، كما يقال أثنى عليه خيراً . ويقولون إن « ال » التى فى الحمد هى للجنس فى أى فرد من أفراده لا للاستغراق ولا للعهد المخصوص لأنه لا يصار إلى كل منهما

فى فهم الكلام إلا بدليل . وهو غير موجود فى الآية . وهذه الجملة خبرية ، ولكنها استعملت لإنشاء الحمد ، فأما معنى الخبرية فهو إثبات أن الثناء الجميل فى أى أنواعه تحقق ، فهو ثابت له تعالى وراجع إليه ، لأنه متصف بكل ما يحمد عليه الحامدون . صفاته أجل الصفات وإحسانه عم جميع الكائنات .

وأضاف الشيخ رشيد: التعريف المشهور بين العلماء للحمد: أنه الثناء باللسان على الجميل الاختيارى ، أى الفعل الجميل الصادر عن فاعله باختياره ، أى سواء أسدى هذا الجميل إلى الحامد أم لا . وأزيد عليهم أنه قد يحمد غير الفاعل المختار تنزيلا له منزلة الفاعل فى نفعه منه : إنما يحمد السوق من ربح ، وهذا هو المتبادر من استعمال اللغة . وحذف بعضهم قيد الاختيار ، ليدخل فى الحمد الثناء على صفات الكمال ، ولذلك حذف بعضهم الجميل الاختيارى بقوله سواء كان من الفضائل — أى الصفات الكمالية لصاحبها — أم الأفضال ، وهى ما يتعدى أثره من الفضل إلى غير صاحب الفضل ، والظاهر أن الحمد على الفضائل وصفات الكمال إنما يكون باعتبار ما يترتب عليها من الأفعال الاختيارية ، وما عدا هذا من الثناء يسميه العرب مدحاً يقال : مدح الرياح ، ومدح المال ، ومدح الجمال ؛ ولا يطلق الحمد على مثل هذه الأشياء. وقيل هما مترادفان .

وقال النسفى : « الحمد هو الوصف الجميل على جهة التفضيل. وهو رفع بالابتداء وأصله النصب ، وقد قرئ بإضمار فعله على أنه من المصادر المنصوبة بأفعال مضمرة فى معنى الإخبار كقولهم شكراً وكفراً » والعدول عن النصب إلى الرفع للدلالة على ثبات المعنى واستقراره والخبر لله .

واللام متعلق بمحذوف أى واجب أو ثابت ، وقيل الحمد والمدح أخوان ، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها ، تقول حمدت

الرجل على إنعامه ، وحمدته على شجاعته وحسبه .

وأما الشكر فعلى النعمة خاصة ، وهو بالقلب واللسان والجوارح . والحمد باللسان وحده ، وهو إحدى شعب الشكر ، ومنه الحديث « الحمد رأس الشكر ، ما شكر الله عبد لم يحمده » . وجعله رأس الشكر لأن ذكر النعمة باللسان أشيع لها من الاعتقاد بالجوارح لخفاء عمل القلب ، وما فى عمل الجوارح من الاحتمال ، ونقيض المدح الذم ، ونقيض الشكر الكفران . وقيل المدح ثناء على ما هو له من أوصاف الكمال ككونه باقياً قادراً عالماً أبدياً أزلياً ، والشكر ثناء على ماهو منه من أوصاف الأفضال والحمد يشملهما . والألف واللام فيه للاستغراق .

وفى تفسير المجلس الأعلى للشئون الإسلامية الحمد لله : « الثناء الجميل بكل أنواعه ، وعلى كل حال لله وحده ، ونثنى عليه الثناء كله ، لأنه منشئ المخلوقات والقائم عليها » .

وفى التفسير الوسيط : الحمد هو الثناء على الجميل الذى يصدر عن المحمود باختياره من نعمة أو غيرها ؛ أما الشكر فهو مقابلة النعمة بالثناء على صاحبها بالقول . أو مقابلة نعمته بعمل يدل على الاعتراف بها كآداب الجوارح ، أو الشعور القلبى بفضل صاحبها ، لذلك يقول الشاعر :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة   يدى ولسانى والضمير المحجبا !

وفى تفسير حمزة وعلوان و برانق :

« الثناء والشكر لله وحده ، الذى يدبر أمر المخلوقات ، ويربى عالم الإنسان والحيوان والنبات . فى الدنيا بالحياة والغذاء والتناسل ، فيمنحها من نعمه ، ما يحفظ بقاءها إحساناً منه ورحمة ، وهو وحده صاحب السلطان والقوة والتدبير يوم القيامة ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله ، يوم يحاسب كل إنسان على عمله ، إن خيراً فخير ،

وإن شراً فشر » .

فالمفسرون جميعاً قديمهم ومحدثهم ، المسهب منهم والموجز ، شغلوا بالجوانب اللغوية من الآية ، وتفسير لفظ الحمد ، وإيراد معانيه المختلفة والمقارنة بينه وبين لفظ الشكر ، والتساؤل أيهما أوسع نطاقاً وأشمل مدلولا ؟ وأيهما يصدر عن جوارح الإنسان جميعاً ؟ وأيهما يصدر عن اللسان ؟ وبالتالى أيهما أعلى مرتبة ، وأعظم مكاناً ؟ ثم التساؤل عن جملة (الحمد لله) خبرية ، أم إنشائية ؟ واللام فى لفظ الجلالة للاستغراق أم ليست له ؟ وقد غاب فى خضم هذه البحوث ، وظيفة هذه الآية ، ودورها ، فى حياة المسلم الذى يخاطب بها ، ويدعى إلى شامل معانيها ، واستخراج ما يكلف أداؤه بهذا التأمل ومقدار ما يفيده منها .

وأول ما يجب أن يسأل نفسه المسلم قارئ هذه الآية ، وهو يتلوها : لماذا يطلب منا الله أن نثنى عليه ، ونحمده ، باللسان وحده أو باللسان والجوارح ، سواء كان الثناء على صفاته أو على نعمائه وآلائه ؟ أليس الله هو الخلاق ، الذى كانت هذه الأكوان التى لاندرى من أمرها إلا ما يشبه النقير والقطمير قيمة ووزناً بعض صنعه ، وشيئاً من آثار قدرته ؟ فهل هو محتاج إلى حمد وشكر من جنس من مخلوقاته ، هو الإنسان الذى وصفه الله نفسه ، بأنه كان ضعيفاً ولاعزم له ، وأنه هلوع وجزوع ومنوع ؟

إن الفاتحة ، هى أم الكتاب ، وهى فاتحته ، وقد خصها القرآن الكريم بذكر خاص إذ قال : (ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم) ، ولقد استفتحت هذه الفاتحة بـ (الحمد لله) ، وجرت السنة على أن يبدأ بها خطيب يوم الجمعة وكل صلاة جامعة خطبته ، وجرى المسلمون على أن يبدءوا بها أول كلام لهم ، فما الحكمة فى هذا كله ؟

الحكمة فيه ، على ما نرى ، وفقنا الله إلى الصواب ــ أن هذين اللفظين هما جماع الدين كله ، وخلاصة الحكمة الإنسانية بأسرها ، وأنهما يحويان من المعانى ما يقود الناس إلى العلم ما وسع الإنسان أن يعلم ؛ وإلى السعادة كأعظم ما تكون السعادة المادية والروحية ، وتحقق لهم من القوة ، كأشمل ما تكون قوة النفس والعقل والبدن ؟

ولنر كيف اجتمع هذا كله فى حروف ثمانية ؟

ولكن لن يتيسر لنا أن نستظهر هذه الحقيقة الكلية إلا بحقائق تمهد لها .

وأولى هذه الحقائق أن الدين ، فى مفهوم الإسلام ، هو العلم والنور ، وأن الكفر والشرك هما الجهل والظلام .

وقد تواترت آيات القرآن الكريم على بيان أن الدين هو العلم والمعرفة ، وأنه ضد الجهل والعمى ، والتخبط فى الدياجير .

ولم يبدأ الوحى بلفظ « اقرأ » عبثًا ، فقد استمرت الحركة الإسلامية منذ البعث حتى النصر الذى كتبه الله للإسلام ، ثم بعد ذلك حتى اتسعت حضارة المسلمين ، تنويراً وتعليمًا ، وهداية ، ودرسًا ، وبحثًا وجدلا ، وسؤالا وجوابًا ، وشكًا ويقيناً .

فالدين جاء ليعلم الناس نواميس هذا الكون ، وليلفتهم إلى مظاهره ، وينبه أذهانهم إلى أحكامه . والسبيل الأوحد لفتح أبواب هذا العلم هو تقرير الحقيقة الأساسية أن لهذا العالم خالقًا واحداً ، وأن جميع ما نراه ونسمعه ونحسه ، ونشمه ونتذوقه من عمله ، بل حتى ما لا نفهمه ، ونعيه ، وما لا نحيط به ، ونقف عليه من الظواهر والأمور يرد إلى مسبب الأسباب ، وخالق الأكوان ، ومدبر العالمين ، وأنه أكبر من أن تعيه عقولنا ، وأن تدركه أبصارنا ، فإذا عجزنا عن أن نفهم هذه الحقيقة استحال علينا العلم سواء كان فلكاً أو رياضة أو طبيعة أو كيمياء أو طبًا ، كما استحال علينا أن نستنبط العلوم التى نسميها الآن العلوم الإنسانية من تاريخ

واجتماع وقانون ؛ ذلك لأن الشرك بالله يفسد كل العلم إذ ينسب الظواهر والأطوار التى يراها لغير سببها ، فيزعم أن إلهه المصنوع من ذهب أو فضة أو من خشب أو عجوة ، هو الذى يسقط الأمطار ، ويصرف السحاب ، أو يطلق الصواعق والرعود ، أو يجلب النصر ، أو يهزم الأعداء ، كما يبعد نحس الطالع ويشفى الأدواء . (فلا إله إلا الله) ليست حقيقة روحية تعبدية ، تلزم للصلاة الصحيحة ، وتقوم عليها العبادة السليمة ، إنما هى حقيقة علمية . بل هى أم الحقائق العلمية ، لأنها أكثر ثبوتًا . وأعظم صحة من أن واحداً زائداً واحداً يساويان اثنين ، أو من قانون الجاذبية أو النسبية ؛ لأن الإنسان الذى يعتقد أن التوسل إلى وثن . أو تقديم القرابين إليه استجلابًا لرضاه ، أو نفيًا لسخطه ، يمكن أن يبدل الجفاف ماء والجدب نماء ، لا أمل فى أن يتعلم شيئًا نافعًا ، أو يعلم هو الآخرين شيئًا مجديًا ، لأنه لو علم شيئًا صحيحًا من حيث أسبابه ونتائجه ، لا يلبث أن يخلطه بوهم من أوهام عقيدته ، فيضيع علمه الصحيح ، الذى يعينه على إقامة حياته ثم تجميلها . وقد يقول قائل ، كيف يلزم الاعتقاد والإيمان بأن (لا إله إلا الله) ليتوفر علم صحيح ، ولتقوم حضارة عظيمة ، وقد كان أهل العصور القديمة وثنيين يؤمنون بعقيدة تقوم على تعدد الآلهة ومع ذلك شادوا المبانى الضخمة ، وشقوا الطرق الواسعة ، واستنبطوا كثيراً من حقائق العلم وطبقوها فى الزراعة والصناعة ، والطب والفلك ؟ والرد على ذلك أن عقيدة الوثنيين كانت تنطوى على بذرة عقيدة التوحيد ، كما انطوت على بذرة الدين السماوى وبمقدار ما اجتمع لهؤلاء من هذه العقيدة . التى تؤمن بوجود إله أعظم ، خالق للناس وللسموات والأرض ، استطاعوا أن يتقدموا . وإنك قادر أن تتبين آثار هذه العقيدة عند المشركين من عرب مكة وعرب الجزيرة كلها فقد كانوا يسلمون بوجود الإله الخالق . ولكنهم كانوا يشركون معه آلهة دونه . والقرآن نفسه

شاهد على ذلك ، من ذلك : (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) ، (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة) ، (أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ قل : لا أشهد . قل : إنما هو إله واحد) ؛ ولهذا سموا بالمشركين ، لأنهم يشركون مع الله آلهة سواه ، وينتحلون لهذا الشرك أسباباً فتارة يقولون (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى) ، وتارة يقولون (أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا) ، فعبادتهم لغير الله سببها حيناً أن يتخذوا من آلهتهم وسيلة إلى الله ، لأن آلهتهم أقرب إلى أفهامهم ، إذ يرونها بالعين ويمسكون بها باليد ، ولأن هذه الآلهة هي آلهة الأجداد والآباء ، وهم يحبون أن يكونوا على آثار آبائهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يعلمون .

من كل هذه الآيات يبين أن المشركين لم يكونوا يرفضون عقيدة الإله الأعظم ، ولكن كانوا يرفضون واحدانيته ، وهذه عاهة ملازمة للعقل البشري ، في أطواره الأولى ، وهو لا يقوى على التخلص منها إلا بعد جهد ورياضة ، وهذا ما جاء الإسلام ليقود الناس إليه ، وليحملهم عليه . ومن وسائلها الناجعة لهذه الغاية الكبيرة ، فلسفة (الحمد لله) التي نحن بصدد بسطها .

فالعقل البشري يؤثر التجسيد على التجريد ، ويقدم القريب على البعيد ، ويشغل بالمصلحة العاجلة ، عن الفائدة الآجلة . ومن هنا كان الإله الخاص ، أقرب إليه من الإله الأعلى ، وكان الولي أعظم أثراً من تعاليم رب العالمين ، وكان الدعاء إلى الإله في شأن منصب يرتجيه أو أو ربح يؤمل فيه ، أو امرأة يطمع فيها ، أو كربة خاصة يشكو منها ، أجرى على لسانه ، وأشغل لقلبه ، من الدعاء الذي تكون الغاية منه طلب التوفيق والسداد ، والهداية إلى الخير ، والنجاة من الشر .

ولا يزال العامة ، وبعض الخاصة ، في الشرق والغرب ، وفي القديم

والحديث ، سواء كانوا من أهل الأديان السماوية وأديان الحكماء والفلاسفة ، يترددون على أضرحة الأولياء ، ويحملون التمائم والتعاويذ والأحجبة ، ولا يذكرون الله إلا قليلا ، أو لا يذكرونه إلا مقرونًا بولى من أوليائهم ، وكأن الولى هو الأصيل ، والله — والعياذ به — هو وسيلة أو شفاعة .

ولذلك كانت فلسفة الشرك هى فلسفة الإنسان فى أدواره الأولى ، والتى بقيت — على ما سبق من القول — رواسب منها فى النفس الإنسانية إلى اليوم .

ومن هنا كان الإنسان يوفق فى بعض نشاطه وتفكيره وإنتاجه المادى والأدبى ، لأن فيه آثاراً من الإيمان بالله المجرد السامى ، الذى يهدى إلى محبة الناس والإخاء بينهم ، والإيمان بالعدل والصدق والمساواة . ولكن هذه اللمحات الربانية ، لا تلبث أن تحجبها سحب الشرك ، فتأفل شمس الحضارة الوثنية ، ويسودها الطغيان والاستبداد ، وشهرة الملوك والقادة ، وخوف الفقراء والصغار ، وتتخبط الإنسانية كلها فى كل ما تقول وتعمل ، فهى لا تهتدى إلى الحقيقة العلمية ، ولا إلى الحقيقة الروحية ، وإن اقتربت منها خطوة ، بعدت عنها خطوات ، وبقيت هكذا حتى جاء الإسلام ، ليضع للشرك حدًّا حاسمًا وقاطعًا ، مجرداً ملك الله من كل تجسيد وكل ارتباط بالزمان والمكان ، والشكل والصورة ، والحجم والوزن ، ورد كل الأسباب إليه ، وعودة كل الأمور له (وإلى الله ترجع الأمور) . ومنذ ذلك التاريخ ، تاريخ بدء الحركة الإسلامية ، بدأت الحركة العلمية ، وتحررت العقول والنفوس فى الشرق ، فانطلق الفلاسفة والمفكرون والمشرعون والمصلحون ، يقولون كل شىء فى كل شىء ، وتعددت المدارس ، وتنوعت المذاهب ، وتأمل أهل العقل فى السماء والأرض ، والمعادن والعناصر ، وغزت هذه الروح أوربا غزواً هزّها من الأعماق ، وأخرجها من الظلمات دفعة واحدة ، فغشيت لها عيون ،

وكرهتها أبصار ، فكان ما عرفته من ظلمات ديوان التفتيش ومطاردة المفكرين والأحرار ، حتى فى ميدان الفلك والطبيعة ، وما قصص جليليو وكوبرنيكس وداروين إلا أمثلة مشهورة من مئات الأحوال المجهولة التى أخرت العلم كثيراً . وما جنته الإنسانية اليوم ، من ثمار العلم الباهرة ، من بدء استعمال البخار ، حتى الوصول إلى القمر ، ومن خطوات الرياضة البحتة والتطبيقية . إلى نظرية النسبية ، ليس سوى الأثر المباشر لحركة تحرير العقل الإنسانى ، على يد الإسلام ، الذى رفع عن الإنسان إصر الوثنية والشرك ، الذى حال بينه وبين معرفة أصول الأسباب ، وتبين علة العلل .

ولكن العقل الإنسانى جهاز حديث ، وتحرره أحدث منه كثيراً بطبيعة الحال ؛ ولذلك لا يزال معرضاً للغفوة والكبوة ، ميالا إلى العودة إلى ما ألفه واعتاده ، وهو ما عبر عنه القرآن (هذا ما وجدنا عليه آباءنا) ، فهو فى حاجة إلى تذكير وتنبيه وإنعاش ، وإلى تسديد وتقويم وهداية ، ومن هنا كانت حكمة (الحمد لله) .

فلا إله إلا الله ، هى الأصل والغاية ، بها أفاق العقل الإنسانى من غفوته ، وخرج من الظلام الكثيف ، إلى نور الحرية الكاملة غير المحدودة ، فلا سلطان على الإنسان إلا للعقل ، إذ سقطت بهذه العبارة الصغيرة سلطة الملوك والقياصرة ، والأمراء والأكاسرة ، كما سقطت سلطة الكهان والأحبار ، ولم يعد الإنسان خاضعاً إلا لما يقنعه ، ولا تابعاً إلا لما يؤمن به ويهتدى إليه . ولم يعد هناك حرم ، لايجوس العقل الإنسانى خلاله ، فهو يقرأ بنفسه لنفسه ، ويسأل ، ويناقش ويجادل ، ويسفه ويؤيد ، ويراجع ما قاله ، ويعدل عنه ويضيف إليه ، ويحل محله سواه ، ويبدأ من جديد ، فما دام العلم غايته ، والحقيقة ضالته ، والمصلحة العامة حافزه ، فكل ما به حرام على الناس ، أى على المسلمين : دمه ، وماله وعرضه . فما دام يؤمن بالله ، أى ما دام عقله قد تحرر ،

وما دام أنه لم يسفك دماً ، ولم يهتك عرضاً ، ولم يسرق مالا ، فلا يحق لأحد أن يضع يده عليه ، ولا أن يمسه بسوء ، فإن اعتدى عليه معتد فكل المسلمين مطالبون بالدفاع عنه ، وإلا كانوا آثمين ، يحاسبون عن تخليهم عن القيام بالتبعة ، وكأنهم كفروا (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً) .

فالحمد لله جاءت أثراً لعقيدة لا إله إلا الله ، لا لتحمل الإنسان على الإقرار بعبودية لله ، وحسب ، والإذعان لإرادته وأحكامه فقط ؛ ولو وقف المسلم بالحمد لله عند حد هذا الإقرار المادي ، ولم يكن لها من الآثار على نفسه وعقله ما رسم الله لها ، وما قصده سبحانه منها ، لكان إيمانه لفظياً لم يخالط القلب ، وكان من قبيل إيمان الأعراب : (قالت الأعراب آمنا ، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) .

فالحمد لله هي حركة في ثلاثة اتجاهات :

هي حركة عقلية أولا .

ثم حركة نفسية ثانياً .

ثم حركة وجدانية ثالثاً .

وقبل أن نفهم مدلول الحركة العقلية لعقيدة « الحمد لله » الإسلامية ، يجب أن نعرف ما اندس في بعض العقائد السماوية من تراث العقائد الوثنية ، فإله الوثني هو صورة من شيخ القبيلة ومن الملك والسلطان . فهو قوي ، ولكنه باطش مخيف ، لايخيف أعداءه فحسب ، بل أتباعه معاً . وهو يقيم سلطانه على قلوب هؤلاء الأتباع بما يملك من قدرة على الإبادة والإذلال ، وطاقة غضبه تزلزل الصروح من قواعدها ، وتهز أقوى القلوب من مواضعها ، وهو شره لايرتوي من سفك الدماء ، ولايشبع

مما يقدم إليه من فروض الخضوع والطاعة ، ولا من آيات الخوف من شره ، ولذلك تقدم له القرابين بشرية وحيوانية إلى غير حد ، وقد يكون من هذه القرابين الأطفال ، كإله « مولوخ » إله العبرانيين ، والنساء والرجال والفتيات ، وهو غيور ، لايكاد يقبل أن يوجد إلى جواره إله سواه ، فإذا تمت له السيطرة على عباده وعدهم بالنصر ، ومنحهم الغلبة على الأعداء مهما ظلموا ، بل إنه يرسم لهم سبيل الكيد للأعداء ، ويدعوهم إلى الغدر والسطو والنهب والحرق ، ويزين لهم الجرائم ، ويباركها من أجلهم ، وقد ورد فى التوراة التى بين أيدى الناس الآن شىء غير قليل من هذه الصورة ؛ وقد بدأ أول العقد بين العبرانيين وإلههم على الوجه الآتى . جاء فى الإصحاح السادس من سفر الخروج :

« أنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين ، وأنقذكم من عبوديتهم بذراع ممدودة ، وبأحكام عظيمة ، وأتخذكم لى شعباً ، وأكون لكم إلهاً » .

وتتوالى نصوص العقد ، فهو يحرض اليهود على سرقة المصريين حين يخرجون من مصر ، فيقول فى الإصحاح الثالث :

« فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ، ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وذهباً ، وثياباً تضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين » .

وإلى جانب التحريض على السرقة نرى فى سفر التثنية التحريض على الحريق والتدمير :

« حين تقرب من مدينة لكى تحاربها ، استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح ، وفتحت لك ، فكل الشعب الموجود فيها ، يكون لك بالتسخير ، ويستعبد لك ، وإن لم تسالمك وعملت معك حرباً فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فأضرب جميع ذكورها ، بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم ، وكل ما فى المدينة وكل

غنيمتها فتضمها لنفسك ، وتأكل كل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك » .

وتأتى بقية النصائح والتوجيهات فى الإصحاح السادس فى سفر يشوع :

« واحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها ، إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد اجعلوها فى خزانة بيت الرب » .

ولهذا فإنه من الجائز أن يقع بين هذا الرب ، وبين النبى موسى حوار يؤنب فيه النبي ربه ، فيقول مثلا فى الإصحاح الثانى والثلاثين من سفر الخروج :

« أرجع عن حمو غضبك ، واندم على الشر بشعبك . . فندم الرب على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه » .

فجاء الإسلام لينسخ هذه الصورة ، ويمحو كل آثارها فى نفوس الناس ، فإله المسلمين لايحابيهم ولايعدهم بالنصر ، ولا يمنيهم بالغلبة لمجرد كونهم مسلمين ، فقد أقام الإسلام حكم العلم ، وقرر أن للنصر قوانينه وأحكامه ، فمن يلزمها ، وينزل على مقتضاها يتحقق له نصر الله ، وأولى هذه القواعد أن يكون القتال من أجل الله ، وفى سبيل الله ، أى من أجل الحق ، ولإقامة العدل ، ولنصرة الضعيف . (الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) ، فمعنى آية (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) هو إقامة الإسلام ، أى إقامة العدل والحق . فليس يكفى أن يكون عدو المسلمين من غير المسلمين ، أو أن يكون مشركًا ، ليضمن المسلمون الفوز عليه ، إذ لابد أن يكونوا أهلاً للنصر فى ذاتهم من التقوى والصلاح ، والقوة والاتحاد ، والصبر فى الشدة ، والعفو عند المقدرة . والسهر فى الليل ، واليقظة فى النهار ، وإعداد أسباب النجاح والتماس وسائله .

وبعد فإله المسلمين هو إله كل الناس ، المشرك والكافر والمؤمن والصالح ، الأبيض والأسود .

فإذا اتضحت كل هذه الأحكام ، أمكن أن نفهم كيف أن (الحمد لله) تستدعى حركة عقلية من قائلها . فالمسلم يعلم أن لهذا الكون سننًا ، أى قوانين تضبطه ، وهى سنن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل (فلن تجد لسنة الله تبديلا) ، (ولن تجد لسنة الله تحويلا) . وإننا مطالبون بأن نتأمل هذه السنن ، وأن نفهمها ، وأن نرى آثارها فى الكائنات ، وفى الأحياء وفى أنفسنا ، وفيما يطرأ من الأحداث وما يجد من الأمور ، لنكون قادرين على أن ننتفع بما سخره الله لنا من الشمس والقمر ، والليل والنهار ، والجبال والبحار ، والأنعام والأنهار (أفلم يسيروا فى الأرض) .

فإذا حل بالإنسان شىء مكروه أو مرجو ، وقلنا الحمد لله ، فمعنى ذلك أننا فكرنا فى هذا الذى أصابنا ، ولم ندعه يمر بنا ، بل عرفنا أنه وقع تطبيقًا للقاعدة الكلية الكبرى ، أى أنه جاء طبقًا لقانون من قوانين هذا الكون المادية أو الروحية ، وأن علينا أن نعرف أسبابه ومقدماته ، لنستزيد من الخير إن كان خيراً ، ولندفع الشر إن كان شراً .

ولكن ما هو الدليل على صحة هذا التفسير ؟

الدليل على هذا أنه ما من شىء يطلبه الله من عباده، أو يفرضه عليهم حتى العبادات والكفارات ، إلا والحكمة من تقريره خير العباد . فالصلاة والصوم والزكاة والحج كلها عبادات الغاية منها إصلاح نفوس الناس ، ومنحهم زيادة من القوة ، ولطف المعاملة ، وصدق العهد ، واحتمال الشدائد ، والسعى لخير الناس ، والإيمان بالحق والعدل ، وهم بهذا يكسبون كسبًا شخصيًا ، وماديًا ، إلى جانب المنافع العامة ، والفضل الروحى .

ويستفاد هذا من قوله تعالى : (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها

ولكن يناله التقوى منكم) . وما تقرره هذه الآية هو مبدأ عام ، لاينصب على الأضاحى التى يتقرب بها العباد إلى ربهم ، بل يشمل كل قربى إلى الله ، ولو كانت عبادة مسنونة ومفروضة على جميع المكلفين .

فالحمد لله هى دعوة لتفكير العبد فيما يجرى فى هذه الدنيا له ولغيره ، ليكشف ما ينطوى عليه ، فإذا تأمل فسيعرف . ويقوم الحمد أو الشكر ، مقام المعرفة ، فالشاكر والعالم والشكور والعليم ، كأنهما مترادفان وإليك البيان :

فى سورة المائدة جاء قول الله تعالى (كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون) ، وجاء فى سورة الأعراف قوله عز وعلا : (كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون) وفى سورة لقمان : (ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) ، وفى البقرة : (ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) . فالشكر هنا يأتى دائماً ، بعد موضع تكشف فيه الحقائق للناس ، فالله يبين للناس آياته ، ليريهم إياها ، ويتبع هذا كله بما معناه ، أن النتيجة لهذا العلم ، أن تشكروا ، أى أن يعلموا العلم الذى ينطوى على الحمد لله والثناء عليه والشكر له . لأن غاية العبادة أن يعرف الناس حقيقة ربهم ، وأن يزدادوا علماً بأحكامه ، فحينما يصلون إلى مرتبة العلم يشكرون ، أو حينما يصلون إلى مرتبة الشكر يعلمون . ولعل هذا المعنى يزداد وضوحاً فى قوله تعالى فى سورة إبراهيم : (إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) ، وقوله فى سورة لقمان : (ليريكم من آياته إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) . ويصف الله تعالى ذاته بقوله : (ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم) ، ثم (وكان الله شاكراً عليماً) . واقتران العلم بالشكر يدل على أنهما بمعنى واحد . أو أن أحدهما يؤدى إلى الآخر ، أو يقترن به أو يقوم مقامه ، فلا يشكر أفضال الله ونعماءه وآلاءه إلا من عرفها ، ولا يعرفها إلا من شكرها . ويزيد ذلك

المعنى وضوحاً قوله تعالى : (ومن شكر فإنما يشكر لنفسه . ومن كفر فإن ربى غنى كريم)، (لئن شكرتم لأزيدنكم ، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) فإن الشكر هو بمعنى العلم ، فإنكم لاتعلمون إلا لتزدادوا فضلا ، فالخير عائد عليكم من هذا العلم ، وكلما شكرتم ازددتم فضلا ، لأنكم تزدادون علماً . والله تعالى لا يحتاج إلى شكركم وإنما أنتم المحتاجون إلى هذا العلم . وقد يمنحكم الله أفضالا ، ويبسط لكم فى الرزق والصحة ، لتروا هل تعلمون قيمة ما أعطاكم فتحسنوا الانتفاع به والمحافظة عليه فتزدادوا خيراً : (هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر) .

فالحمد لله ، هو عملية عقلية ، لأنه لا يتأتى إلا لمن تأمل فى الكون ، وشغل عقله بأسراره ، وتحمل النصب والتعب ، ليقف على أحكامه ، وهو كلما بحث وتأمل زاد الكون أمامه اتساعاً ، وزاد فى عينيه عظمة وضخامة ، فإذا به وحده محمول على الشعور بعظمة خالق هذا الكون ، فيحمله شعوره هذا بدوره إلى التعبير عنه بقلبه ولسانه ، ولا يزال فى حلقة مفرغة يتأمل الكون ، ويكشف أسراره ، فيزداد شغفاً بالبحث ، والبحث يزيده بالكون وخالقه إعجاباً وتقد يراً وتقد يساً ، ويزداد رغبة فى مواصلة النظر فى قوانين الدنيا ، فيزداد علماً ، وكلما علم زاد تقديره وحبه لهذا النظام الدقيق الذى يعلوعلى كل عقل وفهم . والذى يعلن للعالم الشكر عظمة الله غير المتناهية ، وقدرته غير المحدودة . فيزداد هو قوة إذ يزداد علماً أو إيماناً أو شكراً ، كيفما شئت .

فالحمد لله هى حافز متجدد لعقل الإنسان ، يدفعه إلى مواصلة التفكير ، وإلى الإصرار على النظر ، وعلى استحثاث الخطى فى استكناه حقائق العالم الذى نعيش فيه ، والذى أخبرنا الله سبحانه تعالى بأنه سخره لنا وأنه لاسبيل إلى الانتفاع بهذا التسخير إلا بمحاولة تبين المفاتح المفضية إلى قواه المخبوءة ، وثرواته المكنوزة ، وقد أجمل الله سبحانه وتعالى هذا كله بقوله : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

أما أن (الحمد لله) هي حركة وجدانية ، فنحن فى حاجة إلى تشبيه ، لتوضيح المقصود من ذلك .

أفرأيت اثنين يقفان أمام منظر طبيعى جميل ، أو لوحة فنية بارعة ؟ ثم أرأيت أحدهما يمر بالمنظر أو اللوحة لايحس بما فيهما من جمال ، ولا يستمتع بما يحويانه من تناسق تطيب له النفس ، ومن لطف اللون أو الحركة ، مما تصفو له المشاعر ، وتعلو به عن مشاغل الدنيا ، وهمومها ، فى حين يقف الثانى مأخوذاً بالجمال ، لايكاد يستطيع الحركة ، فينسى نفسه ، وينسى من حوله وما حوله ؟ فإذا أفاق بعد طول الوقفة ، أحس بالراحة والسعادة والقوة معاً ، وكأن هذه الوقفة زاد مادىّ صرف ذهنه عما كان يشغله ، وعلا بنفسه عن سائر الناس ، فأصبح أكثر قدرة على مواصلة السعى فى الحياة ، وأعظم إحساساً بما فيه من حب للخير ، وشعور بالجمال .

هذا بالضبط تفسير (لئن شكرتم لأزيدنكم) ، فإن وقفة صاحب الإحساس أمام المنظر الجميل، واستغراقه فى تأمله واستشعاره بالسعادة والغبطة فى الاتصال به والنظر إليه ، هى بالضبط ما يساوى (لأزيدنكم) فكلما زاد الإنسان إحساساً بالجمال زاد إحساسه دقة وزاد حبه للجمال ، فزاد شعوره رقياً ، وزادت نفسه اتساعاً ، وهو إذ يقف أمام المنظر الجميل ، يقف شاكراً ، مادحاً ، مثنياً ، مقدراً ، وإن لم يقل بلسانه حرفاً واحداً ، ولكن وقفته ، ونسيانه كل شىء ، واكتفاءه بالنظر وارتفاعه عن الدنيا بكل أصواتها وحركاتها ، كل ذلك هو الشكر الناطق ، والحمد المسموع ، والثناء الملموس .

وهو لا يشكر ، حتى يزداد فى اللحظة سمواً وقوة ، وهو لا يزداد سمواً وقوة ، حتى يزداد حباً وتقديراً ، فهى الدائرة المفرغة لايدرى أين طرفاها : تشكر فتزداد ، وتزداد فتشكر ، وهكذا لاتزداد قوة ، إلا لتزداد قدرة على الشكر ، لأنه عنوان القوة ومظهرها الخارجى . أما من يمر بلوحات الكون

وأسراره ، وهو أعمى لايرى، فهو كالحجر الأصم الأبكم ، لايعى ولا يشعر، فتسد أمامه مصادر الإلهام ومنابع القوة ، ولهذا فالكون يقول له : إنى عنك لغنى !

أما أن الحمد لله حركة نفسية ، تأتى بعد التعقل والإحساس . فذلك لأن الإنسان فى هذا الكون الفسيح المترامى ، حقير لا سند له ، حائر لا هادى يأخذ بيده ، يبدو له كل شىء غامضاً ، ويبدو له كل شىء فى هذا العالم أقوى منه وأعظم ، ثم إن الأحداث، لاتقف لحظة ، فهى فى استمرار متصل ، وتطور دائب ، وتغير لاينتهى : وهذه الحركة تسبب للكائن الحى ، من الآلام والأحزان والمخاوف ، ما لا قبل له به وحده ما لم يعنه معين . فإن هذه الحركة . تنزع الإنسان من المكان الذى يألفه ، والجماعة التى يعرفها ، والحقائق التى يطمئن إليها ، والوسائل التى يحسن استعمالها ، وتلقى به فى بحر متلاطم من الصور الجديدة ، والعلاقات الطارئة ، والأفكار المستحدثة وتطلب منه فى الحال أن يتكيف مع هذا الجديد ، وإلا ابتلعه الموج وأطبقت عليه العوالم الجديدة فغيبته فى جوفها .

ولذلك فإن الإنسان فى حاجة مستمرة إلى أن يتبين حقائق ما يجد به من الأحداث وما ينزل بساحته من النوازل ، فإن لم يتبين أن هذا التغير المستمر ليس شراً وليس خيراً ، وأن هذا العالم ليس عدوه وليس صديقه ، وأن مصدر القوة نفسه ، وموطن الطاقة قلبه ، ومنبع النور عقله ، وأن عليه أن يرى فى كل ما يصيبه نصيباً من الخير ، وبذرة للأمل ، لا على سبيل العزاء والتسرية ، بل على سبيل استقراء الواقع الصادق ، إذ أن (مع العسر يسراً) ، (وتلك الأيام نداولها بين الناس) حقائق علمية ، وأنها تمنح العالمين بها ، والواقفين عليها ، قوى لا حد لها .

وليس ثمة عدو أقسى للنفس الإنسانية من اليأس ، وليس ثمة داء أشد فتكاً بها من الخوف ، ولا يحمى الناس ويحصنهم من اليأس والخوف

إلا فهم صحيح ، وتطبيق سليم لحكمة (الحمد لله) ، فإنها تبدد الظلام ، وتقشع لها الظلمات وتجدد لها الآمال ، وتتسع بها الدنيا ، فيزداد الإنسان قوة ، ولا يزداد قوة إلا وقد ازداد قدرة على الإعجاب ، بما فى هذه النفس الإنسانية من طاقات لايعرف الإنسان مداها ، لأنه لا يفكر فيها ، ولايمد يده نحوها ليستخرجها .

فالحركة النفسية التى تبعثها (الحمد لله) فى الإنسان ، أو تبعثه هو على إتيانها ، ليس مجرد العزاء الذى يسبغه التسليم لقدر الله ، والإذعان لحكمه باعتبار أن التمرد عليه معصية ، ومعصيته لا نفع منها ، ولاجدوى فيها ، بل إنه حركة إيجابية قوامها المبدأ القرآنى (وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم) ، (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) ؛ فالمسلم الذى يقول (الحمد لله) إذا أصابته مصيبة (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنالله وإنا إليه راجعون) يقولها ليستخرج منها قوة ، لا لأنه يقارن نفسه بمن هم أشد منه ابتلاء فقط ، بل لأنه يؤمن بأن فى تضاعيف ما يبدو لنا شرًّا خيراً من نوع ما ، وأن المؤمنين ينهاهم إيمانهم عن أن يفرحوا بما آتاهم الله ، ولا يأسوا على ما فاتهم فالحياة ليست كسبًا فقط ، ولافوزاً دائمًا ، وإنما هى قبض وبسط ، وإدبار وإقبال ، وإن الإنسان يحكم على الأمور بمقياسه الصغير ، وينظر إليها بمنظاره القصير ، فى حين أن الواجب يقتضيه أن ينهض بواجباته ، ويؤدى تكاليفه ، حتى يبدو الخير ، فى جملة الحياة التى يحياها الفرد ، ثم فى جملة الحياة الإنسانية . باعتبارها كلاً لايتجزأ تطبيقًا للمبدأ المقرر فى الآية الكريمة (من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد فى الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا) .

فالحمد لله — إذن — هى مذهب كامل ، من مذاهب الحياة والإيمان ، يتفرع أساسًا عن المذهب الشامل الكامل مذهب الإسلام القائم بدوره على أن لا إله إلا الله ، وأنه مذهب ذو ثلاث قوائم ، قائمة

عقلية : وقائمة وجدانية روحية وقائمة نفسية ذاتية ، وأن غاية المذاهب حماية العقل الإنسانى والنفس الإنسانية فى مواجهة ما يهبّ عليهما من رياح الأضاليل والأكاذيب ، ولو تسترت فى شكل العلم ، واختفت وراء اسمه ، وتوفير الحيوية له ، لكى يقف ديدبانًا ساهراً لايغفل ، وحارسًا لاينتابه تعب ولا ميل للراحة ، بل لايدع العقل الإنسانى ينزلق إلى الغفوة ، أو يتوق إلى الراحة : إنها ناقوس يدعو إلى التأمل الدائم ، والتفكير المتصل ، إنها دعوة لتدبر آفاق الأرض والسموات وآفاق النفس الإنسانية التى تشبه الأرض والسماء اتساعًا ، فالحمد لله أولا وآخراً .

ذكر الله

جاء فى سورة الأنفال وصف للمؤمنين فى قوله تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون) .

وقد شرح القرطبى هذه الآية بقوله : وصف الله فى هذه الآية المؤمنين بالخوف والوجل عند ذكره ، وذلك لقوة إيمانهم ، ومراعاتهم لربهم ؛ وكأنهم بين يديه ، ونظير هذه الآية (وبشر المخبتين الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) ، وقال : (وتطمئن قلوبهم بذكر الله) ، فهذا يرجع إلى كمال المعرفة وثقة القلب والوجل والفزع من عذاب الله فلاتناقض ، وقد جمع الله بين المعنيين فى قوله : (الله نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهاً مثانى تقشعرّ منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) أى تسكن نفوسهم من حيث اليقين إلى الله ؛ وإن كانوا يخافون الله ، انتهى كلام القرطبى .

وقد جاء فى تفسير الجلالين ، فى شرح هذه الآية الأخيرة « يرتعد عند ذكر وعيده جلود الذين يخشون ربهم ثم تطمئن جلودهم وقلوبهم عند ذكر وعده » .

وفيما جاء فى تفسير القرطبى ، وفى تفسير الجلالين ، ما يدل على أن تفسير الآية الثانية من سورة الأنفال ، بما ذهب إليه القرطبى نفسه . وساير فيه جميع المفسرين القدامى والمحدثين تقريبًا ، تعارض يهدر تفسيرهم ، إذ لا سبيل إلى استقامة المعنى ودفع هذا التعارض ، إلا بتقدير أن فى هذه الآية الكريمة ، مضافًا محذوفًا يسبق لفظ الجلالة ، وهذا المضاف المحذوف ، يمكن تقديره إما بوعيد ، أو بعذاب أو بعقاب ، أو أى لفظ آخر يؤدى هذا المعنى ؛ وبذلك يتضح معنى هذه الآية فى

يسر ، وأن القصد منها أن المؤمنين حقـًا ، هم الذين إذا ذكر وعيد الله وعذابه ، وعقابه ، وجلت قلوبهم ، لأنهم يصدقون هذا الوعيد ويؤمنون بهذا العذاب ، ويعلمون يقينـًا بأن البعث حق ، والحساب حق ، والجنة حق والجحيم حق ، وإذا تليت عليهم آياته — آيات الله — زادتهم إيمانـًا .

وهذا التأويل يتفق ويتسق مع مبدأ كلى من مبادئ العقيدة الإسلامية ، جاء فى سورة الرعد ، إذ ورد فيها (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

أقول إن هذا مبدأ كلى ، ذلك لأن إله المسلمين هو رب العالمين ، وهو رب المشارق والمغارب وخالق كل شىء ، وليس كمثله شىء ، وقد وسع كل شىء رحمة وعلمـًا ، كتب على نفسه الرحمة . ولذا فإن ذكره يبعث الطمأنينة فى قلوب المؤمنين ، وينزل عليهم السكينة ، ويذهب عنهم الحزن ، ويصرف عن نفوسهم الفزع .

وقول الله تعالى (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) خطاب موجه إلى المؤمنين والكافرين على السواء ، فالمؤمنون يعلمهم الله بهذا الخطاب أنهم بفضل إيمانهم به ، واطمئنانهم إليه وثقتهم به ينزل على قلوبهم السكينة . ويبعث فى نفوسهم الطمأنينة ، ويثبتهم فى وجه الشدائد والملمات ، ويحميهم من الفزع فى النوازل والأزمات ، إذ يعلمهم أن مع العسر يسراً ، وأن الذين يتقونه سبحانه ويخشونه يجعل لهم من كل ضيق مخرجـًا ، وهم بعد هذا كله يفرحون بما آتاهم ، ولا ييأسون على ما فاتهم . أما الكافرون ففى همّ مقيم ، وحزن متصل فى النعمة والنقمة على السواء ، ففى النعمة لا يقنعون بها ، ولا ينفكون يطلبون المزيد ، ويحسدون الناس على ما أتاهم الله من فضل ، ويخشون زوال مالهم ، وهلاك سلطانهم ، يشفقون من أن يشاركهم فيه مشارك من ذوى القربى ، أو المنافسين . وهم إن نزلت بهم المصائب ذهبت نفوسهم شعاعـًا ،وتخلى عنهم عزمهم

وضاقت الدنيا عليهم بما رحبت وضاقت عليهم كذلك أنفسهم ، ذلك لأن الشيطان يعدهم الفقر ، فيأمرهم بالفحشاء ، والله يعدهم مغفرة منه وفضلا .

وهذه الميزة التى وعد الله بها عباده المتقين والمحسنين ، والمخبتين والمؤمنين هى سند المؤمنين وزادهم ، لا فى خاصة حياتهم ، بل فى جهادهم الشرك ، والزيغ ، والضلال ، وحربهم الرذائل والفواحش ، وهى عدتهم فى دعوتهم إلى الخير ، والنهى عن المنكر ، فإذا زالت عنهم طمأنينتهم التى ينزلها الله على قلوبهم عند ذكره تعالى وتبارك ، انثلمت سيوفهم ، فلم تعد تقطع ، وجمدت ألسنتهم فلم تعد تنطق ، وانطفأ نورهم فلم يعودوا يهدون ولا يهتدون ، فهم — بغير هذه العدة — يتساوون مع غيرهم من سائر الناس ، بل يتفوق عليهم أهل الدنيا ، بما لديهم من مال ، وبما حصلوا من خبرة و بقدرتهم على الإغراء والخداع .

وقد جاء فى تفسير المنار ، فى تفسير آية (فمن تبع هداى) من سورة البقرة ، كلام يتصل بما نحن فى صدده ننقله هنا :

الخوف عبارة عن تألم الإنسان من توقع مكروه يصيبه ، أو توقع حرمان من محبوب يتمتع به أو يطلبه ، والحزن ألم يلم بالإنسان إذا فقد ما يحب . وقد أعطانا الله جل ثناؤه الطمأنينة التامة فى مقابلة ما تحدثه كلمة (اهبطوا) من الخوف من سوء المنقلب وما تثيره من كوامن الرعب ، فالمهتدون بهداية الله تعالى لا يخافون مما هو آت . ولا يحزنون على ما فات . لأن اتباع الهدى يسهل عليهم طريق اكتساب الجنان ، ويعدهم لسعادة الدنيا والآخرة ، ومن كانت هذه وجهته يسهل عليه كل ما يستقبله ، ويهون عليه كل ما أصابه ، أو مافقده ، لأنه موقن بأن الله يخلفه ، فيكون كالتعب فى الكسب ، لا يلبث أن يزول بلذة الربح الذى يقع أو يتوقع » .

وقد جاء فى شرح القرطبى فى تفسير الآية الثانية من الأنفال التى

نحن بصددها :

« روى مسلم عن أنس بن مالك أن الناس سألوا النبي صلى الله عليه وسلم . حتى أحفوه فى المسألة — أى أكثروا عليه فى السؤال ، وألحوا عليه إلحاحاً شديداً فخرج ذات يوم فصعد المنبر فقال : « سلونى ، لا تسألونى عن شيء إلا بينته لكم ، مادمت فى مقامى هذا » فلما سمع القوم هذا سكتوا ووجموا ورهبوا أن يكون بين يدى أمر قد حضر . قال أنس ، فجعلت ألتفت يميناً وشمالا ، فإذا كل إنسان لاف رأسه فى ثوبه يبكى » .

ومعنى هذا الحديث ، أن المسلمين توهموا أن الرسول ينذرهم بعقاب ، أوشك أن يحل بهم ، لذلك وجموا ، وكفوا عن القول ، ثم أخذوا يبكون فى صمت وخشوع ، فلم يكن بكاؤهم لمجرد أن الرسول وقف يعظهم . فالبكاء لم يكن لأن الرسول وقف يخطبهم ، وإنما لأنهم أحسوا أن فى وقفة الرسول على المنبر ولهجته فى الخطاب ، بعد طول المحاجة والسؤال ، أن شراً موشكاً أن ينزل بهم ، لذلك قال أنس رضى الله عنه « ورهبوا أن يكون كلام الرسول بين يدى أمر حضر » .

وقد أورد القرطبى فى تفسير الآية ذاتها نقلا عن المثنى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) فأدوا فرائضه .

ثم عن سويد : قال هو الرجل يريد أن يظلم أو قال يهم بمعصية ، أحسبه قال « فينزع عنه » وهذا قول حسن ، فالإنسان يذكر الله ، فى موقف يهم فيه بمعصية أو بظلم ، فيرتعد ويفرق ، ويخشى عقاب الله ، فينزع عنه ، أى يعدل عنه .

فالإيمان بالله — عند المسلمين — هو أمان واطمئنان ، لا فزع ولا خوف ، ولذلك فإن آيات الكتاب العزيز ، تترى بأن الذين آمنوا لا خوف عليهم — ولا هم يحزنون ، ففى سورة فصلت : (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ، ولا تحزنوا ،

وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) ، وفى سورة طه : (ومن يعمل من الصالحات ، وهو مؤمن فلا يخاف ظلما ولا هضماً) ، وفى سورة الجن : (فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً) . وقد خاطب الله سبحانه وتعالى كليمه موسى (يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدىّ المرسلون) ، فالخوف عذاب يصيب به الله الكافرين ، والمنافقين ، (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون) .

أما (فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) لأن الذين اتبعوا هدى الله (لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ، (من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ، (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

وليس هذا كله إلا مصداق وعد الله (وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً) ، ولا يرد الخوف من مقام الله ، أو امتحانه ، أو بلائه إلا مقروناً بالبشرى بالخير والنعمة وحسن المنقلب : (ولنسكننكم الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد) (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ، (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى) ويبتلى الله المؤمن بشىء من الخوف ، على سبيل الامتحان ، إذ لا يلبث كتاب الله العزيز أن يبشر الصابرين أى الناجحين فى الامتحان بخير عاقبة (ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشر الصابرين) .

والخوف من مقام الله ، ينصرف كله إلى عقاب الله ، ووعيده ، فالخوف شعور مذل ، وإحساس مهين ، لا يبتلى الله به عباده المتقين ، ولكن يصاب به من خلا قلبه عن سكينة الإيمان ، وطمأنينة الثقة بعقيدة تثبت الإنسان وتقيه زعازع الدنيا ، ومخاوف الأطماع ، وخيالات وأشباح الشهوات .

وكما أن آيات القرآن التى تقرر أن المؤمنين لا خوف عليهم ولا هم

يحزنون ، فإنها تفيض كذلك بعبارة (وبشر المؤمنين) ، (وبشر المحسنين) ، (وبشر المخبتين) ، وتأتى هذه البشائر فى صيغ عديدة وإن كان المعنى ثابتاً ، من ذلك : (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً) والقرآن هو (هدى وبشرى للمؤمنين) وهؤلاء المؤمنون (لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة) .

والمؤمنون فى ظل هذه البشائر يمضون فى الحياة ، سعداء أقوياء تزيدهم السعادة إيماناً » . كما يزيدهم الامتحان والابتلاء ، فهم فى الحالين ، يعرفون أنهم يؤدون واجباً سامياً هو ضمان حسن العاقبة فى الدنيا والآخرة ، وأنهم يتقلبون فى رحمة الله وفضله ، مهما ادلهمت الأمور ، وبدا أنه لا مخرج ، ولا مغيث . وتبلغ قوتهم الحد الذى لا يخشون معه الناس جميعاً إذا اجتمعوا عليهم (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً) فى حين أن الكافرين ينطبق عليهم قول القرآن : (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه) . وهذا الكلام كله يصلح مدخلا إلى حديث طويل عن السمة البارزة فى حضارة الإسلام ، وحديث أطول منه ، عن مستقبل الإسلام ، وموقفه من المذاهب السائدة اليوم .

فحضارة الإسلام النابعة من عقيدته قامت على إشاعة الطمأنينة فى نفوس المؤمنين ، لطول ما تحدثت عن الرحمة ، والمودة ووصل الرحم ، وإيتاء ذى القربى ، ومنح الصدقات للفقراء والمساكين ، وتحرير العبيد ، والمساواة ، ودفع الحرج ، ورفع المشقة ، والدعوة إلى التيسير والتخفيف ، والحض على الرفق والحلم ، وترك المراءاة ، والأخذ بالظاهر ، والتنفير من التنطع والتكلف ، وهذه كلها سدود تقف فى طريق الخوف والفزع وتثبت أسس الطمأنينة ، فى بلد شملته بهجة الإخاء الإنسانى فاندفع العلماء يقرءون ويبحثون ، وينطلقون إلى أجواز الفضاء ، وينقبون فى باطن الأرض ، ويهتدون إلى حقائق ما سبقهم إليها سابق ، ثم أقيمت المدن ، وشقت

الطرق ، وحفرت الترع ، ورويت الأرض البور ، وتسابق الفنانون فى النقش والتصوير ، والنسج والتطريز ، والعمارة والبناء ، والموسيقى والغناء ، وأصبحت مدن الإسلام وعواصمه جامعات للعلم ، ومعاهد للدرس ، ومتاحف للفن ، وندوات للبحث ، وخزائن للكتب ، ومجالات للابتكار والابتداع ، فى عالم الفكر والصناعة ، وفى دنيا العلم والزراعة .

ثم لما أدال الدهر على المسلمين ، وانطفأت مشاعل العلم فى معاهدهم ، ومدارسهم ، وأقفرت حلقات الدرس فى جوامعهم ومساجدهم ، غلبت على الفكر الإسلامى ، فى انحداره وغروبه ، فكرة أن الدين الحق هو الذى يبيت فى ظله المسلمون على خوف ، ويستيقظون فى خوف ، وأن المسلم الصادق هو الذى يتوهم فى كل عمل يأتيه إثماً ، وفى كل قول يسمعه كفراً ، وفى كل رأى يدلى به صاحب رأى إلحاداً حتى كان الإسلام ، صنواً للوسوسة . أو شعوراً بالاضطهاد . وقد زاد من هذه البلية أن علماءهم ، أشفقوا — زمناً غير قصير — من الاجتهادات بدعوى أن السلطان فى بلاد المسلمين ، قد انتقل إلى أقوام لا صلة لهم بالدين ، ولا هم لهم إلا تثبيت ملكهم ، واسترقاق رعاياهم ، وخطف أرزاقهم ، ونهب أموالهم ، وهتك أعراضهم ، وهم فى ظلمهم وطغيانهم فى حاجة إلى من يحلل حرامهم ، ويبرر طغيانهم ، فلو فتح باب الاجتهاد ، دخل منه أدعياء الدين أفواجاً ، لاشرحاً لنص فى القرآن ولا استلهاماً لقاعدة من قواعد الشرع ، ولا قياساً على حكم ، انتهى إليه إجماع المسلمين ، بل تقرباً إلى الحكم وزلفى . والحق أن هذا الخطر واقع ، ولا توهم فيه ، ولا مبالغة ، ولكن هذا دور (ذكر الله) وأثره ، فإذا كان ذكر الله ، تطمئن به القلوب ، فلا خوف من صاحب سلطان مهما طغى ، ولا من حامل سيف مهما هدد أو أرعد ، وقد واجه علماء الإسلام ، والدين لا يزال غضاً ، محن اعتداء أصحاب السلطان فاستمسكوا بدينهم ، واحتملوا السجن والأذى ، وأشرفوا على الموت ، ولم يهنوا أو يضعفوا ، ولا يمكن

أن يكون الدين دينًا ، إلا إذا أعان على احتمال المشاق ، والصبر على المكاره ، مع الدعوة الملحة إلى أحكامه الكبرى ، فى مثابرة لاتنقطع ، وهمة لاتفتر .

فإذا عاد المسلمون داخل أوطانهم إلى ما كان عليه آباؤهم الأوائل ، كانت للمسلمين حياة بهيجة مشرقة . تزدان بالذوق والرقة ، واللطف والألفة وتتعانق فيها الفرحة بالعمل ، والترحيب بالجهاد : وثابت إليهم الثقة بأنفسهم ، فناقشوا ، وقرءوا ، وعرضوا أفكارهم ودافعوا عنها ، وسمعوا كلام الناس ، وأسمعوهم كلامهم ، وأحسوا أن دينهم مطلوب ، وأن دورهم باق لهم ومحفوظ ، وأن الإنسانية التى أحاطت بها المصائب والكوارث ، وسدت أمامهم سبل النجاة ، وتراكمت بين يديها المشكلات التى لا تحل ، والأزمات التى لاتنفرج ، فى أشد الحاجة إلى رأى علماء المسلمين الذى ورثوا عن أجدادهم تقاليد العلم الصحيح الذى لا يخاف ، ولا يهرب ، والذى يلقى بنفسه فى أمواج الألغاز والمعميات ، يسبح ما استطاع السبح ثم يقف ، ليستجم ، ويستعيد قواه ، ثم يستأنف العوم ، لا يخاف الغرق ، ولا يتقى البلل .

والحق أننا لا نطمع فى أن يدرك المسلمون ، هذه الحقائق المهجورة ، من دينهم ، فى يوم وليلة ، فالأمر يحتاج إلى جهاد طويل ، دونه العقبات والحوائل لأن الغاية : ليست بالصغيرة ، ولا بالقريبة ، ولكنها تستحق احتمال المشقة ، والصبر على المكاره .

ولو فعلنا لخرج جيل من المسلمين الأقوياء المطمئنين ، يبعثون فى قلوب آخرين أفزعهم حال الناس فى المشارق والمغارب ، الطمأنينة والسكينة ، تتقدمهم أعلام نقشوا عليها قول الله تعالى : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) .

العقاب

نشرت « الأهرام » منذ سنين البيان الذى أذاعه « رمزى كلارك » المدعى العام فى الولايات المتحدة فى تقريره السنوى عن الجريمة فى بلاده، وقد جاء فى هذا البيان أنه تقع فى الولايات المتحدة جريمة قتل كل ٤٣ دقيقة ، وجريمة اغتصاب إناث كل ١٩ دقيقة ، وجريمة سرقة كل دقيقتين ، وجريمة سطو وجريمة اختطاف كل ٢٠ ثانية ، وجريمة سطو على السيارات كل ٤٨ ثانية .

ولا أدرى كم بلغت الجرائم فى السنين اللاحقة لإعلان هذا البيان ، ولكن الذى أعلمه أن «نيكسون» رئيس الولايات المتحدة قال فى خطابه السنوى للكونجرس إن من أهدافه الكبرى معالجة تزايد الجريمة . ونظام العقوبة فى دولة يقاس نجاحه بتناقص الجريمة فيها .

ولقد عالج الإسلام الجريمة بأسلوب يختلف تمامًا عن معالجة المشرع الحديث لها ، ولكن فلسفة العقوبة فى الإسلام لم تظفر بعد بما تستحقه من عناية فى تقريبها للأفهام ، وأول عناصر فلسفة الإسلام فى الجريمة والعقاب ، أن العقاب وحده لا ينفع فى ردع المجرمين ولا فى قمع الجريمة . فلابد من أمرين يتعاونان ليصل المجتمع الإنسانى إلى مايحتاج إليه من أمن واستقرار ، وحسن علاقة بين أفراده وجماعاته ، الأول : إحساس شديد بالواجب ، وضمير يقظ غاية اليقظة كاره للرذيلة والخطيئة ، ساهر كالديدبان .

والثانى : مجتمع تقل فيه بواعث الجريمة ودواعيها ، قبل قيام أجهزة العقاب والحساب ، والشرطة والحاكم ؛ مجتمع خال من أسباب الحرمان ،

ومن مثيرات الكراهية والحقد ؛ يجد فيه الفقير حاجته ، ويجد فيه الضعيف السبيل إلى رفع الصوت بالشكوى .

ولقد نجح القرآن بتأكيده للمسلمين أن الله معهم فى كل مكان وكل زمان فى أن يوقظ ضمائرهم . فقد قال لهم ، (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم) .

أما العنصر الثانى فقد تكفلت الشريعة الإسلامية كلها بخلق المجتمع الذى تتضاءل فيه أسباب الجريمة .

فإذا جاء العقاب فى الشريعة الإسلامية بعد ذلك ؛ كان بمثابة خط الدفاع الأخير .

فالعقوبات فى الحدود ، هى عقوبات منصوص عليها ولا سبيل للعفو عنها ، ولا التخفيف منها ، ولكنها قليلة ومحدودة ، إذ لا تزيد على ستة وهى — كما ذكرنا — حد السرقة ، وحد الزنا ، وحد الشرب ، وحد القذف ، وحد قطع الطريق ورفع السلاح .

وقطع يد السارق الذى يبدو للناس غليظًا مسرفًا فى الشدة ، أرحم من عقوبة السرقة بالحبس فى العهد الحديث ، وأنجع فى معالجة الجريمة ؛ ذلك أن الإسلام يفرق بين سارق جائع ، وسارق شبع ولكنه مع شبعه يعتدى على أرزاق الناس وأموالهم . فقد أوقف عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، حد السرقة فى عام المجاعة لما اشتدت حاجة الناس إلى الأقوات .

وأوقف حد السرقة فى حالة غلمان عبد الرحمن بن حاطب لما أحس أن سيدهم يجيعهم ولا يعطيهم حقوقهم قائلا : أما لولا أنى أظنكم تستعملونهم وتجيعونهم حتى لو وجدوا ما حرم الله أكلوه لقطعتهم » . فقطع يد السارق لا يقع ابتداء ، إنما لابد أن تسبقه مراحل من الدعوة ، ومن رفع المستوى الروحى والمادى للمجتمع ، ومن القضاء على أسباب السرقة ،

حتى لا يسرق إلا عدو للمجتمع . ولقد أوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم حد السرقة فى الحروب ، لأسباب تتعلق بأمن المجتمع . وهو يواجه أعداءه .

أما حد الزنا ، فلا ينفذ إلا فى جان أو جانية اعترفا على نفسيهما بالذنب وطلبا العقاب تكفيراً وتوبة ، أو بشهادة أربعة رجال ليس فيهم امرأة ، وأربعة رجال عدول يشهدون أنهم رأوا فعل الزنا كاملا . فقارن هذا بما يقضى به القانون الحديث من عقاب الزانى بشهادة واحد أو بالقرائن التى يقتنع فيها القاضى بحدوث الجريمة . وعقول القضاة كعقول الناس تتفاوت ، فعقوبة الزنا فى الإسلام هى فى الواقع حد لمنع نشر الرذيلة ، والتحدى بالفحشاء ، وإلى جانب هذا الحد يقوم أيضاً حديث رسول الله : « أيها الناس من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات فاستتر فهو فى ستر الله » .

أما حد الشرب فلا يثبت إلا باعتراف الشارب ، أو إذا أحضر إلى مجلس القاضى ، ووجد منه القاضى رائحة الخمر ، ولا تكفى القرائن فى إثبات الجريمة ولا شك أن هذا الحد لا يقوم إلا بعد أن تحرم الحكومة تعاطى الخمر ، كما حرمته الولايات المتحدة سنين طويلة ، وأنفقت فى سبيل الإبقاء على هذا التحريم بلايين الدولارات .

أما حد القذف ، وهو الجلد ثمانين جلدة ، فلا ينفذ إلا فيمن اتهم رجلا أو امرأة بالزنا واللواطة ، ولم يقدم شهوداً أربعة على صحة دعواه ، ولا أحسب أن أحداً يستنكر هذا العقاب .

أما حد قطع الطريق ومحاربة الحكومة ورفع السلاح عليها ، فهو جزاء تنفذه جميع الدول ، ولا ترى داعياً إلى تسويغه ، وهو فى الإسلام الصلب أو قطع الأيدى والأرجل من خلاف أو النفى .

أما قتل من يرتد عن الإسلام فيقول فيه الشيخ عبد العزيز جاويش : وخلاصة رأينا فى ذلك أن القرآن لم ينص فى آية ما على قتل المرتدين عن

دين الإسلام . وأما الأحاديث التي سردها البخاري . فليس شيء منها فيما نرى جاء نصاً في القول بالقتل . كما يقول الشيخ شلتوت : « إن الكفر بنفسه ليس مبيحاً للدم ، وإنما المبيح للدم هو محاربة المسلمين . وإن طوابع القرآن الكريم في كثير من الآيات تأبى الإكراه » .

فإذا انتقلنا إلى الباب الثاني من العقوبات في الإسلام . وهو باب القصاص . والقصاص لغة هو المقابلة والمماثلة . وسنده قول الله تعالى : (وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف . .) وقوله تعالى :

(وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) ؛ والغاية منه أن يصاب الجاني بأذى مماثل لما لحق بالمجني عليه . وقد يصعب إنزال الجرح أو القطع أو الكسر بالجاني على وجه مماثل لما وقع بالمجني عليه ، لذلك أجاز الشرع أن يحل محل القصاص الفعلي (معنى وصورة) قصاص معنوي فقط . أي بدفع التعويض الذي تعرفه الشريعة اصطلاحا بالدية وللمجني عليه ، ولأولياء الدم إذا قتل المصاب ، العفو والنزول عن القصاص مقابل الدية ، أو بغيرها استناداً إلى قول الله تعالى : (فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان) . وبمقتضى السنة أن للمجني عليه أن يقتص أو يعفو أو يأخذ الدية . وقد قال خادم الرسول أنس بن مالك رضي الله عنه : ما رفع إلى الرسول أمر فيه قصاص إلا طلب فيه العفو . وما دام العفو جائزاً في القصاص ، فهنا مجال فسيح لاجتهاد المجتهدين ، لنقل عبء القصاص إلى الدولة .

أما جرائم التعزير فهي كل الجرائم فيما عدا الحدود والقصاص . وعقوبات جرائم التعزير متروكة للوالي وللقاضي ، وبذلك هي تتراوح بين إحضار المتهم إلى القاضي والتوبيخ وبين القتل . ومعنى ذلك أن عقوبات قانوننا الذي ننفذه ، فيما عدا الحدود والقصاص ، هي جرائم تجيزها الشريعة .

وبعد ، فالقانون فى أى مجتمع ، وإن كان أساساً من أسس ذلك المجتمع ، هو جزء من كل ، ولبنة فى بناء ، فلا يتصور قيام قانون بفلسفة ما ، فى بناء يناقض هذه الفلسفة ويعاديها ، إنه ليكون كالقلب السليم ، فى جسم مريض يرفضه ويطرده .

لماذا لم يرد لفظ الحرية فى القرآن ؟

كدت أجعل عنوان هذه الكلمة « لا حرية فى الإسلام » ، ولكنى أشفقت أن يسوء وقع هذا العنوان فى النفوس ، وأن تغيب فكرته وحكمته فى شدة الغضب منه . أو بسبب الازورار عنه .

فمما لاجدال فيه ، أن الإسلام دين الحرية . جاء ليعلنها . وليوسع مداها . وليجعلها غاية ووسيلة ، ونهاية وبداية ، وجوهراً ومظهراً ، وسلاحًا يدفع به ، وحمى يدفع عنه . فلا إكراه فى الدين ، ولادين مع الإكراه ، ولا ثواب ولاعقاب للمضطر المحمول على العمل بغير إرادة أو نية .

ولكن مع هذا قد خلا القرآن من لفظ الحرية ، وما اشتق منها . فلم يرد فى الكتاب سوى لفظ « التحرير » ، بيانًا لكفارة بعض الذنوب ، وقصد به إعتاق عبد أى فك رقبة . جاء هذا الحكم فى سورة النساء والمائدة والمجادلة ، ومثله الآية الثانية والتسعون فى سورة النساء : (ومن قتل مؤمنًا خطأ فتحرير رقبة مؤمنة) ، كما ذكر لفظ « الحر » مرة واحدة وهو يعنى به غير الرقيق .

أما الحرية بمعناها الذى نفهمه اليوم ، ونتداوله ونلوكه ، فلا ذكر له فى القرآن الكريم ولا أثر ؛ فما سر هذا ؟

إن القرآن ذكر أطوار الإنسان ، فمن تراب أو طين أو ماء مسنون إلى نطفة فعلقة فمضغة مخلقة أو غير مخلقة ، فطفل ، إلى رجل يبلغ أشده ، فشيخ هرم قد يبلغ أرذل العمر ، ثم ذكر خصائصه فى النعمة والشدة ، ومواقفه عند الدعوة إلى الدين من إيمان وكفر ، ومن صدق ونفاق ، ومن ثبات وتردد ، لا إلى هؤلاء ولا أولئك ، وأطال الكتاب الكريم الحديث عن

خروج الإنسان من الضلال إلى الهدى ، ومن الظلام إلى النور ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن الكفر إلى الإيمان ، ولكنه لم يتحدث قط عن الخروج من العبودية إلى الحرية ، فما السر فى ذلك أيضاً ؟

السر واضح لمن يعرف منهج القرآن وأسلوب الإسلام . فالعقيدة فى القرآن هى الأساس الذى تقوم عليه حياة المسلمين ودنياهم وأخراهم ، وتتلون به وتتأثر شئون معاشهم ومعادهم .

وكل ماعدا العقيدة ، إما باطل لا تحفل به ، ولا تقف عنده ، وإمافرع منها ، أو أثر لها .

فالهداية هى غاية هذا الدين «الإسلام» ، وهدف ذلك الكتاب «القرآن» . وإذا اهتدى الناس ، وخرجوا من الظلام إلى النور ، ومن الكفر إلى الإيمان ، أصبحوا أحراراً . فالحرية لاتتحقق فى الإسلام وحدها ، فالإنسان لايكون حرًّا ، إلا إذا كان مؤمنًا ، بما دعا إليه الإسلام . وإذا آمن ، كملت قوته ، فلم يعد يحسب حساب أية قوة خارجة على هذا الإيمان ، أو جاهلة له أو معتدية عليه ، وهو إذ لايخاف القوة ، أيًّا كانت ، يعلو عليها ويحس أنها أصغر من أن تخيفه ، أوتفرض عليه شيئًا «فيتحرر» فحريته نابعة من عقيدته ، و «الله أكبر» هو جوهر هذه العقيدة ، فما دام الله أكبر من كل شىء ، ومن كل شخص ، فالانقياد إليه ، واتباع ما يأمر به ، يكفى المؤمن التفكير فيما يأمر به أصحاب السلطان ، فإن التزموا ما تقضى به العقيدة الإسلامية من احترام الإنسان وتكريمه فلن يثور بينه وبينهم نزاع ، وإن خرجوا على هذه العقيدة «فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق» .

من هنا لم يتحدث الإسلام قط عن الحرية ، لأنه تحدث طويلا عن الإيمان ، والفرد إذا آمن بالإسلام ، لايقول إنه تحرر ، وإن كان التحرر عنصراً من عناصر إيمانه ، وثمرة من ثماره . وكأن القرآن يقول — إذ أمسك عن ذكر الحرية ، وعن ذكر التحرر — إننا إذا سلخنا الحرية عن

العقيدة . رأينا أن ما حسبناه حرية — إذا لم تصلح عقائد الحاكمين والمحكومين — عبودية . فليس فى الأنظمة كافة . حتى ولو كانت الإسلام نفسه . مايقى الناس من التردى فى مهاوى العبودية ، فما لم يكن الإسلام حقيقة يعيشها الناس . وإيمانـًا يخالط قلوبهم . لم يكف اسمه ولارسمه . ولا التمسح فيه ، ليحمى حرية الإنسان فبعد عهد الخلفاء الراشدين ، استحالت الخلافة . إلى ملك عضوض ، فانطفأ أكثر النور الذى كان يبعثه الإسلام فى القلوب ، فولى أمر المسلمين طغاة لايعرفهم الإسلام ولا يحسبون من عداد حكامه .

أدرك الإسلام هذا كله منذ أربعة عشر قرنـًا ، قبل أن تنشأ أنظمة الحكم الحديثة ومذاهب الفكر السائدة ، فلم يحدث الناس عن حريتهم ، إنما حدثهم عن أنفسهم ودعاهم إلى الإيمان لأنه الطريق المفضى إلى حرية حقيقية ، تواجه كل ظلم وكل تزييف .

ويخطئ الذين يحسبون أن الإيمان عند الإسلام استغراق فى الأوهام عن الدنيا ، أو فرار من الحياة ونكول عن أداء واجباتها الصغرى والكبرى معـًا . فالإسلام أقام بناءه ، بعد جهاد كابد فيه المقاتلون الأوائل ، ومن جاء بعدهم ، مشكلات الحياة اليومية ومآزق السياسة الدولية ، ثم قال الإسلام للمسلمين إن المرء يثاب حتى على اللقمة يرفعها المرء إلى فم زوجته ، وقال لهم إن مداداً تريقه أقلام العلماء خير من دماء الشهداء ، وقال لهم إن فى ذنوب العبد ذنوبـًا لايكفرها الصيام ولا القيام ، فلما سألوا النبى صلى الله عليه وسلم : « وما يكفرها ؟ » قال لهم مامعناه : يكفرها السعى فى المعايش . من أجل ذلك سكت القرآن عن ذكر الحرية .

الغيب

وصف الله تعالى فى أولى آيات سورة البقرة المتقين فقال إنهم (الذين يؤمنون بالغيب) ، فماذا يكون هذا الغيب ؟

قال القرطبى فى شرح الآية : « الغيب فى كلام العرب ، كل ما غاب عنك » .

ثم قال : « واختلف المفسرون فى تأويل الغيب هنا ، فقالت فرقة : الغيب فى هذه الآية ، الله سبحانه ، وضعفه ابن العربى ، وقال آخرون القضاء والقدر ، وقال آخرون : القرآن وما فيه من الغيوب ، وقال آخرون ، الغيب كل ما أخبر به الرسول عليه السلام مما لاتهتدى إليه العقول من أشراط الساعة ، وعذاب القبر والحشر والنشر ، والصراط والميزان والجنة والنار . قال ابن عطية ، وهذه الأقوال لا تتعارض بل يقع الغيب على جميعها » .

ثم قال القرطبى : « وهذا هو الإيمان الشرعى المشار إليه فى حديث جبريل عليه السلام حين قال للنبى صلى الله عليه وسلم : فأخبرنى عن الإيمان قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره » قال : صدقت . وذكر الحديث . وقال عبد الله بن مسعود ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب ، ثم قرأ : (الذين يؤمنون بالغيب) ثم قال القرطبى : وفى التنزيل : (وما كنا غائبين) وقال « الذين يخشون ربهم بالغيب » فهو سبحانه غائب عن الأبصار ، غير مرئى فى هذه الدار ، غير غائب بالنظر والاستدلال ،

فهم يؤمنون بأن لهم رباً قادراً يجازى على الأعمال، فهم يخشونه فى سرائرهم وخلوهم التى يغيبون فيها عن الناس . لعلمهم باطلاعه عليهم وعلى هذا تتفق الآى ولا تتعارض ، والحمد لله » .

وقال ابن جرير الطبرى فى تفسير الآية : « عن ابن عباس (بالغيب) قال بما جاء منه . يعنى من الله جل ثناؤه وعن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم : أما الغيب فما غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار ، وما ذكر الله تبارك وتعالى فى القرآن . لم يكن تصديقهم بذلك ، يعنى المؤمنين من العرب — من قبل أصل كتاب أو علم كان عندهم » .

وعن زر قال : الغيب القرآن ، وعن قتادة : « آمنا بالجنة والنار ، والبعث بعد الموت ، وبيوم القيامة ، وكل هذا غيب » . وعن الربيع ابن أنس : « (الذين يؤمنون بالغيب) : آمنوا بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر ، وجنته وناره ولقائه ، وآمنوا بالحياة بعد الموت ، فهذا كله غيب وأصل الغيب : كل ما غاب عنك من شىء وهو من قولك : غاب فلان يغيب غيباً » .

وجاء فى تفسير المنار أن الإيمان بالغيب هو الاعتقاد بموجود وراء المحسوس ، وجاء فى التفسير أن الشيخ محمد عبده قال : وصاحب هذا الاعتقاد واقف على طريق الرشاد ، وقائم على أول المنهج ، لا يحتاج إلا لمن يدله على المسلك ، ويأخذ بيده إلى الغاية ، فإن من يعتقد بأن وراء المحسوسات موجودات يصدق بها العقل ، وإن كانت لا يأتى عليها الحس ، إذا أقمت له الدليل على وجود فاطر السموات والأرض المستعلى عن المادة ولواحقها ، المتصف بما وصف به نفسه على ألسنة رسله ، سهل عليه التصديق ، وخف عليه النظر فى جلى المقدمات وخفيها ، وإذا جاء الرسول بوصف اليوم الآخر ، أو بذكر عالم من العوالم التى استأثر الله بعلمها — كعلم الملائكة مثلا لم يشق على نفسه تصديق ما جاء

به الخبر ، بعد ثبوت النبوة ؛ لهذا جعل الله سبحانه وتعالى هذا الوصف ، فى مقدمة أوصاف المتقين الذين يجدون فى القرآن هدى لهم » .

ثم قال :

« ولما كان الإيمان بالغيب يطلق عند الناس على ذلك الاستسلام التقليدى الذى لم يأخذ من النفس إلا ما أخذ اللفظ من اللسان ، وليس له أثر فى الأفعال ، لأنه لم يقع تحت نظر العقل : ولم يلحظه وجدان القلب : بل أغلقت عليه خزانة الوهم ، ومثل هذا الذى يسمونه إيماناً لا يفيد فى إعداد القلب للاهتداء بالقرآن » .

ولقد ورد لفظ (الغيب) كمصطلح قرآنى ، بالمعنى الذى سلف به القول ، مرة واحدة ، أى فى الآية الأولى من سورة البقرة ، ولكنه ورد بمعنى « المجهول » بصيغة المفرد وصيغة الجمع ، فى نحو بضعة وأربعين موضعاً ، من ذلك ما وصف به الله تعالى ذاته من أنه عالم الغيب والشهادة (عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون)[1] ، (ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم)[2] ، (عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال)[3] وجاء هذا الوصف بصيغ الجمع فى سورة المائدة : (قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) ، وفى سورة التوبة : (ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب) ، وفى سورة سبأ (قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب) .

وعن الماضى المجهول وردت فى أكثر من موضع عبارة « أنباء الغيب» ففى سورة آل عمران: (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) ، وفى سورة يوسف (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) وفى سورة هود : (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك) .

أما المجهول المضمر عند الله فقد ورد عنه فى سورة الأنعام :

---

(١) سورة المؤمنون .　　(٢) سورة السجدة .

(٣) سورة الرعد .

(لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب) ، وفى الأعراف : (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) وفى سبأ : (لو كانوا يعلمون الغيب مالبثوا فى العذاب المهين » .

ويستعمل القرآن لفظ الغيب ، بمعنى ما يجرى فى غيبة إنسان ما ، أو ما يجرى ولا يرى بالعين ، وإنما يعرف وجوده بالعقل ، ويحس بالوجدان ، فبالمعنى الأول ما جاء فى سورة يوسف : (ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) . وما جاء فى سورة النساء (حافظات للغيب) .

وبالمعنى الثانى ماجاء فى سورة الأنبياء : (الذين يخشون ربهم بالغيب) ، وفى سورة يس : (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب) .

فالغيب الذى يكون الإيمان به من خصائص المؤمن المسلم المتقى ، هو فى رأى بعض أصحاب الرسول هو « الله » سبحانه وتعالى ، وهو فى رأى فريق آخر من هؤلاء الرجال ، الذى قام الإسلام على قواعد من إيمانهم الخالص بالله ورسوله ، هو القرآن ، وعند فريق ثالث هو كل ما أخبر به الرسول ، عليه الصلاة والسلام ، مما لاتهتدى إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراط والميزان .

والمتفق عليه أن للمسلم أن يختار من هذه الآراء ما يطمئن إليه قلبه ، وتهدأ عنده نفسه ، إذ ليس هناك مذهب رسمى ، يحمل عليه المسلمون فيما تختلف فى تحصيله وإدراكه الأفهام ، وتتفرق فى استنباطه واستخراجه العقول ، ما دام يخلص إلى رأى له سند من الكتاب أو السنة ، أو منهما معًا ، بعد اجتهاد صادق ، وكان مؤهلا للاجتهاد بحكم علمه باللغة والقرآن والسنة ، وبحكم تجرده من الهوى والغرض .

فليس الغيب مرادفًا للغيبوبة ، عند المسلمين ، وليس هو رخصة ممنوحة بلا مقابل للدجالين والمشعوذين والراغبين فى الاستغراق فى الأحلام والأوهام ، ولا هو منحة للكسالى عقليًّا ونفسيا ، الذين يؤثرون أن يتلقوا

من الآباء والأجداد ، أو من القادة والرؤساء ، أو من الأساتذة والمربين ، إيمانًا معدًّا لهم ، يتجرعونه كالدواء دفعة واحدة ، ثم يريحون ، عقولهم من أن تفكر ، ونفوسهم من أن تتدبر وتتأمل ، وعزائمهم من أن تجاهد وتعانى ، فإذا صادفتهم صعوبة ، أو اعترض سبيلهم مجهول ، أو استعصت عليهم مشكلة اعتبروها جزءاً من الغيب الذى استأثر الله بعلمه ، والذى يجب على المؤمن أن يفوض فيه أمره إلى الله ، لا يبحث ولا يتساءل ، ولا يدرس ولا يناقش ، فيصبح فريسة سهلة ، للذين يتخذون من عقول الناس ونفوسهم أنعامًا ، ليقودوهم من خطامهم إلى حيث يريدون ، ليكسبوا من تكتلهم وراءهم جاهًا ، ومالا .

فالغيب عند المسلمين هو صنو العلم ومرادفه ، وباب المعرفة وسبيلها ، وليس حَجْراً على العقول ، ولا قيداً على الأفهام ، فالعالم ، هو أولى الناس بأن يقول لا أعرف ، ولا أعلم ، لأن العلم ، والاجتراء على المعرفة هو داء أقتل من الجهل ، وأسوأ من العجز .

وما هنا جاء فى القرآن آيتان ، تكمل إحداهما الأخرى : (وقل ربى زدنى علمًا) ، (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) .

ولقد درج تلامذة العلم المادى ودعاته ، على الهزء والسخرية من الدين والمتدينين ، لأن الدين ، يدعو الآخذين به ، والسائرين فى طريقه ، إلى الإيمان « بالغيب » ، ويحسبون أن عدم إيمانهم بالغيب ، وعدم تسليمهم بوجوده ، هو لأن العلم الذى أتيح لهم هو علم كامل ، وأنهم نجحوا فى تنقيته من شوائب الجهالة والخرافات والأوهام ، وأنهم تحصنوا ضد الدجل والأكاذيب والخزعبلات . والحق أنهم بذلك يسجلون على أنفسهم الجهل مرتين .

المرة الأولى ، لأنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء معرفة ما يقصده الدين ، والدين الإسلامى ، بصفة خاصة ، « بالغيب » ، وبأثر هذا الاعتقاد ، فى علماء المسلمين ، ونصيبه فى إنشاء الحضارة الباهرة التى لانزال ننعم

بها إلى اليوم ، باعتبار أن العرب هم الممهدون والرواد السابقون مباشرة على عصر النهضة الحديثة فى أوربا التى أفضت إلى عصر الثورة العلمية ، ثورة البخار فالحديد والصلب : فالكهرباء فالطاقة الذرية .

أما المرة الثانية ، فهى حينما يحسبون أن العلم نجح ، أو سينجح ، فى أن يحيط بكل قوى العالم ، وقوى الإنسان معاً ، وأنه يستغنى بهذا العلم عن الإحاطة بجوانب الكون غير المرئية ، وبمصير الإنسانية الكلى ، بعد كل ما تجمع للإنسان من أسباب السيطرة على المادة التى حوله .

والحق أننى أحب أن أدع الكلام هنا إلى عالم وطبيب ، وحاصل على جائزة «نوبل» سنة ١٩١٢ لأبحاثه الطبية ، ذلك هو ألكسيس كيريل فى كتابه « الإنسان ذلك المجهول » قال :

« إن العلم الذى حول العالم المادى يمد الإنسان بالقوة على تحويل نفسه ، فقد كشف له عن بعض ميكانيكيات الحياة السرية ، وأراه كيف يعدل حركته ، وكيف يصوغ جسمه وروحه فى قوالب ونماذج ولدتها رغباته ، فلأول مرة فى التاريخ أصبحت الإنسانية ، بمساعدة العلم سيدة مصيرها ، ولكن هل نصبح قادرين على استخدام هذه المعرفة بأنفسنا لمصلحتنا الحقيقية ؟ يجب أن يعيد الإنسان صياغة نفسه حتى يستطيع التقدم ثانية . .

« ومن حسن الحظ أن حادثاً لم يخطر على بال المهندسين والاقتصاديين والسياسيين قد حدث . ذلك أن صرح المالية الأمريكية قد انهار فجأة ، وفى بادى الأمر لم يصدق الجمهور وقوع الكارثة فعلا . . ولكن الإنسان أصغى إلى شروح الاقتصاديين فى استسلام مؤملا فى عودة الرخاء . إلا أن الرخاء لم يعد ، ولهذا بدأ أكثر رؤساء القطيع ذكاء ، يرتابون ويتساءلون : هل أسباب الأزمة اقتصادية ومالية فقط ؟ ألا يجب أن نتهم أيضاً فساد الساسة ورجال المال وغباءهم ، وجهل الاقتصاديين وأوهامهم ؟ ألم تهبط الحياة العصرية بمستوى ذكاء الشعب كله وأخلاقه ؟ لماذا يجب

أن ندفع ملايين الملايين من الدولارات كل عام لنطارد المجرمين ؟ لماذا يستمر رجال العصابات فى مهاجمة المصارف بنجاح ، وقتل رجال الشرطة ، واختطاف الناس وارتهانهم ، أو قتل الأطفال بالرغم من المبالغ الضخمة ، التى تنفق فى مقاومتهم ؟ لماذا يوجد هذا العدد الكبير من المجانين ، وضعاف العقول بين القوم المتحضرين ؟ ألا تتوقف الأزمة العالمية على الفرد والعوامل الاجتماعية الأكثر أهمية من العوامل الاقتصادية ؟ » .

و « كيريل » يتحدث هنا عن الأزمة الاقتصادية التى نشبت فى ١٩٣٠ واستمرت حتى منتصف العقد الرابع فى القرن العشرين ، لا عن أزمة النقد المستحكمة التى وقعت سنة ١٩٧٢ ثم عادت إلى الظهور ، على نطاق أوسع ، وبصورة أكثر تعقداً فى سنة ١٩٧٣ ، والتى لم تجد لها حلا إلى الآن . فما أشبه الليلة بالبارحة !

وقال « كيريل » : « يجب أن نحطم الحواجز التى أنشئت بين أجزاء المواد الصلبة وبين الجوانب المختلفة لأنفسنا ، فإن الغلطة المسئولة عما نعانيه إنما جاءت من فكرة لطيفة « بجاليليو » فقد فصل « جاليليو » كما هو معروف جيداً ، الصفات الأولية للأشياء ، وهى الأبعاد والوزن التى يمكن قياسها بسهولة عن صفاتها الثانوية وهى الشكل واللون والرائحة التى لا يمكن قياسها . . ففصل الكم عن النوع (الكيف) ؛ ولقد جلب (الكم) المعبر عنه باللغة الحسابية العلم فى حين أهمل الكيف . . لقد كان تجريد الأشياء عن صفاتها الأولية أمراً مشروعاً ، ولكن التغاضى عن الصفات الثانوية لم يكن كذلك . . فالأشياء غير القابلة للقياس فى الإنسان أكثر أهمية من تلك التى يمكن قياسها . . فوجود التفكير هام جداً مثل التعادل الطبيعى — الكيميائى لمصل الدم . . .

ثم قال : « لما اتخذت التركيبات العضوية ؛ والآليات الفسيولوجية حقيقة أكبر كثيراً من التفكير والسرور والحزن والجمال ؛ دفعت هذه الغلطة الحضارة إلى سلوك طريق أدى إلى فوز العلم وانحلال الإنسان .

« وإذا كان على الحضارة العلمية أن تتخلى عن الطريق الذى سارت فيه منذ عصر النهضة ، وتعود إلى ملاحظة المادة الجامدة ببساطة ، فسوف تقع أحداث عجيبة على الفور ؛ ستفقد المادة سيادتها ، ويصبح النشاط العقلى هامًّا كالنشاط الفسيولوجى ، وسيبدو ألا مفرّ من دراسة الوظائف الأدبية والجمالية والدينية ، كدراسات الرياضة والطبيعة والكيمياء .. وسوف تبدو وسائل التعليم الحالية سخيفة ، وتضطر المدارس والجامعات إلى تعديل برامجها ، وسيسأل علماء الصحة عن السبب الذى يحدوهم إلى الاهتمام فقط بمنع الأمراض العضوية دون الأمراض العقلية والاضطرابات العصبية ، كما سيسألون عما يجعلهم لا يبذلون اهتمامًا بالصحة الروحية .

« ولسوف يدرك الاقتصاديون أن بنى الإنسان يفكرون ويشعرون ويتألمون ، ومن ثم يجب أنه تقدم إليهم أشياء أخرى غير العمل والطعام والفراغ وأن لهم احتياجات روحية مثل الاحتياجات الفسيولوجية .

وختم كلامه بقوله : « ولما كان من الواضح أن تحرير الإنسان من مذهب المادية سوف يقلب أغلب جوانب حياتنا ، فإن المجتمع العصرى ، سوف يعارض بكل قوته هذا التقدم فى آرائنا » .

وخلاصة كلام « كيريل » الطبيب الباحث العلمى ، أن مصائب الإنسانية التى تتوالى على رأسها ، والتى تمزق شعوبها ، وتلقى بها فى أتون الحروب العالمية حينًا ، وسعير من الحروب الداخلية حينًا آخر ، وفى أزمات المال والاقتصاد مرة وأزمات السياسة والأحزاب مرة أخرى ، مردها أن الحضارة الحالية تقوم على دراسة الجانب المحسوس من الكون وإهمال ما لا يحس ، ولا يقاس ، ولايوزن . أى أن المعرفة الإنسانية بها خلل أدى إلى خلل الحياة الإنسانية ، وظهر هذا الخلل فيما تظهره الإحصائيات العلمية وإحصاءات أجهزة الأمن من أن الأمراض العقلية والعصبية والنفسية فى تزايد مستمر ، فى أرقى المجتمعات الأوربية والأمريكية .

وكلما زاد الرخاء المادى ، وبدا العلم متفوقًا ومحققًا المعجزات فى دولة زاد فيها عدد الجرائم ، وعدد المعتوهين والشواذ والمنحرفين ، والمصابين بأمراض النفس والعقل؛ مثل ذلك ما أورده « إريك جون دنج وول » الكاتب الأمريكى فى كتابه : « المرأة الأمريكية » من أن فى الولايات المتحدة نحو عشرين مليونًا ممن يعانون من الأمراض النفسية والعصبية؛ أى نحو عشر سكان الولايات المتحدة . وفى إحصائية حديثة نشرتها وزارة الشئون الاجتماعية عن نسبة الأمراض العصبية والنفسية فى السويد ثبت أن ٢٥ فى المائة من السويديين مصابون بأمراض عصبية ونفسية ، وأن ٣٠ فى المائة من مجموع النفقات الطبية فى السويد تنفق فى علاج الأمراض العصبية والنفسية ، وأن نسبة حالات الانتحار بين الشابات تزداد . وعقب المراقبون على هذه الإحصائية بقولهم إنها تدعو إلى الذهول ، لأن السويد تعتبر من أغنى أربع دول فى العالم .

ومن قبل أعلن رمزى كلارك النائب العام فى الولايات المتحدة إحصائية عن الجرائم فى الولايات المتحدة ، علقنا عليها من قبل ،وهى فى رأينا تدعو إلى ذهول أكبر ، إذ يظهر منها أنه لاتنقضى إلا بضع ثوان فى الولايات المتحدة لتقع جريمة قتل أو خطف أو اغتصاب إناث ، أو سطو مسلح ، أو حريق عمدى ، دع عنك جرائم التزييف وتهريب المخدرات والنصب والاحتيال وابتزاز المال بالتهديد أو العنف .

أليس كل ذلك قاطعًا فى أن مجتمع العلم المادى مجتمع فاسد ، ضار ينحدر إلى هاوية الجنون والانتحار ، والجريمة ؟!

فالعلم لايرفع عينه عن جانب واحد من حياة الإنسان ، ويتعالى عن جوانبها الأخرى ، ويتجاهلها ، ويرمى بالنقص والعته من يلتفت إليها ، أو يقف أمامها . ولكن الدين لا يفعل فعله ، خذ مثلا موقف الدين من الروح التى هى إحدى عناصر الغيب . إن المتدين لا يزعم أنه قادر على أن يجوس خلال مجاهلها ، ولا أن يعرف شيئًا من عناصرها ،أو

يزعم أن لها عناصر . ولكنه لاينكر وجودها ، لأن علماء الفسيولوجيا والبيولوجيا لا يقولون إن الإنسان هو مجموع ظواهره الحيوية فحسب ، ويقررون أن إلى جانب الحياة شيئاً آخر يجعل من الإنسان إنساناً ، يضحى بحياته . من أجل مثل أعلى ، كما يضحيها من أجل أولاده وعائلته . وأحياناً من أجل لقمة العيش. فإلى جانب أجهزة الإنسان الهضمية والتنفسية والتناسلية والعصبية يوجد نشاط لا تفسير له إلا أن الإنسان ليس جسداً فحسب ، وإنما هو جسد وروح . ولكن ماذا تكون الروح ؟ لا أحد يعرف ، ولا أحد يقوى على الإنكار إلا على سبيل المكابرة . الدين يقول إن الروح من أمر ربى ، فهو يؤكد وجودها . أما العلم فيسقطها من حسابه ، ويتجاهل وجودها ، وبوده أن يثبت أنها وهم . ومن هنا يحدث هذا الخلل المروع فى هذا البناء الرائع ، بناء الحضارة الحديثة القائمة على الرياضيات و (الميكانيكيات) والمؤدى إلى إطلاق الطاقة الهائلة المنبعثة من تفتيت المادة والكشف الهائل لعالم الإلكترونات والليترونات .

فالإنسان بعد كل هذا النجاح الذى حققه فى تسخير المادة ، وإطلاق الطاقة ، لا يزال كالعهد به فى عهد الغابة ، لا ينفك عن القتل والتدمير : يقتل أقرب الناس إليه ، وأحبهم لديه : أهل وطنه ، وأهل دينه ، وليس ثمة شهادة بالإخفاق ، أكبر من هذه الشهادة ، ولا أوضح منها . إنها شهادة دامغة ، لا ترد .

وإذا كان أمثال « كيريل » بعد أن شبعوا من البحث العلمى ، وحققوا بفضله ما حققوا من المكانة ، ينادون بأن الإنسان لابد أن يعيد صياغة نفسه ، وأن الخطأ الذى بدأ به الإنسان ، هو إعلاؤه من شأن الكم عن النوع أو الكيف ، والاحتفال بالوزن والبعد ، دون الاحتفال بالشكل والرائحة ، أى بما يقاس ويوزن ويكال ، دون الاحتفال بما يحس ويتذوق .

يجب أن يفهم علماء علم الطبيعة والكيمياء ، وعلم الحياة وعلم وظائف الأعضاء وأن يسلموا بأن الحياة الإنسانية لاتفسير لها إلا بأن هناك غيبًا ، وأن الإقرار بهذا الغيب هو واجب علمى ، لا مجرد مهادنة للدين ، ولا خضوع لموروثهم الوجدانى ، الذى آل إليهم عن الآباء والأجداد ، وعليهم أن يدركوا أن الدين فى معناه السامى ، حينما يؤكد الغيب ، إنما يستكمل دراسة هذا الكون دراسة علمية ، لا أن يفتح بابًا للأوهام ، ولا لدجل الدجاجلة ، وشعوذة المشعوذين .

وإن الدين فى ذاته لا يزال أكبر ما قام به الإنسان من نشاط علمى ، وإنه لايزال رائد العلم ، وهاديه وحاميه . وإذا كان دين الإنسان البدائى خليطًا من الحقائق والأوهام ، فذلك لأن العلم فى أعلى مراتبه هو خليط من الحقائق والأغلاط ، وأن العلم نفسه يكشف كل يوم أن ما اعتبره الحقيقة الكاملة ، فى يوم من الأيام ، كان بعض الحقيقة : نصفها أو ربعها أو أقل من ذلك ، بل إنه يعثر كل يوم على الدليل على خطئه الكامل ، فى أمور بعضها ثانوى جزئى ، وبعضها أساسى وجوهرى .

وإذا كان الإسلام قد قرر فى كتابه الكريم : (إن الله لايغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) ، فقد كان هذا المبدأ هو حجر الزاوية فى إطلاق عقل الإنسان من ربقة أكبر الأوهام ، وأكثرها فتكًا به ، وإهداراً لقوته . فالشرك لم يكن إنكاراً لوحدانية الله ، ولا عجزاً عن الاهتداء إلى القوة الخالقة للأكوان والمسيرة لها ، والمدبرة لها ، وإنما كان عجزاً عن إعمال الفكر ، وقعوداً عن استنباط الحقيقة ، وخضوعًا لأعداء العقل الإنسانى وكرامة بنى الإنسان ، المستغلين سلطة الوهم عليه ، المثيرين فى نفسه الخوف من كل ما يحيط به من ظواهر الطبيعة وقواها . ولم يكد الإسلام يفرغ من تحرير عقل الإنسان من هذا القيد الرهيب ، حتى أخذ يستحثه بكل وسيلة ، ويدفعه بكل أسلوب ، لأن يتفكر ويتدبر ، ويتعقل ، وينظر فى نفسه ، وفى

الآفاق ، وفى النجوم ، وفى الكواكب ، وفى دلالات توالى الليل والنهار فى انتظام . وإقبال الفصول وإدبارها فى استقرار . وعجائب الخلق ، واتساع الكون ، وجمال الحياة ، ولذائذها . وأسباب انبعاث الشرور فيها ، وطرائق التضييق على معكرى صفوها ، ومقوضى نظامها . وبالجملة فتح الإسلام ، أمام العقل الإنسانى ، أبواب العلم بمختلف دروبه وفروعه ، وثبت أقدامه على طريق المعرفة وأكد له بأنها السبيل إلى العزة ، وإلى المنعة ، ثم إلى الجنة .

وإذا كانت محاربة الشرك ركن الزاوية فى بناء العلم ، فقد ضمن الإسلام للعقل الإنسانى الحماية والحصانة ، حينما أكد بشرية الرسل ، الذين هم حملة العلم إلى الناس ، وأكد إلى جانب ذلك أنهم لا يعلمون الغيب ، وأنهم فى هذا كسائر بنى آدم ، ففى سورة الأنعام : (قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب) ، وفى السورة نفسها (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو) ، وفى الأعراف : (ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير) ، وفى يونس (إنما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين) . وإذا كان الرسل لا يعلمون الغيب ، وإذا كان علم الغيب عند الله وحده ، فقد أقفل باب الاتجار بهذا الغيب ، فى وجه كل من ينسب نفسه إلى الأنبياء من أتباع وخلفاء وأوصياء ، ومفسرى علمهم ، وشارحى دينهم . ولو بقى هذا الباب مفتوحاً ، او لجه آلاف من المضللين . ليطلعوا على الناس بدعاوى لا أول لها ولا آخر .

وامتلأ القرآن بعد ذلك بمثات من قواعد العلم القائم على التجربة والتمحيص ، والمقابلة والاستقراء ، من ذلك ما جاء فى سورة النجم : (وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لايغنى من الحق شيئاً) ، وما جاء فى سورة الفرقان ، بياناً لصفات المؤمنين من أنهم من (الذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعميانا) ، أى أنهم يتدبرون الآيات ولايصدقون بها إلا بعد تفكر وتأمل ، وفى سورة

الحجرات : (يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) .

ويرفع القرآن قدر الدليل والحجة ويسميها « سلطانـًا »، ويسأل الرسول عليه الصلاة والسلام المشركين عن الدليل دائمـًا ، ويطالبهم به ويقول القرآن : (أم لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين) . وتمتلىء آيات القرآن بلفظ (البينة) ، و (البينات) وهى الأدلة والبراهين ، ويؤكد أن الرسل حين أرسلوا جاءوا بالبينات ، لا بمحض دعوة (وجاءتهم رسلهم بالبينات)[1]؛ (جاءتهم رسلهم بالبينات ، فردوا أيديهم فى أفواههم)[2] .

ولا عجب بعد ذلك أن يقرر القرآن الكريم : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » لأن معرفة الله ، هى أصل المعرفة ، والمعرفة لا تتأتى إلا لمن يسعى إليها ، فإن دانت له كان من العلماء .

فإذا سولت لأحد نفسه — بعد ذلك — أن يعتبر الغيب عند المسلمين استسلامـًا للوهم ، أو ركونـًا للجهل ، أو أخذاً عن السلف دون فهم ، أو كرهـًا للعلم ، أو زهداً فى البحث ، أو عجزاً عن النظر ، أو تضييقـًا فى حرية الفرد ، أو إرهابا لصاحب رأى . فإنه لايعرف الإسلام ولم يقرأ القرآن ، ولم يستفت التاريخ ليفتيه كم للإسلام والمسلمين من أياد على العلم ، لو لاها لما حقق العلم ما حقق ، وإذا كان العلم قد ضل عن غايته ، والتوى عن قبلته ، فلأن المسلمين تقاعسوا اليوم عن أداء رسالتهم ، فأصبح علم الناس ، علمـًا بلا روح ، أو غلبته المادة ، واستاثرت به ، فأصبح شأنه شأن كل سجين ، لايرى من الدنيا ، إلا ما تسمح به طاقة السجن ، مع إحساسه بمرارة القيد ، وقسوة الأسر ، ومن يدرى فقد يستأنفون جهادهم ، ليعيدوا للعلم حريته ، وبالتالى للإنسان كرامته .

---

(١) سورة يونس .　　(٢) سورة إبراهيم .

الملائكة

جاء فى تفسير القرطبى ، شرحاً للآيتين الثالثة والعشرين والرابعة والعشرين بعد المائة من سورة آل عمران : (إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين ، بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) .

قال بعضهم إن الملائكة كانوا يقاتلون مع المسلمين ، وكانت علامة ضربهم فى الكفار ظاهرة لأن كل موضع أصابته ضربتهم اشتعلت فيه النار ، حتى إن أباجهل قال لابن مسعود : أنت قتلتنى ؟! إنما قتلنى الذى لم يصل سنانى (أى حد سيفى) إلى سنبك فرسه (أى إلى حافر فرسه) ، وإن اجتهدت . وإنما كانت الفائدة فى كثرة الملائكة لتسكين قلوب المؤمنين ، ولأن الله تعالى جعل أولئك الملائكة مجاهدين إلى يوم القيامة ، فكل عسكر صبر واحتسب ، تأتيهم الملائكة ويقاتلون معهم . وقال ابن عباس ومجاهد : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر ، وفيما سوى ذلك يشهدون ولا يقاتلون ، إنما يكونون عدداً أو مدداً . فقال بعضهم : إنما كانت الفائدة فى كثرة الملائكة ، أنهم كانوا يدعون ويسبحون ، ويكثرون الذين يقاتلون يومئذ ، فعلى هذا لم تقاتل الملائكة يوم بدر ، وإنما حضروا للدعاء بالتثبيت ، والأول أكثر » .

قال قتادة : كان هذا يوم بدر ، أمدهم الله بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف فذلك قوله تعالى : (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) ، وقوله : (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) ، وقوله :

(بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا ، يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) .

فصبر المؤمنون يوم بدر واتقوا الله فأمدهم بخمسة آلاف من الملائكة على ما وعدهم ، فهذا كله يوم بدر . .

قال الشعبي : بلغ النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين فأنزل الله تعالى : (ألن يكفيكم — إلى قوله مسومين) . فبلغ كرزاً الهزيمة ، فلم يمدهم ورجع ، فلم يمدهم الله أيضاً بالخمسة آلاف وكانوا قد مدوا بألف ، وقيل إنما وعد الله المؤمنين يوم بدر إن صبروا على طاعته واتقوا محارمه أن يمدهم أيضاً فى حروبهم كلها ، فلم يصبروا ولم يتقوا إلا فى يوم الأحزاب ، فأمدهم حين حاصروا قريظة ، وقيل إنما كان هذا يوم أحد ، وعدهم الله المدد إن صبروا ، فما صبروا فلم يمدهم بملك واحد ولو أمدوا ، لما هزموا .

ثم قال : ا

نزول الملائكة سبب من أسباب النصر ، لا يحتاج إليه الرب تعالى ، وإنما يحتاج إليه المخلوق فليعلق القلب بالله ، وليثق به ، فهو الناصر بسبب ، وبغير سبب : (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) ، لكن أخبر بذلك ليمتثل الخلق ما أمرهم به من الأسباب التى قدقلت من قبل (ولن تجد لسنة الله تبديلا) . ولا يقدح ذلك فى التوكل ، وهذا رد على من قال : إن الأسباب إنما سنت فى حق الضعفاء ، لا للأقوياء فإن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا الأقوياء وغيرهم هم الضعفاء وهذا واضح » .

وجاء فى تفسير المنار :

« وأنكر أبو بكر الأصم قتال الملائكة وقال : إن الملك يكفى فى إهلاك أهل الأرض كما فعل جبريل بمدائن قوم لوط ، فإذا أحضر هو يوم

بدر فأى حاجة إلى مقاتلة الناس الكفار ؟ وبتقدير حضوره ، أى فائدة من إرسال سائر الملائكة ، وأيضاً فإن أكابر الكفار كانوا مشهورين ، وقاتل كل منهم من الصحابة معلوم .

« وأيضاً لو قاتلوا فإما أن يكونوا بحيث يراهم الناس أو لا ؟ وعلى الأول يكون المشاهد من عسكر الرسول ثلاثة آلاف وأكثر ولم يقل أحد بذلك ، ولأنه خلاف قوله : (ويقللكم فى أعينهم) ، ولو كانوا فى غير صورة الناس لزم وقوع الرعب الشديد فى قلوب الخلق ولم ينقل ذلك ألبتة » .

« وعلى الثانى ، كان يلزم جز الرؤوس وتمزق البطون وإسقاط الكفار، من مشاهدة فاعل ، ومثل هذا يكون من أعظم المعجزات ، فكان يجب أن يتواتر ويشتهر من المسلم والكافر ، والموفق والمخالف .. وأيضاً أنهم لو كانوا أجساماً كثيفة وجب أن يراهم الكل ، وإن كانوا أجساماً لطيفة فكيف ثبتوا على الخيول .

وجاء فى تفسير المنار : نقلا عن الشيخ محمد عبده :

الملائكة خلق غيبى لانعرف حقيقته ، وإنما نؤمن به بإخبار الله تعالى الذى نقف عنده ولا نزيد عليه . ثم قال : إن إلهام الخير والوسوسة بالشر ، مما جاء فى لسان صاحب الوحى صلى الله عليه وسلم كل منهما محله الروح ، فالملائكة والشياطين إذن تتصل بأرواح الناس ، فلايصح أن تمثل الملائكة بالتماثيل الجثمانية المعروفة لنا ، لأن هذه لو اتصلت بأرواحنا ، فإنما تتصل بها عن طريق أجسامنا ، ونحن لانحس بشىء يتصل بأبداننا لا عند الوسوسة ولا عند الشعور بداعى الخير من النفس ، فإذن هى من عالم غير عالم الأبدان قطعاً . والواجب على المسلم فى مثل هذه الآية : الإيمان بمضمونها مع التفويض أو الحمل على أنها حكاية تمثيل ثم الاعتبار بها بالنظر فى الحكم التى سيقت لها القصة .

ويقول الشيخ رشيد رضا : إن إسناد الوسوسة إلى الشياطين معروف فى الكتاب والسنة ، وأما إسناد إلهام الحق والخير إلى الملائكة فيؤخذ

من خطاب الملائكة لمريم عليها السلام . ومن حديث الشيخين فى المحدثين وكون عمر منهم — والمحدثون بفتح الدال وتشديدها : الملهمون . ومن حديث الترمذى والنسائى وابن حبان وهو « إن للشيطان لمسة بابن آدم وللملك لمسة ، فأما لمسة الشيطان فإيعاز بالشر ، وتكذيب بالحق . وأما لمسة الملك فإيعاز بالخير وتصديق بالحق .

ثم قال الشيخ **محمد عبده** : وذهب بعض المفسرين مذهباً آخر فى فهم معنى الملائكة : وهو أن مجموع ما ورد فى الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إنماء نبات . وخلق حيوان ، وحفظ إنسان ، وغير ذلك ، فيه إيماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة ، وهو أن هذا النمو فى النبات لم يكن إلا بروح خاص نفخه الله فى البذرة ، فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة ، وكذلك يقال فى الحيوان والإنسان ، فكل أمر كلى قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية فى إيجاده ، فإنما قوامه بروح إلهى سمى فى لسان هذه المعانى القوى الطبيعية إذا كان لا يعرف من عالم الإمكان إلا ما هو طبيعة أو قوى يظهر أثرها فى الطبيعة ، والأمر الثابت الذى لا نزاع فيه هو أن فى باطن الخلقة أمراً هو مناطها ، وبه قوامها ونظامها ، لا يمكن لعاقل أن ينكره ، وإن أنكر غير المؤمن بالوحى تسميته ملكاً ، وزعم أنه لادليل على وجود الملائكة ، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحى تسميته قوى طبيعة أو ناموساً طبيعياً لأن هذه الأسماء لم ترد فى الشرع ، فالحقيقة واحدة ، والعاقل من لا تحجبه الأسماء عن المسميات ، وإن كان المؤمن بالغيب يرى للأرواح وجوداً لا يدرك كنهه ، والذى لا يؤمن بالغيب ، يقول لا أعرف الروح ، ولكن أعرف قوى لا أفهم حقيقتها . ولا يعلم إلا الله علامَ يختلف الناس ؟

« وكل يقر بشىء غير ما يرى ويحس ، ويعترف بأنه لا يفهمه حق الفهم ، ولا يصل بعقله إلى إدراك كنهه . وماذا على هذا الذى يزعم أنه لا يؤمن بالغيب ، وقد اعترف بما غيب عنه ، لو قال : أصدق

بغيب أعرف أثره ، وإن كنت لا أقدره قدره ، فيتفق مع المؤمنين بالغيب ، ويفهم بذلك ما يرد على لسان صاحب الوحي ، ويحظى بما يحظى به المؤمنون .

« يشعر كل من فكر فى نفسه ووازن بين خواطره عندما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو الشر ، بأن فى نفسه تنازعًا كأن الأمر قد عرض على مجلس شورى ، فهذا يورد وذلك يدفع، واحد يقول افعل ، وآخر يقول لا تفعل ، حتى ينتصر أحد الطرفين ، ويترجح أحد الخاطرين ، فهذا الشيء الذى أودع فى أنفسنا ، ونسميه قوة وفكراً ، وهى فى الحقيقة معنى لايدرك كنهه ، وروح لاتكنه حقيقتها، لايبعد أن يسميه الله تعالى ملكًا ، (أو يسمى أسبابه ملائكة) أو ماشاء من الأسماء ، فإن التسمية لاحجر فيها على الناس ، فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة والسلطان النافذ والعلم الواسع » .

ثم قال الشيخ رشيد رضا تعقيباً على رأى شيخه هذا :

إن الإمام الغزالى سبق إلى بيان هذا المعنى وعبر عنه بالسبب وقال : إنه سمى ملكًا فإنه بعدماقسم الخواطر إلى محمود ومذموم قال : « ثم إنك تعلم أن هذه الخواطر حادثة ، ثم إن كل حادث لابد له من محدث ، ومهما اختلفت الحوادث دل ذلك على اختلاف الأسباب ، هذا ما عرف من سنة الله تعالى فى ترتيب المسببات على الأسباب ، فمهما استنارت حيطان البيت بنور النار ، وأظلم سقفه بالدخان علمت أن سبب السواد غير سبب الاستنارة ، وكذلك لأنوار القلب وظلمته سببان مختلفان ، فسبب الخاطر الداعى إلى الخير يسمى ملكًا ، وسبب الخاطر الداعى إلى الشر يسمى شيطانًا ، واللطف الذى يتهيأ به القلب لقبول مهام الخير يسمى توفيقًا ، والذى يتهيأ به لقبول الشر يسمى إغواء وخذلانًا ، إن من المعانى المختلفة ما يحتاج إلى أسام مختلفة » .

وقد أورد ابن جرير الطبرى فى تفسيره عن عبد الله بن عباس أنه

قال : لم تقاتل الملائكة فى يوم من الأيام سوى يوم بدر ، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عدداً ومدداً لا يضربون » .

وعن مجاهد أنه قال : لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر .

وقال آخرون إن الله عز وجل ، إنما وعدهم يوم بدر أن يمدهم إن صبروا عند طاعته وجهاد أعدائه ، واتقوه باجتناب محارمه ، أن يمدهم فى حروبهم كلها ، فلم يصبروا ولم يتقوا إلا فى يوم الأحزاب ، فأمدهم حين حاصروا قريظة .

وقال آخرون بنحو هذا المعنى ، غير أنهم قالوا : لم يصبر القوم ولم يتقوا ولم يمدوا بشىء فى أحد .

عن عمرو بن دينار عن عكرمة سمعه يقول :(بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا) ، قال : يوم بدر . قال فلم يصبروا ولم يتقوا فلم يمدوا يوم أحد ولو مدوا لم يهزموا يومئذ .

وعن الضحاك قوله: ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف من الملائكة مسومين ؟ كان هذا وعداً من الله يوم أحد عرضه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : إن المؤمنين إن اتقوا وصبروا أمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، ففر المسلمون يوم أحد ، وولوا مدبرين ، فلم يمدهم الله .

ثم قال ابن جرير : وأما الذين قالوا كان ذلك يوم بدر ، بسبب (كرز بن جابر) فإن بعضهم قالوا لم يأت كرز وأصحابه إخوانهم من المشركين مدداً لهم ببدر ، ولم يمد الله المؤمنين بملائكته ، لأن الله عز وجل إنما وعدهم أن يمدهم بملائكته إن أتاهم كرز وأمد المشركين من فورهم ، ولم يأتهم المدد .

وقد مر بنا رأى الشيخ محمد عبده ، ورأى تلميذه الشيخ رشيد رضا فى حقيقة الملائكة وطبيعة دورهم ، ونضيف إليه ما جاء فى تفسير مجمع البحوث الإسلامية المسمى بالتفسير الوسيط ، من أن الملائكة

جمع ملك ، وهم ذوات نورانية ، خلقوا لطاعة الله فيما يأمرهم به ، ولهم قدرة التشكل بالأشكال الحسنة المختلفة ، ولهذا كان الرسل يرونهم ، وهذا مذهب أكثر المتكلمين . وقال الحكماء . هم جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة بالحقيقة .

ويتفق القرطبي والطبرى فى أن أصل لفظ (ملاك) مألك : مشتق من فعل (لاك) أى أرسل ، وأرسلت إليه مألكة ، وألوكا ، أى رسالة . فحيث الملائكة ملائكة بالرسالة ، لأنها رسل الله بينه وبين أنبيائه ، ومن أرسلت إليه من عباده .

وجاء فى القرطبي أيضاً فى شرح الآية الأولى من سورة فاطر : (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع) أى جعل الله الملائكة رسلا ، قال يحيي بن سلام : إلى الأنبياء : وقال السدى : إلى العباد برحمته ونقمته .

بقى أن نتأمل فى جميع ما سلف من النصوص ، وفى آيات القرآن الكريم ، التى ورد فيها ذكر للملائكة ومن كل هذا يبين لنا :

أولا : أن القرآن الكريم خلا خلواً تاماً من وصف الملائكة من حيث الهيئة والطبيعة والعدد إلا فيما جاء فى الآية الأولى من سورة فاطر ونصها الذى مر بنا : (الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع ، يزيد فى الخلق ما يشاء) والمفسرون متفقون تقريباً ، على أن أجنحة الملائكة ليست من قبيل ما نعرفه من أجنحة الطيور ، فلا هى من الريش ، ولا هى بالبداهة من اللحم والعظم .

ثانياً : ليس فى القرآن الكريم نص يعنى مباشرة ، أو يوحى بأن للملائكة دخلا أو صلة بحياة البشر ، وبما يضطربون فيه من أمور معاشهم ، أو تنافسهم على الرزق ، أو تحصيلهم للعلم ، أوسعيهم للخير ، أو انحرافهم إلى الشر .

فالملائكة أرسلوا فى الماضى إلى الأنبياء ، كما أرسل جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم . وكما أرسلت الملائكة إلى مريم لتقول لها إن الله اصطفاها . وإن الله يبشرها بكلمة منه . وكما نادت الملائكة زكريا وهو قائم يصلى فى المحراب ، وكما أرسلت الملائكة إلى إبراهيم ولوط .

فالملائكة لا يرسلون إلى أفراد الناس ، ولم يرسلوا قط فى الماضى على ما أثبته القرآن الكريم .

ثالثـًا : بل الثابت فى القرآن أن الناس ، فى عهود الرسالات . والنبوات طلبوا أن يرسل إليهم ملائكة بدلا من الأنبياء والرسل الذين اصطفاهم الله من أبناء آدم ممن يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق ، وكانت حجة الكافرين أن إرسال الملائكة بالرسالة ، وتكليفهم أعباء النبوة أقطع فى صحة هذه الرسالة وآكد لصدق الرسول . فأبى الله إلا أن يكون رسله من الناس ، يخاطبون المرسل إليهم بلغتهم ، ويحاجونهم بحجج العقل ، لا بالقهر الذى لا يكون للمؤمنين المصدقين فضل فيه ، كما لا يكون للمكذب بين المعارضين باب للتوبة ، أو سبيل للمغفرة : ففى سورة الأنعام مثلا : (ولو أنزلنا ملكـًا لقضى الأمر ثم لا ينظرون) ، ثم فى سورة الإسراء تبرير لعدم إجابة المعاندين إلى ما يطلبونه من أن يكون الرسل ملائكة (لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكـًا رسولا) فالرسول يكون من طبيعة المرسل إليهم ، ولذلك جاء فى سورة الأنعام (ولو جعلناه ملكـًا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون) .

ولذلك أغلق فى باب الدجاجلة والمشعوذين باب الادعاء بأنهم رأوا ملائكة يمشون فى الأرض مطمئنين ، أو أن الملائكة تحدثت إليهم ، أو أشارت عليهم ، أو اتصلت بهم .

رابعـًا : والمسلمون — وإن كانوا مأمورين أن يؤمنوا بوجود الملائكة — لم يطلب منهم أكثر من هذا التصديق ، فليسوا مأمورين بأن يتوجهوا

إليهم بصلاة أو عبادة ، أو أن يلتمسوا منهم من دون الله عوناً أو إرشاداً أو رعاية — فهم من مخلوقات الله . وعباده . والآيات على ذلك كثيرة ففى سورة النجم : (وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئاً) ، وفى سورة آل عمران : (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا) ، وفى النساء : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون) .

خامساً : بل إن قصة خلق آدم قاطعة الدلالة بأن الله فضل آدم على الملائكة ، إذ أمرهم بأن يسجدوا له ، وإذ خصه دونهم بجعله «خليفة» وإذ ميزه عنهم جميعاً بأنه علمه وحده الأسماء كلها ، ثم عرضها على الملائكة فعجزوا أن يجاروه فى علمه ، وأن يبلغوا مبلغه فى الاستعداد للمعرفة على ما به من ضعف وعلى ترديه فى الخطيئة ، وحبه لسفك الدماء .

سادساً : أن القرآن لم يرو غير واقعة واحدة فى حياة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعد الله فيها الرسول والمسلمين الذين حاربوا معه الكفار أن يعينهم بمدد من الملائكة . وقد اختلف المفسرون فى فهم ما جاء فى القرآن الكريم فى هذا الصدد ، فمنهم من ذهب إلى القول إن الملائكة لم يحاربوا فى بدر ولا غيرها ، ومنهم من قال إنهم نزلوا فى بدر ، وإنما كان نزولهم للتثبيت والدعاء والتكثير ، ومنهم من قال إنهم لم يحاربوا إلا فى بدر ، وآخرون قالوا بل فى موقعة الأحزاب .

ولكن الجميع متفقون على أن الوعد بنزول الملائكة ، هو بشرى بالنصر لاسببه ، فالنصر فى جميع المعارك ، له أسبابه التى بينها القرآن ولقنها الرسول للمسلمين ، والتى لخصتها الآية : (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ، فالنصر من عند الله ، ولكن الله لايمنحه إلا لمن يستحقه ، ولايستحقه إلا من تهيأ له ، من طاعة لأحكام الدين التى هى سنن الكون السليمة ، وقواعد الحياة الصحيحة

وأساليب الجهاد الرفيعة . ومنها قوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) . ومنها قوله عز وعلا : (إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص) : ومنها أمره الكريم : (انفروا خفافاً وثقالاوجاهدوا بأموالكم وأنفسكم) ، ومنها وعده الصادق : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) ، ومنها تحذيره : (إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم ، قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً) .

وجملة القول أن فى الدعوة إلى الإيمان بالملائكة ليس فيه ما يحرج صدر أبناء العصر ولا عقولهم ، فهم يسمعون أن الإسلام دين قائم على العقل ، وأنه ليس فيه شيء غامض ، فهوواضح كل الوضوح بين إلى أقصى الغاية . وأنه لا مجال فيه للمتجرين بالأوهام والمروجين لها . ولا تعارض بين أحكامه وآيات كتابه ، وبين ما يؤدى إليه العلم ، وما يأمر به العقل ، وأن عناصر الغيب الذى يدعو إليه ، لايرفع عن عاتق الإنسان مسئولية تكييف حياته ، وتقرير مصيره ، والسعى الدائب للكشف عن حقائق هذا الكون وتسخيرها ، والانتفاع بها ومسابقة الأقوياء فى حلبات الفكر والبحث ، وفى التسلح بماديات الحياة ، بعد التحصين بمعنوياتها التى هى الأصل الأصيل لكل قوة ، والباعث الأول على تحقيق كل عزة ومنعة .

الجن

ورد لفظ « الجن » فى القرآن الكريم ، اثنتين وعشرين مرة ، وجاء هذا اللفظ وحده غير مقترن بسواه ، فى ثمانية مواضع . أما سائر المواضع ، فقد ورد فيها مقرونا بلفظ الإنس .

قال تعالى :

(ا) (وكذلك جعلنا لكل نبىّ عدوًّا شياطين الإنس والجن) .

(ب) (يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس) .

(حـ) (يا معشر الجن والإنس) [١] .

وقال :

(ا) (ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس) .

(ب) (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس) [٢] .

إلى آخر ما جاء فى الإسراء ، وفى النحل ، وفى فصلت وفى الأحقاف ، وفى الذاريات وفى الرحمن ، وفى سورة الجن .

وهذه كلها أربعة عشر موضعاً ، كما ذكرنا ، وفى تسعة من هذه المواضع يتقدم لفظ الجن على الإنس . وفى اثنى عشر موضعاً منها لا يفصل بين اللفظين لفظ ثالث .

وقد جاء فى معجم ألفاظ القرآن الكريم (وضع مجمع اللغة العربية عن لفظ الجن) :

« أصل (الجن) ستر الشىء عن الحاسة . يقال جنّ الشىء يجنه جنًّا مثل (ستره) وزناً ومعنى .

---

(١) سورة الأنعام : ١١٢ ، ١٢٨ ، ١٣٠ .

(٢) سورة الأعراف : ٣٨ ، ١٧٩ .

« وكل شيء ستر عنك فقد جن عنك . وجن عليه وأجنه : ستره » .

وجاء فى تفسير جزء عم للشيخ محمد عبده :

« فالموسوسون قسمان : قسم الجنة ، وهم الخلق المستترون الذين لا نعرفهم ، وإنما نجد فى أنفسنا أثراً ينسب إليهم ، ولكل واحد من الناس شيطان وهو قوة نازعة إلى الشر يحدث منها فى نفسه خواطر السوء وإنما جعل الوسوسة فى الصدر على ما عهد فى كلام العرب . من أن الخواطر فى القلب . والقلب مما حواه الصدر عندهم ، وكثيراً ما يقال : إن الشك يحوك فى صدره ، وما الشك إلا فى نفسه وعقله .

« وأفاعيل العقل فى المخ ، وإن كان يظهر لها أثر فى حركات الدم ، وضربات القلب ، وضيق الصدر أو انبساطه ، وكل ما أوردوه فى خرطوم الشيطان وخطمه ومنقاره ، وجثومه على الصدر ، أو القلب ، أو نحو ذلك ، فهو من التمثيل والتصوير ، وإلا فليجعلوا مثل ذلك للقسم الثانى من الوسواس أو الموسوسين ، وهو الناس . فإن الله نسب إليهم الوسوسة على السواء» فقال : (من الجنة والناس) .

« فليكن للناس الذين يوسوسون فى صدور الناس خرطوم وخطم ومنقار يدخل فى الصدور ويوضع على أذن القلب فإذا ذكر الله خنس الخرطوم ، كما ذكروا فى الجنة ، ولكنهم يكثرون الوصف ويخترعون ما يشاءون بأوهامهم مما لايراه الناس ، وإن كانوا لا يعقلونه ، ويجترئون على الغيب فيذكرون من شئونه ما استأثر الله بعلمه ، ثم لايكفيهم ذلك حتى يخترعوا من الأحاديث ما يسند أوهامهم ، وينسبون إلى السلف أنه يقوى مزاعمهم والله يشهد أن النبى صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح براء مما ينسب إليهم من ذلك كله ، وإنما هو اختراع من لم يرض لنفسه أن يقترف جريمة واحدة . جريمة الجرأة على الغيب بوهمه حتى يضم إلى ذلك جريمة الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ولعل الشيخ محمد عبده قد عنى بقوله هذا بعض ما أورده عدد من كبار المفسرين ، منه ما جاء مثلا فى تفسير القرطبى :

« واختلف هل رآهم (الجن) النبى صلى الله عليه وسلم أو لا ؟ فظاهر القرآن يدل على أنه لم يرهم ، لقوله تعالى (استمع) ، وقوله تعالى : (وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن) . وفى صحيح مسلم والترمذى عن ابن عباس قال : ما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الجن وما رآهم . انطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ ، وقد حيل بين الشياطين ، وبين خبر السماء ، وأرسلت عليهم الشهب ، فرجعت الشياطين إلى قومهم ، فقالوا : ما لكم ؟ قالوا : حيل بيننا وبين خبر السماء ، وأرسلت علينا الشهب ، قالوا : ما ذاك إلا من شىء حدث ، فأضربوا فى مشارق الأرض ومغاربها ، وانظروا ما هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء ؟ فانطلقوا يضربون فى مشارق الأرض ومغاربها ، فمر النفر الذى أخذوا نحو تهامة ، وهو بنخلة (أى رسول الله) عامدين إلى سوق عكاظ ، وهو يصلى بأصحابه صلاة الفجر ، فلما سمعوا القرآن استمعوا له ، وقالوا هذا الذى حال بيننا وبين خبر السماء ، فرجعوا إلى قومهم ، وقالوا : يا قومنا : (إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد فآمنا به وان نشرك بربنا أحداً) فأنزل الله عز وجل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : (قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن) .

وروى الترمذى عن ابن عباس ، قال : قول الجن لقومهم : (لما قام عبد الله يدعوه ، كادوا يكونون عليه لبداً) ، قال لما رأوه يصلى وأصحابه يصلون بصلاته ويسجدون بسجوده . قال هذا حديث حسن صحيح ، ففى هذا الحديث دليل على أنه عليه السلام لم ير الجن ولكنهم حضروا وسمعوا قراءته ، وفيه دليل على أن الجن كانوا مع الشياطين حين تحسسوا خبر السماء بسبب الشياطين لما رموا بالشهب وكان

المرميون بالشهب من الجن أيضاً . وقيل لهم شياطين . كما قال (شياطين الإنس والجن) فإن الشيطان كل متمرد خارج عن طاعة الله . وفى الترمذى : كان الجن يصعدون إلى السماء ، فيستمعون إلى الوحى فإذا سمعوا الكلمة ، زادوا فيها تسعاً ، فأما الكلمة فتكون حقاً ، وأما ما زادوا فيها فيكون باطلا ، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم منعوا مقاعدهم ، فذكروا ذلك لإبليس ولم تكن النجوم يرمى بها قبل ذلك ، فقال لهم إبليس ما هذا الأمر إلا من أمر قد حدث فى الأرض ، فبعث جنوده فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائماً يصلى بين جبلين ، فأتوه فأخبروه فقال : هذا الحدث الذى حدث فى الأرض قال هذا حديث حسن صحيح ، فدل هذا الحديث على أن الجن رموا كما رميت الشياطين .

وفى رواية السدى : أنهم لما رموا أتوا إبليس فأخبروه بما كان من أمرهم ، فقال : ائتونى من كل أرض بقبضة من تراب أشمها ، فأتوه فشم ، فقال : صاحبكم بمكة ، فبعث نفراً من الجن ، قيل سبعة ، وقيل كانوا تسعة منهم زوبعة ، وروى عاصم عن زر أنهم كانوا سبعة نفر ، ثلاثة من أهل « حران » وأربعة من أهل نصيبين وحكى جويبر عن الضحاك : أنهم كانوا تسعة من أهل نصيبين (قرية باليمن غير التى بالعراق) وقيل إن الجن الذين أتوا مكة كانوا من نصيبين ، والذى أتوه بمكة كانوا من نينوى .

ولكن الرازى يقول فى شرح سورة الجن ، إن القول بأن الجن كانت تسمع الخبر من السماء ، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم حرست السماء ورصدت الشياطين فمن جاء منها مسترقاً السمع رمى بشهاب فأحرقه لئلا ينزل به إلى الأرض فيبلغه إلى الناس فيخلط على النبى أمره ، ويرتاب الناس بخبره ، إن البعض اعترض على هذا وطعن فيه من وجوه :

أولها : أن انقضاض الكواكب مذكور فى كتب قدماء الفلاسفة أى قبل بعثة محمد صلى الله عليه عليه وسلم .

ثانيها : كيف يجوز أن هؤلاء الجن يشاهدون واحداً وألفاً من جنسهم يسترقون السمع فيحترقون ، ثم يعودون لمثل صنيعهم .

وثالثها : أنه يقال فى سمك السماء إنه مسيرة خمسمائة عام، فهؤلاء الجن إن نفذوا فى أجرام السماء وخرقوا اتصاله فهذا باطل ، لأنه تعالى نفى أن يكون فيها فطور على ما قال : (فارجع البصر هل ترى من فطور) ؟ وإن كانوا لاينفذون من جرم السماء فكيف يمكنهم أن يسمعوا أسرار الملائكة من ذلك البعد العظيم . ثم إن جاز أن يسمعوا كلامهم من ذلك البعد العظيم فلم لايسمعون الملائكة حال كونهم فى الأرض .

رابعها : لم لمْ يحافظ الملائكة على الأحوال المستقبلة بالسكوت عن ذكرها حتى لا يتمكن الجن من الوقوف عليها .

وخامسها : أن الشياطين مخلوقون من النار ، والنار لا تحرق النار .

وسادسها : إذا كان القذف لأجل النبوة فلماذا دام بعدها ؟

وسابعها : أن هذه الرجوم تحدث بالقرب من الأرض بدلالة رؤيتنا لها ، فكيف يقال إنها تمنع الشياطين من الوصول إلى ملك السماء .

وثامنها : أن هؤلاء الشياطين كان يمكنهم نقل أخبار الملائكة إلى الكهنة فلم لاينقلون أخبار المؤمنين إلى الكفار ليؤذوهم ؟

وتاسعها — لمَ لمْ يمنعهم الله ابتداء من الصعود إلى السماء حتى لا يحتاج إلى دفعهم عن السماء بهذه الشهب .

ويقول الأستاذ محمد أحمد خلف الله :

« كان القرآن يجرى على الصور الذهنية أو على الواقع النفسى فى تشبيهاته واستعاراته حين يتحدث عن جهنم ، وحين يصف طعامها

وشرابها ، وحين يتحدث عن الذى يتخبطه الشيطان من المس — جاء فى الرازى عند تفسيره لقوله تعالى : (إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين) ما يلى : وأما تشبيه هذا الطلع برءوس الشياطين ففيه سؤال : لأنه قيل إنا ما رأينا رءوس الشياطين ، فكيف يحكى تشبيه شىء بها ؟ وأجابوا عنه من وجوه :

الأول : وهو الصحيح — أن الناس لما اعتقدوا فى الملائكة كمال الفضل فى الصورة والسيرة ، واعتقدوا فى الشياطين نهاية القبح والتشويه فى الصورة والسيرة كان حسن التشبيه بالملك عند تقرير الكمال والفضيلة فى قوله : (إن هذا إلا ملك كريم) ، فلذلك وجب أن يحسن التشبيه برءوس الشياطين للقبح وتشويه الخلقة .

« وجاء فى الكشاف عند تفسيره قوله تعالى : (لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) ما يأتى : لا يقومون إذا بعثوا من قبورهم ، إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان أى المصروع ، وتخبط الشيطان من زعمات العرب ، يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع ، والخبط الضرب على غير استواء ، كخبط العشواء فورد على ما كانوا يعتقدون » .

« والقرآن يجرى على هذا المذهب حين يتحدث عن الجن وعن عقيدة المشركين منهم ، وأنهم كانوا يستمعون إلى السماء ليعرفوا أخبارهم ، ثم يقومون بعد ذلك بإلقاء هذه الأخبار على الكهنة ، وكان الكهنة يدعون الاطلاع على الغيب ومعرفة الأسرار » .

حارب القرآن هذه الفكرة ، وحاربها تدريجيًّا وبأساليب مختلفة ، فالجن كانت تقعد منها مقاعد للسمع ، ولكن الكواكب أصبحت رجومًا والشهب أصبحت لواحق ، والجن تخطف الخطفة حتى بعد رسالة محمد عليه السلام ، وحتى بعد أن حدثت المعجزة وعتقت الجن من الاحتراق . ذلك أسلوب محاربة الفكرة يوم أن كان سلطانها قويًّا ،

وإيمانهم بها عظيماً ، ويوم أن كان القرآن فى أول عهده بهم ، ولكن حينما تقدم الزمن ، وحينما استقر الأمر فى البيئة ، واشتهر أمر المعجزة ، وأخذ القوم يصدقون بالرجم ، انتقل القرآن إلى أسلوب آخر فقرر أن الجن ما كانت تعلم الغيب ، وأنها لو كانت تعلمه ما لبثت فى العذاب بعد أن فارق سليمان عليه السلام الحياة (فلما خرّ تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين) .

ويقول الأستاذ أحمد حسين .

« الجِنّة » هم الجن ، وقد سموا ذلك من الاجتنان، وهو الاستتار والخفاء ومنه الجنين أى المستتر فى بطن أمه .

« ولعل ما سبق يوضح هذه الآية ، فهذه الأصوات المنبعثة من داخل نفوسنا ، والتى قد تدفعنا إلى طريق الشر ليست فى حقيقتها إلا أثراً وانطباعاً ورد فعل لما نقابله ونلقاه فى حياتنا اليومية ، عناصر محسوسة ملموسة ، نستطيع أن نحددها ، وأخرى خفية مجهولة ، نعجز عن إدراكها ، ونعجز عن تصورها ولكننا نحس آثارها علينا .

« ولم يعد هناك شك أو شبهة فى أنه يوجد داخل النفس البشرية ، وحول الإنسان ، وفى هذا الكون ، مناطق وعوالم وكائنات لم يصل الإنسان بعد إلى معرفة كنهها ، ولكنه لا يشك فى وجودها .

« وعلماء النفس يحدثوننا عن العقل الباطن ، محاولين أن يفسروا بهذه الكلمة المظاهر غير العادية التى تطرأ على الإنسان والتى لا يستطيعون تعليلها بالقوانين المادية العادية ، فينسبونها إلى العقل الباطن ، دون أن يروا هذا العقل الباطن ، أو يعرفوا مكانه ، أو يحددوا قدراته تماماً ، كما كان القدامى يفسرون هذه الظواهر بأنها عمل الجن » .

وتقول الأستاذة عائشة عبد الرحمن :

« وليس من الضرورى أن يقتصر مفهوم الجن على ما ألفنا من إطلاقه على تلك الأشباح التى لا تظهر لنا فى تهاويل الظلمة وتصورات

الوهم ، وإنما يتسع اللفظ — بدلالته الأصلية على الخفاء ، وبمقابلته للإنس — لأى جنس غير بشرى يعيش فى عوالم غير منظورة ولا مدركة ، وراء حدود عالمنا الأرضى الذى نعيش فيه نحن الإنس ، فلا يخضع للسنن المعروفة التى توجه حياتنا وتحكمها .

« وبهذا المدلول الرحب تنتفى شبهة الخرافة التى تدفع كثيراً منا إلى رفض الاعتقاد فى وجود الجن وإن كانت الكشوف العلمية الحديثة لا تنفى احتمال وجود جنس غيرنا ، يعيش فى عوالم خفية كالكواكب والقمر ، لانزال نجهلها وإن لم نكف عن السعى إلى اكتشاف خفاياها ومجاهلها » .

وفى ضوء هذه الآراء كلها — القديمة والحديثة — ننظر فى سورة الجن ، لنقف على أغراض القرآن الكريم ، من تخصيص سورة بهذا الاسم ، وعن هذا النوع من المخلوقات التى لا يراها الناس ، والتى لا يعلمون شيئاً عن وصفها ، ولا سيرتها ، ولا طبيعتها ، إلا أنها خلقت من مارج من نار » .

جاءت هذه المعانى التالية فى السورة :

أولا : قل يا محمد إنه أوحى إلىّ أن جماعة من الجن استمعت إلىّ وأنا أتلو القرآن ، فقالوا لجماعتهم — على أثر هذا الاستماع : إننا سمعنا قرآناً بديعاً ، أى لم نسمع شيئاً مثله ، يدعو إلى الهدى والصواب ، فآمنا بالمنهج الذى يدعو إليه هذا القرآن ومن ثم فلن نشرك بربنا أحداً ، فالله هو ، حقاً وصدقاً ، ربنا ، وهو لا صاحب له ، ولا ولد . وقد ظهر لنا ، بفضل هذه الهداية ، بطلان ما كان يقوله بعض الجهال منا من أن الله له شريك أو أنه اتخذ ولداً ، فهذا القول شطط لا سند له ، والإصرار عليه خطأ ومعصية .

ثانياً : وقد ظننا أن الناس لا تجترئ على الله تعالى بالكذب ، فيكبر عليهم أن ينسبوا إليه عز وعلا ، ما لا يليق به من الصحبة والولد .

ثالثاً : وقد علمنا — أى الجن — أن بعض الناس كانوا يستعينون بالجن ، ويلتمسون منهم العون والحماية ، بدون أن يطلبوا هذا من الله وحده ، مع أنه تصدر منه كل القوى ، فزادهم هذا الخطأ فى التفكير ، والفساد فى الاعتقاد ، ضعفاً واضطراباً بدل أن يمنحهم قوة ومنعة ، إشارة إلى ما درج عليه العرب عند نزول أحدهم بواد لا عهد له به من قولهم « إنى أعوذ بسيد هذا الوادى » ، معتقداً أن لكل واد سيداً من الجن .

رابعاً : قد كان من آثار فساد عقيدتهم ظنهم أن من يموت لن يبعث ثانية بعد موته .

خامساً : إننا — نحن الجن — طمعنا فى أن نستقل عما توحى به السماء وألا نطلب الهداية من سبيلها ، بالاعتماد على قوتنا ، باستراق العلم ، فعلمنا أن السماء ، أى الحصول على المعرفة ، قد حدد ، فأصبح سبيل العلم والهداية واضحاً ، وتنكبه يؤدى إلى الهلاك : الذى تعنيه الأرصاد والشهب ، وتصوره خير تصوير مادى .

سادساً : ولما كان هذا حدثاً لا عهد لنا به ، ولما كان علمنا قاصراً ، فنحن لاندرى أفيه خير لأهل الأرض أم أنه شر . سيهتدون به ، أم سيصدون عنه .

سابعاً : على أننا كالناس — منا الصالحون ، ومنا دون ذلك ؛ أى الفاسدون ، فنحن على مذاهب مختلفة .

ثامناً : بيد أننا قد تحققنا أنه لن يكون فى وسعنا أن نفلت من سلطان الله ؛ ولن نغلبه بالهرب ، لا فى الأرض ولا فى السماء .

تاسعاً : لقد آمنا ، والإيمان يكفل للمؤمن اطمئناناً ، وينزع عنه الخوف من أن يصيبه غبن أو ضعف .

عاشراً : والمؤمنون منا كالمؤمنين من البشر ، هداهم ربهم إلى خير طريق ، وجزاهم بإيمانهم خير الجزاء ، أما الكافرون فجهنم مثواهم .

حادى عشر : والمؤمنون من الجن يقررون بأن المساجد لله ، وأنه لا يجوز أن يدعى فيها مع الله أحد،ويذكرون أنه حين بعث محمد صلى الله عليه وسلم ليدعو إلى ربه ، اجتمع عليه المشركون وتكاثروا تجمع وتكاثر صوف اللبد على عاتق الكبش ، ليقضوا عليه وعلى دعوته .

ثانى عشر : والدعوة التى استثارت كل هذه الكراهية هى أنه لا رب إلا الله ، وأن محمداً ليس سوى رسول الله ، فلا يملك بذاته لأحد ضراً ولا نفعاً ، وأن الله وحده سبحانه وتعالى هو الذى يحميه ، وأنه عليه الصلاة والسلام ، لا يلتمس هذه الحماية إلا منه عز وعلا .

ثالث عشر : وأن كل ما اختص به عليه السلام ، وتميز بفضله عن سواه من البشر ، هو أنه يبلغ رسالة ربه ، ولذلك فإن من عصى هذا الرسول فقد عصى الله ، لأن الرسول لا يقول من عنده ، وإنما يقول ما يوحى إليه به .

رابع عشر : أن الكفار الذين لا يصدقون بدعوة محمد ، سيرون غداً أن ما وعدهم به من حسن المثوبة ، وشدة العقاب ، صحيح ، وعندها سيعلمون من هو القوى الذى لا يغلب ، بفضل إيمانه ، ومن هو الضعيف ، الذى سيلقى الهوان بسبب كفره .

خامس عشر : على أن هذا كله غيب لا يعلمه إلا الله ، فمحمد لا يعرف متى تقوم الساعة ، وهل قيامها قريب أو بعيد ، فعالم الغيب استأثر به ، لينطلقوا فى حياتهم ، فيظهر من أعمالكم إيمان المؤمن ، وكفر الكافر ، ونفاق المنافقين .

سادس عشر : إذا كان الله قد استأثر بغيبه ، فلا يمنع هذا الاستئثار ، من أن يختار الله ، بعض عباده ، ليبلغوا إلى قومهم ، ما يريد الله أن يكلفهم القيام به ، ثم هو عز وعلا يحميهم من عدوان أعدائهم ، ليؤدوا الرسالة التى اختيروا لها ، وهو سبحانه يرقب ويحصى

ما يصدر عنهم من قول أو فعل .

فسورة « الجن » — وإن حملت هذا الاسم عنوانـًا لها ودار فيها حديث حول الجن ، واستماعهم للقرآن ودهشتهم منه ، وإيمانهم به ، وتحدثهم عما كان منهم قبله ، وانقسامهم إلى صالح وفاسد — سورة من سور القرآن الكريم ، نزلت لما نزلت له كل سور القرآن من الدعوة إلى الله رب العالمين ، وتوحيده ، وتنزيهه عن كل ضعف ، ولبيان صلته بالبشر ، وأن هذه الصلة ، تقوم عن طريق رسالات الرسل ، الذين يختارهم ، ويوحي إليهم ، ويكلفهم أشياء يقولونها ، وأشياء يعملونها ، وأفكاراً ينشرونها ، ويدعون إليها ، وأن هؤلاء الرسل — على الرغم من اختيارهم للرسالة ، واختصاصهم بالنبوة — بشر ، يأكلون الطعام ، ويمشون فى الأسواق ، ويخضعون لما يخضع له الناس أجمعون ، من سنن هذا الكون ونظامه ، فلا هم خالدون ، ولا هم مطلعون على الغيب .

فالحديث عن الجن وسيلة ، وليس غاية ، كأكثر ما يتخذه القرآن من موضوعات وقصص وأنباء الأمم ، وتاريخ الرسل ، فالقرآن لم يقصد أن يفرد سورة لتكون درسـًا عن الجن ، وبيان أحوالهم وصفاتهم ، ولم يعن بتقرير حقيقة حماية أخبار السماء من عبث الجن ، كنبأ واجب العلم به لذاته ، وإنما الغاية من هذا كله تأكيد الإيمان بوحدانية الله ، وتأكيد حقائق الإسلام الكبرى ، بمبادئه الأساسية من أن مخلوقات الله ، ما خلق من طين وما خلق من نور وما خلق من نار ، ما كان متمرداً ، وما كان قانتاً مخبتـًا ، وما كان بين الصالح والفاسد ، محكوم بسلطان الله ، مسير بإرادته ، وأنه سيحاسب على ما يقول ويفعل ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

فماذا تكون عقيدة المسلم فى الجن ، وما قوامها ؟ :

١ — إنهم من مخلوقات الله ، فكما أن الله قد خلق الملائكة ، فقد

خلق الجن والإنس .

٢ - إن القرآن خلا من وصف أو بيان أو تحديد لطبيعة الجن ، أو تحديد مواطن لهم ، أو أسلوب للتخاطب معهم ، أو منهج للاتصال بهم ، ولم يذكر إلا أنهم خلقوا من نار .

٣ - إن بعض المفسرين من المحدثين ، يميل إلى أن الجن هم من قبيل نوازع النفس التى لا تشاهد ولا تلمس لأنها لا تجسد ، ولكن تحس آثارها ، وبعضهم يراها من قوى النفس المخبوءة التى لا تزال استنتاجاً يستعان بفرضه على حل ألغاز النفس الإنسانية ومعمياتها . وفريق ثالث يرى أن الجن قد يكونون من سكان هذا الكون الفسيح ، وليس صحيحاً أن يكونوا من سكان كوكبنا الأرض .

٤ - ولكن القرآن على أى حال ينهى عن الاستعانة بهم أو الاعتماد عليهم ، أو الخوف منهم ، فإن من يتولاهم ، ويطلب الحماية منهم من دون الله ، لا يناله من وراء ذلك إلا الضعف والخبال . وهو لا ينسب لهم شأناً فى حياتنا ، ولا مشاطرة فيها ، فهم لايذللون لنا صعباً ، ولا يقربون بعيداً ، ولا يؤذون عدواً لنا ولا حبيباً .

٥ - وهم فى نهاية الأمر ، خاضعون لله ، لا يفلتون من سلطانه ، ولا يخرجون من أحكامه .

٦ - إن ما ورد فى القرآن عنهم توسل به القرآن لتأكيد أحكامه الأساسية ، وقواعده الرئيسية من توحيد الله ، والإذعان له ، وطاعة أوامره ، وتحاشى نواهيه ، وإن عمل الخير يجازى الجزاء الأحسن ، وعمل الشر يجازى بأشد العقاب .

٧ - ونتوج هذا كله أن حياة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعى تابعيه خلت من إشارة ، ولو طفيفة ، تجعل للجن فى حياة المسلم شأناً يفسد عليه إيمانه بالله واعتماده على نفسه ، وثقته بالفضائل التى دعا إليها القرآن من الصدق والشجاعة ، والوفاء والصراحة ، والنظام

والنظافة ، والتضحية والفداء .

فالإسلام عقيدة خلت من شيء يؤيد الخرافة ، أو يسندها أو يفتح باب الانزلاق إليها ، أو الاتجار بها ، وقد جاء ليحكم إغلاق الباب في وجه المتجرين بالشعوذة ، ومدعى الكهانة والاتصال بالسماء ، ومعرفة أنبائها ، وإخافة البشر ، وابتزاز المال أو الجاه . من قذف الرعب فى نفوسهم .

وكما قلنا — فى حديثنا عن الملائكة — إن حياة الناس خالصة لهم ، يصنعونها كما يبدو لهم ، فهم قادرون — بفضل ما أودعه الله فى نفوسهم ، من قدرات غير محدودة ، ومن قوى غير معروفة ، أن يحيلوها جنة ، وأن يكونوا فيها أقوياء أعزاء متحابين ، تمضى أيامهم رخاء وهناء ، وسكينة وصفاء ، يجملها الفن ، ويوسع من خيراتها العلم ، ويمنع شرورها الحب والنظام ، كما أنهم قادرون على إحالتها إلى جحيم لا يطاق ، يتلهب سعيره ، ويتلظى أواره ، بما فى نفس الإنسان من قدرة مذهلة على تهيئة أسباب الخراب والدمار ، من قتل الملايين فى ساعات ، إلى سحق المدن ، وحرق القرى ، وإبادة المزروعات ، فى لحظات . فلا شأن للملائكة ولا للجن بحياة الناس ، إنما صلتهم بخالق الكون عن طريق رسله ورسالاته ، وعن طريق ما أودعه فى عقل الإنسان ونفسه مباشرة ، بغير واسطة ولا شفاعة ، ولقد بلغت هذه الحقيقة أعلى مراتبها ، فيما جاء فى القرآن الكريم من أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فترك الله لنا حياتنا كلها بين أيدينا ، وجعلنا سادة عليها ، وبذل لنا كل ما يقوى ثقتنا بالإنسان ، فقد استخلفه على الأرض ، وأمر الملائكة أن يسجدوا له ، وجعل نفس الإنسان كآفاق الكون ، مجالا للتأمل ، وبذلك ارتفعت النفس الإنسانية إلى أعلى المراتب . ولم يعد يقبل منه ، أن يلتمس المقدرة لنفسه ، فيما يقارف من خطأ ، أو فيما يشكو من ضعف ، بفعل الملائكة أو الجن أو سواهما من خلق الله .

ألف لام ميم

من سور القرآن الكريم ، تسع وعشرون تبدأ بحروف مفردة ، هى : الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون .

أما هذه السور فهى : البقرة ثم آل عمران فالأعراف فيونس فهود فيوسف فالرعد فإبراهيم فالحجر فمريم فطه فالشعراء فالنمل فالقصص فالعنكبوت فالروم فلقمان فالسجدة فسورة (يسٓ) فصٓ ، فسورة غافر ثم سورة فصلت فالشورى فالزخرف فالدخان فالجاثية فالأحقاف فسورة (ق) فالقلم .

وتتوالى هذه السور فى ثلاثة مواضع : فأولى تلك السور وثانيتهاهى البقرة وآل عمران فى بداية المصحف الشريف ، ثم تأتى سورة الأعراف وهى السورة السابعة وحدها ، ثم تتوالى على التتابع فى السور العاشرة والحادية عشرة فالثانية عشرة فالثالثة عشرة فالرابعة عشرة فالخامسة عشرة ، ثم ينقطع تواليها حتى سورة مريم التاسعة عشرة لتليها سورة طه ثم يبدأ التتابع ثانية واضحاً ومتصلا فى موضعين : أولهما يبدأ بسورة الشعراء أى السورة السادسة والعشرين ، فتليها السورة السابعة والعشرون والثامنة والعشرون فالتاسعة والعشرون فالثلاثون فالحادية والثلاثون فالثانية والثلاثون ، ثم ينقطع التتابع ليستأنف بسورة يس وهى السادسة والثلاثون وسورة (ص) وهى الثامنة والثلاثون ، ليبدأ التتابع ثانية من السورة الأربعين إلى السورة السادسة والأربعين بلا انقطاع . ثم تأتى كل من سورتى (ق) وهى الخمسون ، و(القلم) وهى الثامنة والستون ، كل فى موضع كما ترى .

وقد تحدث بطبيعة الحال جميع المفسرين القدامى والمحدثين ، عن هذه الحروف ، وقد اخترنا أن ننقل بصددها بعض ما أورده الإمام

أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى فى مدارك التنزيل وحقائق التأويل قال :

« ألم ونظائرها أسماء ، مسمياتها الحروف المبسوطة التى منها ركبت الكلم ، فالقاف تدل على أول حروف (قال) والألف تدل على أوسطها واللام تدل على الحرف الأخير منها . وكذلك ما أشبهها ، ثم الجمهور على أنها أسماء السور ، وقال ابن عباس رضى الله عنهما : أقسم الله بهذه الحروف . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إنها اسم الله الأعظم . وقيل إنها من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله ، وما سميت معجمة إلا لإعجامها وإبهامها .

« وقيل ورود هذه الأسماء على نمط التصدير كالإيقاظ لمن تحدى بالقرآن كالتحريك للنظر فى أن المتلو عليهم قد عجزوا عنه عن آخرهم ، كلام منظوم من عين ما ينظمون من كلامهم ، ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا أنه لم تتساقط مقدرتهم دونه ، ولم يظهر عجزهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة ، وهم أمراء الكلام ، إلا لأنه ليس من كلام البشر ، وأنه كلام خالق القوى والقدر . وقيل إنما وردت السور ليكون أول ما يقرع الأسماع مستقلا بوجه من الإغراب وتقدمه من دلائل الإعجاز ، وذلك أن النطق بالحروف أنفسها كانت العرب فيه مستوية الأقدام ، الأميون وأهل الكتاب ، بخلاف النطق بأسامى الحروف ، فإنه كان مختصاً بمن خط وقرأ ، وخالط أهل الكتاب ، وتعلم منها ، وكان مستبعداً من الأمى التكلم بها استبعاد الخط والتلاوة ، مع اشتهار أنه لم يكن ممن اقتبس شيئاً من أهله ، حكم الأقاصيص المذكورة فى القرآن ، التى لم تكن قريش ومن يضاهيهم فى شىء من الإحاطة بها ، وأن ذلك من جهة الوحى ، وشاهد على نبوته » .

ثم أورد النسفى حقائق عن هذه الأحرف فقال :

« واعلم أن المذكور فى الفواتح نصف أسامى حروف المعجم ،

وهى الألف واللام والميم والصاد والراء ، والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون فى تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم ، وهى مشتملة على أنصاف أجناس الحروف ، فمن المهموسة نصفها : الصاد والكاف والهاء والسين والحاء . ومن المجهورة نصفها : الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والياء والنون . ومن الشديدة نصفها : الألف والكاف والطاء والقاف . ومن الرخوة نصفها : اللام والميم والراء والصاد والهاء والسين والعين والحاء والياء . ومن المطبقة نصفها : الصاد والطاء . ومن المنفتحة نصفها : الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون . ومن حروف القلقلة نصفها : القاف والطاء .

ثم قال : واختلفت أعداد حروفها : مثل ص ، ق ، ن ، طه ، طس ، يس ، حم ، ألم ، الر ، طسم ، المص ، المر ، كهيعص ، حم عسق ، فوردت على حرف وحرفين وثلاثة وأربعة وخمسة ، كعادة افتنانهم فى الكلام . وكما أن بنيته على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف سلك فى الفواتح هذا المسلك » .

وما أورده النسفى فى جملة ، هو ما ذهب إليه المفسرون ، وقد جمع القرطبي هذه الأقوال على نسق آخر ، ننقل منه :

قال عامر الشعبي وسفيان الثورى وجماعة من المحدثين هى سر الله فى القرآن ، ولله فى كل كتاب من كتبه سر ، فهى من المتشابه الذى تفرد الله بعلمه ، ولا يجب أن يتكلم فيها ، ولكن نؤمن بها ، ونقرؤها كما جاءت . وروى هذا القول عن أبى بكر الصديق وعن على بن أبى طالب رضى الله عنهما ، وذكر عن عمر وعثمان وابن مسعود أنهم قالوا : الحروف المقطعة من المكتوم الذى لا يفسر . وقال أبو حاتم لم نجد الحروف المقطعة إلا فى أوائل السور ، ولا ندرى ما أراد الله جل وعز بها .

ثم قال القرطبي : عن الربيع بن خيثم قال : إن الله تعالى أنزل هذا

القرآن فاستأثر بعلم ما شاء وأطلعكم على ما شاء ، فأما ما استأثر به فلستم بنائليه ، فلا تسألوا عنه ، أما الذى أطلعكم عليه فهو الذى تسألون عنه وتخبرون به ، وما بكل القرآن تعلمون ، ولا بكل ما تعلمون تعملون .

ثم قال القرطبى : وقال جمع من العلماء كبير : بل يجب أن نتكلم فيها ، ونلتمس الفوائد تحتها ، والمعانى التى تتخرج عليها .

ثم قال إن ابن عباس ذهب إلى أنها اسم الله الأعظم ، إلا أنا لا نعرف تأليفه منها . وقال قطرب والفراء وغيرهما . هى إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العرب حين تحداهم بالقرآن وأنه مؤتلف من حروف هى التى منها بناء كلامهم . قال قطرب : كانوا ينفرون من استماع القرآن فلما سمعوا « آلم » و« المص » استنكروا هذا اللفظ ، فلما أنصتوا له ، صلى الله عليه وسلم ، أقبل عليهم القرآن المؤتلف ليثبته فى أسماعهم وآذانهم ، ويقيم عليهم الحجة وقال جماعة : هى حروف دالة على أسماء أخذت منها ، وحذفت بقيتها كقول ابن عباس وغيره : الألف من الله ، واللام من جبريل ، والميم من محمد صلى الله عليه وسلم . وقالوا : الألف مفتاح اسمه الله واللام مفتاح اسمه لطيف ، والميم مفتاح اسمه مجيد . وروى عن ابن عباس قوله : « ألم » أنا الله أعلم . و«الر» أنا الله أرى و « المص » أنا الله أفصل .

وقال القرطبى : من عادة العرب التكلم بالحروف المقطعة ومن ذلك قول الشاعر : فقلت لها قفى فقالت « قاف »

أراد فقالت وقفت ، كما قال عليه السلام ، «كفى بالسيف شا» معناه شافياً .

وقال زيد بن أسلم : هى أسماء للسور . وقال الكلبى هى أقسام أقسم الله تعالى بها لشرفها وفضلها وهى من أسمائه عن ابن عباس أيضاً .

ورد بعض العلماء هذا القول فقالوا : لا يصح أن يكون قسماً لأن القسم معقود على حروف مثل : إن ، وقد ، ولقد ، وما ، ولم يوجد هاهنا

حرف من هذه الحروف . والجواب أن يقال : موضع القسم قوله تعالى : لا ريب فيه ، فلو أن إنساناً حلف والله هذا الكتاب لا ريب فيه ، لكان الكلام سوياً ، وتكون « لا » جواب القسم فثبت أن قول الكلبي وما روى عن ابن عباس سديد صحيح .

ثم قال القرطبي : « فإن قيل ما الحكمة فى القسم من الله تعالى ، وكان القوم فى ذلك الزمان على صفتين : مصدق ومكذب ، فالمصدق يصدق بغير قسم ، والمكذب لا يصدق مع القسم . قيل القرآن نزل بلغة العرب ، والعرب إذا أراد بعضهم أن يؤكد كلامه أقسم على كلامه . والله تعالى أراد أن يؤكد عليهم الحجة فأقسم أن القرآن من عنده. وقال بعضهم (ألم) أى أنزلت عليك هذا الكتاب . من اللوح المحفوظ . وقال قتادة فى قوله (ألم) قال اسم من أسماء القرآن، وروى عن الترمذى أن الله أودع جميع ما فى تلك السورة من الأحكام ، والقصص فى الحروف التى ذكرها فى السورة ، ولا يعرف ذلك إلا نبى أو ولى ، ثم بين ذلك فى جميع السورة ، ليفقه الناس » .

وجمع الطبرى هذه الأقوال وغيرها ننقلها عنه مجملة :

عن قتادة : « الم » اسم من أسماء القرآن . هو مذهب كل من مجاهد وابن جريج .

وعن مجاهد أيضاً : « الم فواتح يفتح الله بها القرآن » .

وعن زيد بن أسامة : هى أسماء السور .

وعن ابن عباس : هى اسم الله الأعظم .

وعن ابن عباس أيضاً : هو قسم أقسم الله به ، وهو من أسماء الله .

وعن ابن عباس كذلك وعن سعيد بن جبير وعن ابن مسعود : هى حروف مقطعة من أسماء وأفعال : كل حرف من ذلك لمعنى غير معنى الحرف الآخر .

وعن مجاهد فواتح الصور كلها « ق » و « ص » و « حم » و « طسم »

و « ألر » وغير ذلك هجاء موضوع .

وعن الربيع بن أنس : هى حروف يشتمل كل حرف منها على معان شتى مختلفة فالألف مفتاح اسمه « الله » ، واللام مفتاح اسمه « لطيف » ، والميم مفتاح اسمه « مجيد » . الألف آلاء الله ، واللام لطفه ، والميم مجده . واللام ثلاثون سنة ، والميم أربعون سنة .

وقال بعضهم هى حروف الجمل . وقال الطبرى : كرهنا ذكر الذى حكى عنه ذلك ، إذ كان الذى رواه ممن لا يعتمد على روايته .

وجاء فى التفسير الذى نشرته مجلة منبر الإسلام :

« هذه حروف ابتدأ بها الله سبحانه وتعالى ، ليشير بها إلى إعجاز القرآن الكريم المؤلف من حروف كالحروف التى يؤلف منها العرب كلامهم ، ومع ذلك عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن ، وهى مع ذلك تنطوى على تنبيه للاستماع لتميز جرسها » .

وجاء فى التفسير الوسيط :

(ألم) افتتح الله بعض سور القرآن بأسماء بعض الحروف وعددها ثمانية وسبعون حرفاً فى جملة السور ، وهى تكرار لأربعة عشر حرفاً ، فى أوائل تسع وعشرين سورة ، ومنها سورة البقرة ، وأولها (ألم) وقد ذهب كثير من السلف إلى أن معانى هذه الحروف وأغراضها سر من الأسرار التى استأثر الله تعالى بعلمها ، فتكون من المتشابه الذى لا يعلم تأويله إلا الله .

« أما علماء الخلف فقد حاولوا ببيان المقصود منها ، لأن القرآن جاء بلغة العرب ، ليفهموه . ومن أحسن ما قيل فى ذلك أنها تشير إلى إعجاز القرآن لأنه مكون من كلمات أساسها هذه الحروف التى تنظمون منها أيها العرب كلامكم ، ومع ذلك عجزتم عن أن تأتوا بمثله ، وفيكم الفصحاء والبلغاء ، فإذا جاء به النبى الأمى ، فالله تعالى هو الذى أنزله ، ولم يأت به من عند نفسه ، لأنه مثلكم فى الفصاحة ، فإذا

عجزتم عن الإتيان بمثله ، فهو مثلكم فى ذلك ، فالقرآن فوق مقدرة البشر جميعاً . ومن أحسن ما قيل أيضاً أن المشركين قد تضافروا على ألا يسمعوا القرآن (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ، لعلكم تغلبون) .

وجاء فى تفسير المنار : (ألم) هو وأمثاله أسماء للسور المبتدأة به ، ولا يضر وضع اسم الواحد (الم) لعدة سور لأنه من المشترك الذى يعين معناه اتصاله بمسماه ، وحكمة التسمية والاختلاف فى (ألم) و(المص) نفوض الأمر منها إلى المسمى سبحانه وتعالى ، ويسعنا فى ذلك ما وسع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيهم . وليس من الدين فى شىء أن يتنطع متنطع فيخترع ما يشاء من العلل التى قلما يسلم مخترعها من الزلل ، وقد أسند التفسير هذا الرأى للشيخ محمد عبده .

ونحب أن نورد بعض ما لاحظناه بصدد هذه الحروف ، وموضعها فى القرآن الكريم .

أولا : أن هذه الحروف المفردة ، لا تأتى إلا فى أوائل السور .

ثانياً : أنها لا ترد فى أوائل السور إلا مقرونة بذكر القرآن ، وبتأكيد من الله تعالى أنه هو الذى نزله على رسوله بالحق .

ثالثاً : استثناء من هذه القاعدة ، وردت هذه الألفاظ ، فى موضعين اثنين فقط من القرآن الكريم ، غير مقرونة بذكره أو بآياته ، وذلك فى سورة العنكبوت : (ألم ، أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون) ، وفى سورة الروم : (ألم ، غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين) .

رابعاً : لم يذكر القرآن الكريم أو آياته فى أوائل سور القرآن البالغ عددها أربع عشرة سورة ومائة ، غير مسبوق بهذه الألفاظ المفردة إلا فى سورتى الفرقان والزمر التى استفتحت بقوله تعالى : (تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ،

فاعبد الله مخلصاً له الدين) .

وقد وقعت سورة « الزمر » ، بين سورتين بدأتا بالألفاظ المفردة، مقرونة بذكر القرآن الكريم .

خامساً : لم يرد قسم فى القرآن من الله تعالى إلا فى أوائل السور ، من مثل (والعاديات ضبحاً) (والضحى والليل) ، (والليل إذا يغشى) ، (والشمس وضحاها) ، (لا أقسم بهذا البلد) ، « والفجر وليال عشر) ، (والسماء والطارق) ، (والسماء ذات البروج) (والنازعات غرقاً) ، (والمرسلات عرفاً) ، (لا أقسم بيوم القيامة) .

ننتقل بعد ذلك إلى التأمل فى منهج القرآن ، فى القسم ، فهو يقسم بأشياء تبدو لنا صغيرة الشأن قليلة القيمة ، كالتين والزيتون ، أو كالعاديات أو الخيل أو ببلد كمكة ، أو بالظواهر الطبيعية كالليل والفجر ، والشمس والقمر ، وبالرياح وبالنجوم ومواقعها وهو قسم يقول الله تعالى عنه : (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) .

وغاية القرآن الكريم من القسم بهذه الأشياء الصغيرة الشأن ، وبهذه الظواهر الطبيعية التى هى أثر من آثار قدرة الله ، وبالنجوم والكواكب التى هى من مخلوقاته عز وجل أن يلفت نظر الإنسان إليها للتأمل فيها ، والنظر فى النظام الذى تكون جزءاً منه ، ليزداد علماً وحكمة وفهماً لأحكام القرآن ، ولأصول الدين ، لأن الدين أساسه التسليم بقدرة الله ، وبعجز الإنسان أمامه وبحاجته إلى حمايته ورعايته سبحانه وتعالى ، وأنه بار بعباده رءوف بهم ، وأن كل ما يجرى عليهم مما يبدو لهم منطوياً على الخير أو الشر يمكن أن يزيدهم قوة ، لو ازدادوا فهماً لأحكام هذا الكون ونظامه ، وإدراكاً لسننه الثابتة التى لا تتحول ولا تتبدل .

وقد علمنا الله تعالى فى كتابه : (إن الله لا يستحيى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) ، وقد ضرب لنا فعلا مثلا بالذبابة وخلقها فقال :

(إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابـًا ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئـًا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) .

فالقسم بالحروف لا ينبو عن أسلوب القرآن البيانى ، ولا منهجه الفكرى ، بل يتسق معهما ويتفق . وهو فى المواضع التى وقع فيها مفهوم تمامـًا بطبيعة الحال ، لأنه يتحدث عن القرآن الذى هو كتاب ، ولأنه كتاب فهو يتكون من ألفاظ ، تتكون بدورها من حروف . فمادة الكتاب هى الحرف به يبدأ ومنه ينشأ ، وتنشأ أجزاؤه الصغرى فالكبرى ، وعن طريقه تتدفق الأفكار ، وتنتقل من القائل إلى السامع ، ومن المخاطب إلى المخاطب به . والدعوة إلى تأمل الأشياء الصغيرة التى هى أصل الأشياء الكبيرة ، هى رسالة الإسلام العقلية والروحية معـًا . فهو يتحدث كثيراً عن الذرة ، ويلفت النظر إلى (لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض) ، (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء) ، (قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض) ، (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) ، (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) ، (وإن تلك مثقال حبة من خردل أتينا بها) ، (إن تلك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة أو فى السموات أو فى الأرض يأت بها الله) .

فليس إذن عند الله شىء حقير مهما صغر ، ولا يخرج عن نظامه أمر مهما بدا تافهـًا ، قليل الشأن ، بل إن الله يذكر الإنسان المرة بعد المرة ، بأنه من (ماء مهين) وبأنه (خلق من صلصال من طين) بل إن الشيطان طرد من رحمة الله ، وأقصى عن الجنة لأنه لم يفهم حكمة الله ، وأبى أن يفتح عقله لنوره ، إذ رفض أن يسجد لآدم ، لمجرد أن (آدم) خلق من طين ، واعتبر نفسه خيراً منه لأنه خلق من نار : (قال أأسجد لمن خلقت طينـًا ؟) ، (قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه ، خلقتنى من نار ، وخلقته من طين) .

فالتأمل فى الصغير والضئيل من الأمور ، أو ما يبدو صغيراً وضئيلا ، من أساليب القرآن ومناهجه فى تعليم البشر ، وتعويدهم احترام مخلوقات الله ، واستظهار قدرته ، وعظمته فى أصغر ما خلق : (ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين) ، (ألم نخلقكم من ماء مهين ؟) .

فإذا كان القرآن قد وجه الخطاب إلى الكفار والمشركين ، والمسلمين والمؤمنين ، فى شأن القرآن الكريم ، فى كونه كتاب الله ، وكونه منزلا على رسوله ، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وليحتمل فى سبيل ذلك ، أن ينصرفوا عن سماعه وأن يشكوا فى صدقه ، وأن يلغوا فيه ، فهذا موضع تجب فيه الدعوة للتأمل فى أصل هذا الكتاب ، وهذا التأمل سيستدرج المتأمل إلى التفكير فى الكتب عموماً ، ما سبقت القرآن ، وما خطه الناس بأيديهم ، وسينتهى به التفكير إلى أن هذه الكتب ، تتكون من حروف صغيرة ، تنشأ منها جمل ، فماذا تكون هذه الحروف ؟ هى علامات لأصوات تصدر عن الإنسان ، ومثال هذه الأحرف : الألف واللام والميم والراء والهاء والصاد . إلخ . فهل يعرف العرب هذه الحروف ؟ ثم هل يدرون أنها قادرة على أن تنقل الفكر من رأس إلى رأس ، ثم من مكان إلى مكان ، ثم من زمان إلى زمان ، ثم من أمة إلى أمة . فإذن هى أداة خطيرة وفعالة ، وليست كما تبدو علامات لا قيمة لها ، ولا وزن . بل إنها جديرة بأن نتعلمها ، وبأن نعلمَها أولادنا . وأخيراً هى جديرة بأن نفكر فيمن خلق لنا هذه الحروف ، وأجراها أصواتاً على ألسنتنا ، وجعلنا قادرين على التخاطب بها . فإذا كان الله هو الذى تفضل علينا بهذا كله ، فهذا الخالق العظيم ، يقسم لنا بهذه الحروف الصغيرة ، بأنه كما خلقها ، وكما علمنا إياها ، خلق منها هذا الكتاب .

ولذلك جاءت هذه الأحرف ، فى أوائل السور ، متنوعة ، تصدر من الحلق ، وتصدر عن الشفتين ، مهموسة ومجهورة ، خفيفة وشديدة إلى آخر ما قاله الإمام النسفى .

وقد يكون الإنسان قادراً على أن يتصور أن فى وسع كتاب أن ينقل الناس من حال إلى حال ، ولكن أن يكون الحرف الصغير قادراً على هذا ، فأمر يحتاج إلى تنبيه وإيقاظ ، وإلى ما يشبه الصدمة ، فإذا أقسم الله العظيم ، خالق كل شيء بالحرف فإن هذا القسم إذا فهمناه ، يفتح لنا عالماً من التأملات فى هذا الكون الرحيب الفسيح الذى خلقه لنا الله ، وسخر لنا فيه القمر والشمس ، والبحار والأنهار ، ومهد لنا سبلا نسلكها ، ونزداد بفضلها قوة وعلماً . إن التفكير فى الحروف وخلقها وخالقها ، أفعل فى نفس الإنسان وعقله من التفكير فى خلق السموات والأرض ، وفى اختلاف ألسنة الناس وألوانهم . لأن هذه الحروف ، تصدر عن الإنسان نفسه ، ولا تكلفه جهداً ، وهو لا يكف عن النطق بها ، وهى مع ذلك تغير أحوال الناس ، وتعلمهم ، وتزيدهم قوة ، وهى سبيل الإنسان ليقرأ هذا القرآن و يفهمه .

فالقسم بالحروف فى القرآن ، هو مظهر من أجل وأكبر مظاهر عظمة القرآن والإسلام معاً . فالكتاب الذى بدأ بقوله (اقرأ) ، هو الكتاب الجدير بأن يتضمن قسماً من الله بالحروف . فليس ثمة سبيل للقراءة ، إلا بمعرفة هذه الحروف وتعلمها وتعليم الغير إياها .

إذن هذه الحروف قد وردت فى أوائل تسع وعشرين سورة من سور القرآن الكريم — وهو عدد حروف الأبجدية كلها — ليقسم بها الله العظيم ، إظهاراً لعلو مقامها ، وكشفاً عن أنها أصل المعرفة ، وأنها باب العلم ، وهو يقسم بها ، على حقيقة عظيمة أخرى ، هى أن القرآن من عنده ، وأنه لا يتكون إلا منها ، ولا يوجد إلا بها ، ليتحقق بهذا القسم فى وقت واحد نفعان جاء الإسلام ليحققهما للإنسان : أن يزيد من قدر العلم والمعرفة عنده ، وأن يدفعه إلى الاستزادة منهما .

والثانى أن هذا العالم الكبير مفاتح السيطرة عليه والانتفاع به باعتباره مسخراً لخدمة الإنسان المؤمن الصادق العالم ، مفاتح هذا

العالم ، هى أمور صغيرة فى رأى العين ، كالحروف . فعلى الإنسان أن يبحث عنها ، ويحيط بها ، لكى يكون قوياً قادراً ، وعالماً مؤمناً ، وسعيداً صالحاً . إن هذه الأحرف كما قلنا ، قادرة على أن تنقل الإنسان من الجهل إلى العلم ، ومن الظلام إلى النور ، ومن الضعف إلى القوة . فتأمل أيها الإنسان فى قدرة الخالق العظيم ولا يهولنّك هذا الكون الفسيح ، ولا تتضاءل أمام ضخامته ، وترامى آفاقه ، فإنك سيده بالعلم ، والعلم كما تريك الحروف ، سهل ميسور ، إن حرصت عليه ، والتمست السبيل إليه .

يتضح من كل ذلك أن التكلم فى الحروف المفردة ، الواردة فى تسع وعشرين موضعاً من القرآن الكريم ، فيه خير كثير ، ومنافع للناس عظيمة ، وبذلك يكون واجباً ، كما قال بذلك عدد من التابعين الصالحين ، والمفسرين السابقين ، ومع ذلك فإن حجة المذهب القائل بأن هذه الأحرف والغاية منها مما استأثر الله بعلمه ، فنفوض الأمر فيها لله ، قائمة على أن الأحرف بطبيعتها لا تحمل بذاتها معنى ، فهى ليست كالأفعال والأسماء ، فالذى يقول (ألف) أو (ميم) فإنه لم يقل شيئاً ، وما دام الله تعالى ، قد اختار أن يستفتح بها عدداً فى سور كتابه ، فلا يجوز لنا أن نقول إن هذه الأحرف تعنى شيئاً ما ، تدركه أفهام البشر ، لأنها فى واقع الأمر ، لا تعنى شيئاً مما تعارف عليه الناس ، وكل محاولة منا ، لإسناد المعانى إليها ، هى رجم بالغيب ، لا يأمن الإنسان فيها الوقوع فى الخطأ .

إلا أن القرآن فى جملته وتفصيله ، خطاب موجه إلى الناس ، ليفهموه وليتدبروه ، ويعوا من حياتهم ، ومن الكون الذى يحيط بهم ، أموراً كانوا يجهلونها يهتدوا إلى سبل كانوا لا يفكرون فيها ، وإن العلم بهذه الأمور ، والاهتداء إلى تلك السبل ، بمثابة الخروج من الظلام إلى النور ، ومن الضعف إلى القوة ، ومن المهالك إلى الطمأنينة والسلام . ونسبة

الاستغلاق والغموض المطلق إلى شيء فى القرآن ، من لفظ أو معنى ، مما لا يتفق مع رسالة الذكر الحكيم ، ولا مع إنزاله على رسوله ، وتكليف الرسول بتبليغه ، وقد تواترت الآيات الدالة على ذلك ، ففى سورة القمر وحدها ثلاثة مواضع جاء فيها : (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) كما جاء فى سورة الإسراء : (ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا) ، وفى سورة فصلت : (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته) ، وفى سورة الزخرف : (إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) ،وفى سورة إبراهيم :(وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم) ،وفى سورة محمد : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) .

فكل ما فى القرآن معروض على أفهام الناس وعقولهم ، ليحاولوا فهمه ، والانتفاع بما يفهمونه ، وهم بطبيعة الحال متفاوتون ذكاء وصبراً ، كما تتفاوت حظوظهم من توفيق الله ، ولكنهم مهما ضؤل نصيبهم من القدرة العقلية ، ومن استطاعة الإدراك والتحصيل ، فهم مطالبون بأن يستعينوا بغيرهم ممن هم أكثر علماً ، وممن يستطيعون أن يفقهوا الناس : (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) ، (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) ، فالجهاد الذى هو أعلى مراتب الإيمان ، لا يخرج إليه المسلمون كافة ، لكى يفرغ بعضهم للعلم والتفقه : (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) ، وليس معنى ذلك ، أن الله لم يستأثر بعلم الكثير (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ، ولكن هذا الذى استأثر به الله نفهم ما جاء بشأنه فى القرآن ، ولا يكون للمسلمين كرطانة الأعاجم ، أو من قبيل المعميات التى تكون عنصراً فى أديان أخرى ، فالله تعالى قال : (ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى) ، فنحن نقرأ هذا الكلام فنفهم منه كل كلمة فيه ، ونفهمه جملة واحدة ، وندرك من كلماته ومن معناه أن الله تعالى ينهانا عن الخوض فى موضوع الروح ،

ولكننا نعرف كلمة الروح ومدلولها ، وإن كنا لا ندرى طبيعة هذه الروح ولا كنهها .

كذلك جاء فى القرآن الكريم عن الساعة ، وموعد قيامها : (يسألك الناس عن الساعة قل إنما علمها عند الله) ، (إن الله عنده علم الساعة) ، (يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى) .
وليس معنى هذه الآيات الصريحة البينة أن المسلمين لايفهمون ما المقصود من الساعة ، وأنهم لا يجوز لهم أن يفهموا معناها ، وأن يشرحوا هذا المعنى لمن لا يفهمه جيداً ، فهذا كلام عربى مبين ، واضح ظاهر ، ولكن الذى لا نعلمه ، ولا يحق لنا أن نخوض فيه ، هو موعد قيام الساعة ، لأن الله قال بصراحة إنما علمها عنده وحده سبحانه وتعالى .

وكل المذاهب الأخرى فى تفسير الألفاظ المفردة التى تقول إن هذه الألفاظ أجزاء من أسماء أو أفعال ، صرح ببعضها ، وأخفى بعضها الآخر ، أو أنها أسماء لله سبحانه وتعالى ، فنحن لانقف أمامها لنناقشها واحداً واحداً ، وإنما نقول إن كل هذه الآراء لا تتفق مع روح الإسلام ، وجوهر أحكامه ، فالإسلام دين صريح واضح يصل فى صراحة أحكامه ، ووضوح قواعده ، إلى أقصى الحد ، فهو خال تماماً من الألغاز والغموض ، وليس فيه علم يبذل للكافة ، وعلم يستأثر للأحبار ورجال الدين ، إنما هو علم أبوابه مفتحة لكل مجتهد ، وما دام طالب العلم يتوسل إليه بوسائله البشرية ، من الاجتهاد ، وخلوص النية ، وصدق الرغبة ، وسؤال من يعلم ، والصبر على البحث وتحضير وسائله ، فله الحق فى أن يؤمل فى الوصول إلى مراتب العلم ، فليس فى الإسلام كهنوت ، ولا هيئة تفرض رأيها على المسلمين بجاهها ، أو سلطانها ، ولو كان جاه العلم ، فلكل مسلم أن يختار لنفسه الرأى الذى يرتضيه ، ما دام قد وصل إليه بنفسه ، أو بالاستعانة بسؤال ، ممن يحق لهم النظر فى أحكام الدين ، والفتوى فيها .

قفل باب الاجتهاد : نقمة أم نعمة ؟

أوفد رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل إلى اليمن ليفقه أهله فى الدين ، فسأله الرسول كيف تقضى ؟ فقال معاذ : أقضى بكتاب الله ، فإن لم أجد فبسنة رسوله ، فإن لم أجد ، أجتهد رأيي . وقد حمد رسول الله ، الله تعالى ، إذ وفق معاذاً إلى ما يرضى الله ، ويرضيه عليه الصلاة والسلام .

وقال الإمام على : قلت : يا رسول الله ، ينزل بنا من الأمور ما لم ينزل فيه قرآن ، ولم تمض فيه منك سنة ، قال : اجمعوا له المؤمنين من العالمين فاجعلوه شورى بينكم ، ولا تقضوا فيه برأى واحد .

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى ، عندما ولاه القضاء ، اعرف الأشباه والأمثال ، فقس الأمور على ذلك .

وقال عمر للقاضى شريح : اقض بما استبان لك من قضاء رسول الله ، فإن لم تعلم كل أقضية رسول الله ، فاقض بما استبان لك من أئمة المجتهدين ، فإن لم تعلم ، فاجتهد رأيك ، واستشر أهل العلم والصلاح .

وفى هذه الأقوال جميعاً سند الاجتهاد ، وسند اجماع المجتهدين ، كمصدر من مصادر الأحكام فى الشرع الإسلامى . والاجتهاد ، أى إعمال الفكر واستفراغ الجهد ، للوصول إلى حكم الحالة التى لم يرد فى شأنها نص فى القرآن أو فى السنة ، أمر تستوجبه الحياة نفسها ، فكما يقول الشهرستانى فى كتابه « الملل والنحل » : الحوادث والوقائع فى العبادات مما لا يقبل الحصر والعدد ، ويعلم قطعاً أنه لم يرد فى كل حادثة نص ، ولا يتصور ذلك أيضاً ، والنصوص إن كانت متناهية فالوقائع غير متناهية ، ولما كان ما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى ، علم قطعاً أن الاجتهاد والقياس واجبا الاعتبار حتى يكون بصدد كل واقعة اجتهاد .

ولم يجادل أحد فى أن صحابة رسول الله اجتهدوا ، والرسول بين ظهرانيهم . وقد أعلن معاذ بن جبل رضى الله عنه أنه سيجتهد برأيه ، والرسول على قيد الحياة . ثم إن الصحابة اجتهدوا بعده ، فقرروا وفعلوا ، ما لم يأت به نص القرآن والسنة ، ومن أعظم ما فعلوه ، جمع القرآن فى مصحف ، ثم حمل الناس على مصحف واحد .

واجتهاد الخليفة الثانى مشهور معلوم ، منه أنه عطل حكم المؤلفة قلوبهم ، وفيه نص فى القرآن ، وعطل حد السرقة فى واقعة غلمان أبى بلتعة ، كما عطله فى عام المجاعة ، كما نهى أمراءه عن زواج الكتابيات ، وهو جائز . وقد أجاز أصحاب الرسول ، كسعيد بن المسيب وربيعة بن عبد الرحمن ويحيى بن سعيد الأنصارى التسعير ، فى حين أن الرسول امتنع عنه ، وقال : « إن الله هو المسعر القابض الباسط الرازق ، وإنى لأرجو أن ألقى الله وليس يطالبنى أحد بمظلمة فى دم ومال » .

وجملة القول أن المسلمين اجتهدوا وقاسوا الأحوال الجديدة ، والأمور المستحدثة ، والوقائع غير المسبوقة ، على الأحوال والأمور والوقائع التى ورد فيها نص فى القرآن والحديث ، وأنهم واصلوا اجتهادهم ، فتعددت طرائقه ، ولولا أن المسلمين اجتهدوا ، وسايروا ما أتت به فتوحهم الواسعة ، وحضارتهم المزدهرة ، وثقافتهم التى تعددت روافدها وترامت آفاقها ، من علاقات إنسانية جديدة ، ووجوه للنشاط الاقتصادى والاجتماعى والفكرى لم يكن لهم بها عهد من قبل ، لضمرت شريعتهم ، وجفت منابعها ، ولتقلص ظلها ، فأظلتهم شرائع غيرهم كما حدث لهم ذلك بعد حين . وبفضل هذا الاجتهاد بقيت الشريعة الإسلامية فتية : يتجدد رواؤها ، ويزداد نطاقها اتساعاً .

وقد اشترط المسلمون ، فيمن يتصدون للاجتهاد من علمائهم ، شروطاً ، حتى لا يتصدى لهذه المهمة العظيمة ، من ليسوا أهلاً لها ، فكان لا بد للمجتهد من توافر العلم باللغة العربية لغة القرآن والسنة ،

والعلم بقواعدها ونحوها وصرفها ، وأساليب العرب فى البيان ، على أن يكون عاقلا عدلا متصفاً بالأخلاق عارفاً بآيات الأحكام فى القرآن وأسباب النزول ، والناسخ منها والمنسوخ ، وأحاديث الأحكام إلى آخر ما اشترطوه فى هذا الطراز الرفيع من العلماء .

ثم اشترط المسلمون فى عصور تدهورهم للإجماع صورة تجعله مستحيلاً إذ اشترطوا لصحته اجتماع كل مجتهدى العالم الإسلامى ، بعد معرفتهم والوقوف عليهم ، ثم معرفة رأيهم جميعاً فى المسألة المعروضة عليهم واستمرارهم على رأى واحد ، حتى صدور هذا الرأى منهم .

والمسلمون لم يتشددوا هذا التشدد ، عن حرص على الدين ، أو اتقاء للمزالق ولا رغبة فى جمع الكلمة ، وإنما فعلوا ذلك لأنهم فقدوا الثقة فى أنفسهم ، فتهيبوا الاضطلاع بالمسئولية ، وآثروا التقليد والمحاكاة ، على التفكير والابتكار والتجديد ، فالابتكار مشقة ، والتجديد معاناة ، والتفكير له ضرائبه من درس وسهر ، ومراجعة ومقابلة . والتقليد والنقل عن الآباء والتشبث بالقديم ، سنة الأمم الضعيفة وصفة الجماعات المغلوبة على أمرها (قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا)[١] ، (قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا)[٢] .

وقد كنا نذكر هذا الجمود الذى أصاب التفكير الإسلامى بعامة ، وتفكير علماء الشرع الإسلامى بخاصة ، فتذهب أنفسنا حسرات عليه ، حتى أدركنا أن التشريع الإسلامى ، ليس إلا انعكاساً لحياة المسلمين ، فلما ضعف أمرهم ، واستكانوا لحكم الأجنبى وقبلوه ، وتسابق علماؤهم على ترضى السادة الجدد ، والسير فى ركابهم ، تخلت عنهم صفات المجتهدين ، وأعوزتهم وسائلهم ، فى حاجتهم إلى الاجتهاد ، وقد سادهم الإعجاب بكل ما هو أجنبى وأقروا بالعجز عن منافسة الحضارة الجديدة ، وأهابوا بأولادهم أن ينجوا بأنفسهم عن الانقطاع لدراسة

---

(١) سورة البقرة : ١٧٠ . (٢) سورة المائدة : ١٠٤ .

الشرع الإسلامى وتعليمه والقضاء به ، لأنه لا يدرّ رزقاً ، ولا يكسب جاهاً ، ولا يحقق نفوذاً .

وكأن الشرع الإسلامى قد خرج من حياة المسلمين أنفسهم شيئاً فشيئاً ، حتى أصبح تراثاً ينظر فيه ، كما ينظر إلى كل قديم عزيز فقد صلته بالحياة ، وإن بقيت عند الدارسين المتخصصين أشياء علماء الآثار .

ولما انقطعت الصلة بالشريعة الإسلامية كقانون ، انبعث من الحياة القوية ، التى سادت المدن ، وأخرجت أكبر العقول وأضافت إلى العلم النظرى والتطبيقى الكثير الخالد لارتفاع شأن علمائها ، فلما دهم الحكم الأجنبى بلاد المسلمين ، صغر قدر هؤلاء العلماء عند الناس ، وصغروا عند أنفسهم ، فبات تكليفهم بالاجتهاد ، لوناً من العبث ، الذى لا يأخذونه هم بالذات مأخذ الجد . حسبك أنه كان تقليداً فى عهد الحكم البريطانى أن يحشد علماء المسلمين فى كل مصر ، فى ليلة القدر كل سنة فى دار المعتمد البريطانى ، لندرى أى درك وصل إليه الحال .

إذا كان هذا الجو ، جو الاجتهاد ، الذى هو صراع ومكابدة ، ومسئولية وثقة بالنفس ، وحرص على الشرف ، وكره للذل ، وعزم على مقاومة الباطل ، وتنديد بالغاصب ، ووقوف فى وجه الفاسد وجمع لكلمة الأمة حول راية القتال ، وإيمان بالدين الخالص ، ورغبة فى التضحية والبذل ، لم يكن الاجتهاد قط ، كلاماً يقال ، ولا فتوى يفتى بها وتكتب على ورق ، ولا حكماً يصدر فى قضية ، وإنما كان أولا وقبل كل شىء علماً واسعاً تعززه نفس قوية . ولأمر ما عذب أئمة المسلمين ودخلوا السجن ، أمثال أبى حنيفة ومالك .

فرحمة الله لهذه الأمة ، إن علماءها حينما لم تتوافر فيهم ، ولا فى الجو الذى كانوا يتنفسون فيه شرائط الاجتهاد ، ردوا أنفسهم عنه إلى أن تدور رحى القتال ضد الغاصبين ، فتجرى فى العرق دماء ، تجعل الاجتهاد حتماً لا مفر منه ، ونفعاً محضاً لا شرّ فيه .

دولة القانون فى الإسلام

الدولة القانونية ، هى الدولة التى يخضع فيها الحكام للقانون ، خضوع المحكومين له . وهى أمل من آمال البشرية : يبدو دانياً حيناً ، ثم يبعد ويمعن فى البعد حتى ليخيل إلى أبناء البشرية أنه كاد يكون سراباً ، أو نداً للعنقاء والخل الوفى !

وقد زاد من بعده أن اشتدت أوار الحروب الساخنة فى العهود الأخيرة منذ وقعت الثورة الفرنسية ، ثم جاءت فى أعقابها حروب نابليون الدولية ، فحرب سنة ١٩١٤ العالمية ، فمحنة سنة ١٩٣٩ البشرية ، فلما وضعت هذه الأخيرة أوزارها ، أعقبتها الحروب الباردة ، التى تسخن بدورها ، وتبرد ، حسب تقلبات السياسة ، ومخاوف الزعماء الحقيقية أو المدعى بها .

وقد منحت كل هذه الحروب الحكام ذرائع تبيح خرق القانون ، وتعطيله وتأجيله ، ومداراته ، وتخديره وتنويمه ، وإرهابه وإخضاعه ، مع تراشق المعسكرات بتهم يدور أكثرها حول إذلال كل معسكر للقانون وتمويهه أو تشويهه . على أن الذى يؤكد — مع الأسف الممض — أن أزمة القانون حقيقة واقعة ، وليست وهماً أو خيالا ، أن فقهاء الغرب المدل بحبه للقانون وإعلاء كلمته ، والخضوع لسيادته ، اعترفوا فى غير مداراة ، بأن دولة القانون فى بلادهم دالت ، ولعل من أصرح هؤلاء « دى لانكفورت » فى كتابه « القياصرة الجدد » ، وقد أنذرنا بدولة قياصرة تقوم فى الغرب من طراز قياصرة روما ، لهم سلطان كسلطان هؤلاء القياصرة القدامى ، كما أنذر ، بأننا صائرون إلى هذا المصير ، بغير وعى منا ، كأننا السائرون نياماً ، فنسلم حرياتنا إلى يد مستبد ، فراراً من حريتنا .

وقال الكاتب إن هؤلاء القياصرة فى غير حاجة إلى إحداث انقلاب على الدستور ، أو ثورة ضده إذ حسبهم أن يتسللوا إلى مواطن القوة من دروب فى الدستور نفسه . .

* * *

لذلك كله أصبح الحديث عن دولة القانون التى يسرى فيها الشرع العام ، على الحاكم مثل سريانه على الرعية ، من أحب الأحاديث إلى قلوب الناس ، التماسًا للأمل ، أو تعزية عن الواقع .

وقد عرف الناس هذه الدولة ، كاملة المعالم ، واضحة الملامح ، صريحة لا تتوارى ، جلية لا يخطئها البصر ، مهما قصر ، حينما عرفوا الإسلام . قال نبى المسلمين، رسول الله صلى الله عليه وسلم لصحابته : « قاربوا وسددوا ، واعلموا أنه لن ينجو أحد منكم بعمله » ، فقال أصحابه ولا أنت يا رسول الله : قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه فضال » ! ومعنى ذلك أن الرسول نفسه فى حاجة إلى رحمة الله وفضله، ولينل عفوه ، وينجو من عقابه .

فالقانون الذى يحكم الناس جميعًا ، وفى مقدمتهم رسول الله رب العالمين ، هو ما جاءت به الآية الكريمة : (ليس بأمانيكم ولا أمانىّ أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يُجزَ به)، ولم يهمل الرسول عليه أفضل الصلاة فى أن يعلن هذا المبدأ ، بأكثر من أسلوب ، وبأكثر من عبارة ، وفى أكثر من مناسبة ، قال : « يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئًا ، ويا بنى عبد مناف لاأغنى عنكم من الله شيئًا ، يا عباس بن عبد المطلب ما أغنى عنك من الله شيئًا . يا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مال ، لا أغنى عنك من الله شيئًا » .

* * *

ولكن ما أيسر ما يقول الناس، وما أكثر ما يقولونه ضد ما تُطوَى عليه الصدور ، وما تعلنه الأعمال ، فانظر ماذا جرى من محمد ، فى

أكثر الأمور مساً بقلب الإنسان وإثارة لوجدانه .

أسر المسلمون فى غزوة بدر ، أبا العاص بن الربيع ، وكان من رجال مكة المعدودين أمانة ومالا وتجارة ، وكان فوق ذلك زوج بنت رسول الله، من السيدة خديجة ، ولكن أبا العاص استمسك بدين قريش، ولم يدخل الإسلام ، وبقيت معه زينب بنت الرسول فى مكة ، وأرسل أهل مكة يفتدون أسراهم ، فبعثت زينب مالا افك أسر زوجها ، وبعثت معه قلادة كانت أمها قد أهدتها إليها ، عندما زفت إلى زوجها ، فلما رأى الرسول قلادة ابنته المهداة إليها من زوجته ، رق لها رقة ، شديدة ، وقال للمسلمين « إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا » ، فقالوا : نعم يا رسول الله ، وأطلقوه وردوا عليها مالها .

وقبل أن يطلق سراح أبى العاص أخذ النبى عليه عهداً أن يرد « زينب » إليه لتلحق بالمسلمين بالمدينة ، وأوفى أبو العاص بالوعد ، حتى إذا كان قبيل الفتح ، خرج أبو العاص بتجارة إلى الشام ، فيها بعض ماله ، ومال لرجال من قريش، فتصدت للقافلة سرية من المسلمين ، فاستولت على مال القافلة وبضاعتها ، وفر أبو العاص ناجياً بنفسه . فإذا كان الليل دخل على السيدة زينب بنت الرسول فاستجار بها فأجارته . . فلما خرج رسول الله إلى الصبح ، كبر وكبر الناس ، صرخت زينب من صفة النساء : « أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع ! » فلما سلم الرسول من الصلاة أقبل على الناس يقول : أما والذى نفس محمد بيده ، ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم . إنه يجير على المسلمين أدناهم » . ثم انصرف فدخل إلى ابنته فقال : أى بنية ! أكرمى مثواه ، ولا يخلصن إليك ، أى لا يتصل بك اتصال الزوج — فإنك لا تحلين له . ثم أرسل رسول الله ، إلى السرية التى أصابت مال أبى العاص فقال : إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم : وقد أصبتم له مالا ، فإن تحسنوا وتردوا عليه الذى له فإنا نحب ذلك وإن أبيتم فهو

فىء الله أفاءه الله عليكم ، فأنتم أحق به » قالو : « يا رسول الله ، بل نرده » ، فردوه . وأطلق سراح أبى العاص ، فعاد إلى مكة . فوزع على أصحاب المال مالهم ، ثم أعلن إسلامه قائلا إنه لم يرد أن يعلن إسلامه ، قبل أن يرد الأمانات إلى ذويها ، حتى لا يظن أهل مكة . أنه اتخذ من الإسلام ذريعة لأكل أموالهم .

فانظر كيف كان مسلك الرسول فى الواقعتين ، دع عنك الرفق الذى اصطنعه ، والتواضع الذى أقسم به ، ودع عنك هذه الكلمة التى ندت من صدره ، وهو ينهى صلاته فى الصبح . معلنـًا أنه لم يعرف من قبل ، أن ابنته أجارت زوجها ، ليعلم الناس أنه لا يتواطأ حتى مع أحب الناس إليه ، وأقربهم إلى نفسه ، وأحقهم بالرعاية الخاصة . على القانون، فيعطى نفسه أكثر مما يعطى قانون الناس كافة .

إنما الغاية من ذكر هاتين الواقعتين ، أن الرسول سلم بحق السرية ورجالها فى الاستيلاء على مال القافلة ، وأنها إن أرادت مصادرتها ، فلا تثريب عليها ولا لوم . ولا يتوهم متوهم أن الرسول كان يعلم يقينـًا أن المسلمين سيستجيبون لرجائه ، وسيفكون له أسر زوج ابنته . فقد رباهم على غير ذلك ، وعلمهم كيف يجهرون بالرأى ويشتدون فيه ، حتى قال أحدهم فى غلظة لا مبرر لها : « أهذا المال مال أبيك ؟ » ، فإذا هم عمر بضرب عنق الرجل نهاه الرسول ، وقال قولة يحيطها الخلود بإطار من عنده : دعه يا عمر ، إن لصاحب الحق مقالا .

ويروى لنا التاريخ أن أنصاريـًّا كان له بستان ، وكان لآخر نخيل فيه ، فعرض عليه أن يبيعه النخيل فأبى ، فعرض عليه أن يبدله به نخيلا فى موضع آخر فأبى ، فرفع صاحب البستان شكواه إلى الرسول ، الذى أعاد عرض الأمرين على صاحب النخيل ، فأبى كذلك، فاقترح الرسول أن يهب نخيله لصاحب البستان فركب رأسه ورفض، وعندها فقط ، قال لصاحب البستان : أنت مضار فاخلع النخل .

نظام الحكم فى الإسلام

لا خلاف فى أن القرآن الكريم لم يورد بيانًا عن نظام الحكومة التى يرتضيها أو يأمر بها الإسلام ، صحيح أن الآية الثامنة والثلاثين من سورة « الشورى » والآية التاسعة والخمسين بعد المائة من سورة « آل عمران » قد تحدثتا عن الشورى ، وصحيح أن فى القرآن آيات تأمر بالعدل ، وتنهى عن الانحراف عنه ، لكراهية أو محبة . ولكن فيما عدا ذلك ، لا يجد الباحث من الأحكام ما يستطيع أن يقول معه إن الكتاب قد رسم خطًّا ما للناس يلزمونه فى اختيار حكامهم ، أو أرسى قواعد لضبط العلاقة بين الحاكم والمحكوم ، وإظهار ما يجوز لكل منهما وما لا يجوز . ومن ثم حق للفقهاء منذ نزل القرآن ، ويحق لنا اليوم أن نتساءل : فيمَ سكوت القرآن عن بيان مفصل لنظام الحكم ؟

جرت أكثر الأقوال فى الجواب عن هذا السؤال بأن مرد ذلك إلى كون الإسلام نظامًا صالحًا لكل زمان ومكان ، ونظام الحكم من أكثر الأنظمة الإنسانية تأثراً بالتطورات الطارئة التى تأتى بها الأيام ، والتى تنبت فى البيئة . فما يصلح للناس فى عهد قد يضيقون به فى عهد ثان ، وما قد ينفعهم فى بلد ، قد لا تستقيم به أمورهم فى بلد آخر .

وهذا القول صحيح ، وقد أخذت به الشريعة ، فمن قواعدها « تغير الأحكام بتغير الزمان والمكان » ، وقد قال ابن خلدون فى مقدمته : إن أحوال العالم والأمم ، وعوائدهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر . إنما هى اختلاف على الأيام والأزمنة ، وانتقال من حال إلى حال . .

وعلى الرغم من أن هذه الإجابة صحيحة فى جملتها ، فإن ما صرف القرآن عن بيان نظام الحكم هو أسلوب الإسلام وطريقته فى التشريع .

فأساس التشريع الإسلامى ، هو التربية الخلقية ، وإقامة رقابة الضمير الإنسانى ، بديلا من رقابة الدولة بشرطتها وعسسها . فالأصل فى الإسلام ، هو محاسبة الإنسان نفسه مستهديًا بأحكام الدين ، ومنها الحديث الذى يأمرنا أن نعبد الله كأننا نراه : فإن لم نكن نراه فهو يرانا . فرقابة الحكومة ، أو رقابة القانون هما رقابتان احتياطيتان .

ولذلك حرص الإسلام على أن ينشئ مجتمعًا تحكمه الضوابط الخلقية ، فإذا نجحت التربية الخلقية فخلقت مجتمعًا يسود علاقات أفراده الصدق والأمانة ، والوفاء والصراحة ، وكراهية الظلم ، ونصرة العدل ، والمسارعة إلى الخير ، ومقاومة الشر ، فأى نظام حكم يقوم فى هذا المجتمع ، يتساوى مع أى نظام آخر ، فمجتمع كهذا ، لن يقبل أو لن ينبعث منه نظام ظالم ، أو حكومة فاسدة ، أو حكام تعوزهم القدرة أو الكفاية .

وقد لخص الحديث النبوى هذه النظرة الإسلامية إلى الحكم إذ قال « كيفما تكونوا يولّ عليكم » ، فنظام الحكم أشبه شىء بالسائل ، يوضع فى الإناء الملون ، فيأخذ لونه ، ذلك لأن نظام الحكم — على ما أثبتته التجارب — هو صدى أخلاق الشعب : أما الدساتير والقوانين ، فلا تقيم حكمًا ولا تغير من شئون الناس شيئًا .

لذلك احتفل الإسلام بأخلاقيات الحكم دون نظامه ، فعرض على الراعى وعلى الرعية فروضًا يعلم الإسلام أنها من الحكم جوهره ، وأنها إذا روعيت استقام شأن الرعية ، وصلح أمر الراعى ، فإذا أهملت وقفت النصوص ، ومعها البنادق والمدافع ، والمحاكم والسجون عاجزة لا تقدم خيراً ولا ترد شرًا .

وقد روى لنا تاريخ بريطانيا مثلا رائعًا ومردعًا فى الوقت نفسه ، ما أجدرنا أن نتعظ به .

لقد فشت فى لندن منذ قرون جريمة « النشل » حتى أصبحت

خطراً داهمًا هدد أمن الناس وأموالهم ، فصدر قانون قضى بعقوبة الموت شنقًا ، على كل من يرتكب هذه الجريمة ، ونفذت عقوبة الشنق علنًا ، زيادة فى الردع ، فتزاحم الناس فى الميدان الذى أقيمت فيه المشنقة ، فانتهز النشالون الذين لم يضع القانون يده عليهم ، فأعملوا أصابعهم الخفيفة ، ومشارطهم السريعة فى جيوب المشاهدين ، فنشلوا فى ساعة ، ما كانوا يعجزون عن نشله فى أيام .

وليس فى الوسع أن نسرد نصوص الدستور الأخلاقى الذى فرضه الإسلام على الراعى ، ولكن نستطيع أن نذكر بعضها على سبيل المثال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من إمام يغلق بابه دون ذوى الحاجة والخلة والمسكنة إلا أغلق الله أبواب السماء دون خلته وحاجته ومسكنته » ، وقال : « من ولى من أمر الناس شيئًا فاحتجب عن أولى الضعف والحاجة ، احتجب الله عنه يوم القيامة » .

وأمر الإسلام الولاة أن يحسنوا اختيار أعوانهم ، فقد قال رسول الله عليه الصلاة والسلام : « من استعمل رجلا من عصابة وفيهم من هو أرضى الله منه ، فقد خان الله ورسوله والمؤمنين » . ومن جهة أخرى فرض الإسلام على أفراد الرعية ألا يعينوا على الظلم فقد قال الرسول الكريم : « من أعان ظالمًا بباطل ليدحض به حقًا ، فقد برئ من ذمة الله ورسوله» ، وفرض عليهم أن ينصحوا للحاكم ، وأن يجهروا بالرأى فى شئونهم ، فجعل خير الجهاد كلمة حق عند حاكم ظالم .

ولقد تسأل : ومن سيقوم بتربية الشعب ، ليكون له هذا الخلق القوى ، ثم ليسهر عليه ينميه ، ويمنع عوادى الزمن عليه ؟ والجواب عن هذا أن الله فرض على جماعة المسلمين أن يكون منهم دائمًا طائفة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، فإذا نسيت الجماعة ذكروها ، وإذا صلحت أعانوها ، وإذا خافت قووا إيمانها ، وإذا اندفعت سددوا خطاها ، سدد الله خطانا .

الإسلام والعالم

أديت فريضة الجمعة فى الكعبة ، فى غير موسم الحج . فجلست فى المسجد ، أجيل النظر فى الجموع الحاشدة التى امتلأ بها صحن المسجد ، وقد ضمت صورة مصغرة للعالم الكبير ، على ترامى أنحائه وأطرافه ، وتعدد أجناسه وأصنافه ، وكان معى زملاء رحلة ، رجال أشداء صناعتهم القتال ، فراعنى أنى رأيت الدموع تنحدر على وجناتهم ، وكأنهم أطفال ، من فرط التأثر بجو المكان ، والذكريات التى تتداعى فى نفس المسلم بالجلوس فيه . أما أنا فقد رحت أتأمل فى وجوه المصلين ، الذين وفدوا من كل صوب وحدب من دنيانا ، مستمتعاً بالنظر إلى حمام الحرم ، وهو يرسم فى الجو خطوطاً ودوائر ، يحط ويشيل ، كما يحلو له ، رمزاً ناطقاً بالسلام والسكينة والحرية . فلما أذن المؤذن ، وأقبل الخطيب ، أحسست بوجيب قلبى عنيفاً ، حتى خيل إلى أنه موشك أن يقفز من مكانه . فلما وصل الخطيب إلى آخر درجات المنبر ، ثم استدار ليواجه المصلين ، بلغت الغاية من التأثر حتى أوشكت أن أنتظم فى سلك الباكين ، ذلك لأنى تصورت نفسى على هذا المنبر ، أخطب العالم مجتمعاً وممثلا فى هذه الألوف من المصلين الهادئة وجوههم ، الخاشعة قلوبهم ، متجهين إلى قبلة واحدة ، مسيرين بعقيدة واحدة ، يظلهم تاريخ واحد . ماذا عسى أن أقول لهم ، والعالم الإسلامى فى أيدى سادة العالم وأمرائه ، كالكرة يتقاذفونها بالأيدى أو بالأرجل ؟ ولكن الخطيب أسرع إلى نجدتى ، فقد وقف هادئاً ، ثم حمد الله وأثنى عليه ، وأخذ فى صوت رتيب ، يخطب فينا ، كأننا لم نقطع الفيافى والقفار ، راجلين أو طائرين ، لنشهد هذه الساعة ومثيلاتها ، أو كأننا فى مسجد بعطفة من حارة فى حى من أحياء بلدنا ،

فقد حدثنا يومذاك ، فى شأن من شئون دنيانا التافهة ، فرحت أحدق فيه ، وكأنى لا أصدق أذنى ، ولا عينى ، ثم استحالت الحرارة فى بدنى وقلبى ، إلى برودة ، فلما نهضت إلى الصلاة ، كنت شبحاً بلا روح .

ما حدث يومذاك هو خير بيان لحال الإسلام منذ سنوات ، التى لا أدرى كم تغيرت اليوم ، لقد كان الإسلام نسراً محلقاً ، يصل إلى قمم الجبال الشوامخ ، ويطل على العالم الفسيح ككل متصل ، ثم أصبح كبط الترع ، له جناحان ، ولكن لا يرفعانه عن مستوى الماء الضحل . لقد تقلصت عالمية الإسلام ، وكونيته ، فأصبح ديناً محلياً ، وهو الدين السماوى الذى جاء رسوله ، ليخاطب الدنيا قاطبة ، خاطب القرآن النبى بقوله : (قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً) . ورب المسلمين ، هو رب المشارق والمغارب ، وهو رب العالمين ، والخطاب فى القرآن موجه للناس ، وقاعدة الإسلام الكبرى : (يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) ، وقول الرسول : « كلكم لآدم » .

بدأ الإسلام قوة عالمية ، واستمر قوة عالمية حتى سقطت دول المسلمين فى يد الاستعمار . فمنذ الأيام الأولى وجهت دعوة الإسلام إلى أكاسرة وقياصرة وأمراء القوى الكبرى فى العالم ، وجهت إليهم من هذه القرية الصغيرة « مكة » ، فوصلت إلى حواضر الحضارة المزدهرة ، المزدهية بقوتها وجاهها ، المدلة بسلاحها وسلطانها ، وبقى الإسلام قوة عالمية فى صور مختلفة : تارة بما ينقله للعالم من ثقافة علماء القدماء التى أثرت فى عقول البشر ، وصاغت أفهامهم وأفكارهم حتى اليوم ، وتارة بما يضيفه إلى علم الإنسانية من طرائق مستحدثة ، وتعديلات غير مسبوقة ، وكشوف لحقائق مجهولة ، وتارة ثالثة بما قدمه من نماذج بشرية عالية ، فى دنيا الفلسفة والعلم والفقه والإدارة وقيادة الدول والجيوش . وتارة رابعة بالصراع الذى نشب بينه وبين العالم المسيحى ، وأخذ صورة

الحروب ، وصورة السياسة ، بمناورات ومحاورات ، أو بمعاهدات ومحالفات . وقد تشكل تاريخ الإنسانية بهذه الحروب العالمية ، الحروب مع إمبراطورية بيزنطة ، التى انتهت بسقوط القسطنطينية فى يد المسلمين ، وبحروب أمراء الغرب ضد دولة المسلمين فى الأندلس ، التى انتهت بانتصار شارل مارتل ، فى بواتييه . على أن الحرب الصليبية ، التى استمرت قرنين أفادت المعسكرين ، فقد وحدت المسلمين ، وأدت إلى دنو القبائل التركية من أواسط آسيا إلى الشرق الإسلامى ، كما أتاحت للمسيحيين أن يدركوا مدى تخلفهم عن أهل الشرق ، فكانت بداية عصر النهضة عندهم ، إذ نقلوا عن المسلمين ما نقلوا .

وكان آخر مراحل حياة الإسلام العالمية ، نشوء الدولة العثمانية ، التى بدأت حياتها بدخول « عثمان باديشاه » مدينة بورصة سنة ١٣١٧ ، فقد حاول الاستعمار الغربى على مدى أربعة قرون أن يزيحها من الوجود ، فلما ضعفت ثم انهارت ، تدفق زحف الاستعمار الغربى ، على بلاد المشرق والمغرب العربى ، وبدأت الصهيونية العالمية تعربد ، وتوجه الاستعمار الغربى ، وتمتطى ظهره ، وتمده بالقوة ، وتأخذ منه العون ، حتى كانت كارثة الإنسانية الكبرى ، التى تسمى « إسرائيل » .

نجحت عوامل الضغط المختلفة ، العسكرية والسياسية والفكرية ، فى التضييق على الإسلام وخنق روحه العالمية ، فأخذ علماؤه ومفكروه ، وساسته وقادته ، يدخلون فى مواقع المحلية ويقنعون بفتات السياسة والفكر . وتمزقت هذه الوحدة التى كانت تظل علماء الإسلام ومشرعيه وفقهاءه وأدباءه ، والتى أعانتهم على أن يتصلوا على بعد الدار ، وشط المزار ، وعلى الرغم من وعثاء السفر ، وصعوبة الاتصال ، فقد كان العالم المسلم يخرج من أقصى العالم الإسلامى إلى أقصاه بلا حواجز ولا جوازات ، لا يستوقفه أحد ، ولا يسأل إلى أين يذهب .

ولقد حدث أن اشتدت الحملة على « الدين » كفكرة ، حتى

أصبح متهماً ، يطلب منه أن يدفع عن نفسه ، ثم ما لبث أن استعاد اعتباره ، حتى عند ألد خصومه ، فقد أدرك الذين يتعقبونه بالاتهام ، ويطاردونه بالتشهير ، أنه كان ولا يزال قوة تحرر ونضال ضد كل ما رسفت فيه الإنسانية من أغلال الاستبداد والاستئثار بالسلطة ، واستغلال الضعفاء ، وأن أكبر عيوبه فى الرجال الذين ينتسبون إليه زوراً ، ويتجرون باسمه باطلا ، وأن الجرائم التى ارتكبت باسمه ليست فى مثل قبح ما ارتكب باسم العلم والفلسفة والفن . فعلى أقل القليل لم يصنع الدين القنبلة الذرية ، ولا الهيدروجينية ولا الصواريخ الحاملة للرءوس النووية ، كما لم يصنع الأدوات والأجهزة التى هتكت أسرار الناس ، واقتحمت عليهم عزلتهم ، وارتفعت بالجاسوسية العالمية والعلمية إلى مرتبة القانون المقدس ، الذى لا يخجل من تطبيقه أحد .

ومن ناحية أخرى لم يستطع رجال الدين مهما ساء مسلكهم ، وخدموا القوة الظالمة ، أن ينافسوا العلماء الذين سلحوا الطغاة ، وجمعوا لهم المال ، ولا الأدباء والقراء والمصورين الذين باعوا أقلامهم وفنهم ، فى سوق النفاق السياسى ، بضاعة مزجاة .

ولما كانت الأزمة الإنسانية قد بلغت ذروتها ، ولم يعد أحد قادراً على إنكار تعثر الإنسان ، وامتلاء طريقه بالصعاب ، وامتلاء حياته بالآلام ، وقصور أجهزة التدقيق والتنسيق التى أعدت للأخذ بيده ، وانتشاله من وهدته ، فإن كل قوة مدعوة للإسهام فى الدفاع عن مستقبل الإنسان ، وتحريره من القيود التى لا يتحطم منها واحد ، حتى تنبت بدله عشرات ، وإطلاق طاقاته ، وصيانة خير تركاته ومأثوراته ، والتقريب بين شعوبه وجماعاته .

ولا جدال فى أن الدين النقى الخالص ، هو فى مقدمة هذه القوى التى توجه إليها الدعوة ، ولا جدال فى أن الإسلام العالمى ، أول ما تتجه إليه قلوب المؤمنين فى سلام إنسانى طويل العمر ، عادل ، مستقر ،

فإن يده لم تلوث بما لوثت به أيدى الآخرين من دماء الشعوب التى استعمرت ، ولا الشعوب القوية التى دمرت مدنها ، وخربت بيوتها ، وقتل رجالها ويتم أطفالها وترمل نساؤها .

ولكى يؤدى الإسلام دوره العالمى يجب :

أولا : أن يؤمن المسلمون بدورهم الإنسانى والعالمى ، وأن الأزمة الإنسانية الكبرى التى تمر بها فى حاجة إلى روح الإسلام العالمية ، وفكره الإنسانى ، وتقاليده وأساليبه فى التقريب ، وقدرته على التنسيق .

ثانياً : أن يزدادوا علماً بثقافتهم وعلومهم ، وأن ينفضوا عنها الغبار ، ويقربوها للأطفال والشبان ، وينشروها فى ملخصات ويعلقوا على المطولات ، ويشرحوها ، ويفهرسوها ، ويبوبوها ، ويقارنوا بينها وبين ما وصل إليه العلم الحديث .

ثالثاً : أن يعيدوا النظر فى برامج التطوير التى أدخلت على الجامعات الإسلامية ، على أن يكون أساس هذا التطوير ، طالب الجامعة الإسلامية ، الذى حصل العلم الإسلامى من تفسير وحديث وفقه ولغة منذ مطلع حياته الدراسية ، مقرونة بالعلوم الحديثة من رياضة وعلوم وآداب ، فإذا دخل هذا الطالب الجامعة الإسلامية الكبرى ، والتحق بكلياتها التى تلقن العلم الحديث من طب وقانون وهندسة وصيدلة ، تخرج فيها طبيباً أو مهندساً متميزاً عن زملائه الذين أتموا علمهم فى الكليات العلمانية البحتة وأفادت منه الإنسانية بوصفه عنصراً جديداً .

رابعاً : يجب بذل جهد خاص ودءوب ومثابرة لجعل اللغة العربية اللغة الثانية فى جميع بلاد المسلمين التى لا تتكلم العربية .

خامساً : إعداد ما يلزم للشعوب الإفريقية والآسيوية من معلمين وكتب فى مادتى الدين واللغة ، سهلة ، مبسطة ، جميلة الطبع ، حسنة التنسيق .

سادساً : يجب إعادة النظر فى مادة ومنهج التربية الدينية فى مدارس الدول الإسلامية ، وجعلها أرحب أفقاً ، وأيسر تناولا ، وأكثر اتصالا بشئون الدنيا .

سابعاً : يجب أن يصل علماء المسلمين أمتهم بمشكلات الدول الإسلامية ومشكلات العالم بأسره السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وأن يكون لهم رأى فيها .

ولعل هذا بعض ما يجب على الإسلام بحكم كونه عقيدة عالمية .

الدين والدولة
والدنيا والآخرة فى الإسلام

يقول بعضنا – فى سبيل بيان فضائل الإسلام – إنه دين ودنيا ، أو دين ودولة ، ولكن هذا القول تعوزه الدقة ، وينأى عن الحق . فليس فى الإسلام عنصران يتناظران ، أحدهما الدين ، وثانيهما الدنيا ، أو أحدهما الدنيا والثانى الآخرة ، فالعلاقة بين الدين والدنيا ، كما قلت من قبل ، فى الإسلام من ألطف العلاقات ، وأخفاها على غير المؤمنين بالسلام ، المدركين بجوهر أحكامه . فالإسلام محيط شامل ، يضم الدنيا والآخرة ، ويتحدث عن كليهما ، ويبين كيف يفضى أحدهما إلى الآخر ، وكيف يتصلان ، حتى لتكاد تعجز عن تبين الحد الفاصل بينهما ، وحتى لتكاد تقول إنهما شىء واحد ، مع أن الدنيا فى حكم الدين عاجلة فانية ، والآخرة هى دار القرار . وإنى لأدعوك أن تتأمل – بداءة ذى بدء – فى جملة من الأحاديث ، أضعها تحت نظرك ، قبل أن نسترسل فى الكلام :

روى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « دينار أنفقته فى سبيل الله ، ودينار أنفقته فى رقبة ، ودينار تصدقت به على مسكين ، ودينار أنفقته على أهلك أعظمها أجراً الذى أنفقته على أهلك » .

وروى عن ثوبان قال : قال رسول الله : « أفضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله ، ودينار ينفقه الرجل على دابته فى سبيل الله عز وجل ، ودينار ينفقه على أصحابه فى سبيل الله » . وقال أبو قلابة ، وهو أحد رواة هذا الحديث « وبدأ بالعيال ، وأى رجل أعظم أجراً من رجل ينفق على عيال صغار ينفعهم أو ينفعهم الله به ويغنيهم ؟ » .

قال رسول الله : « فى وضع أحدكم (أى فى مائه) صدقة » . فقال أصحاب رسول الله : أيأتى أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ فقال رسول الله : « أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر ؟ » قالوا :

نعم . قال : « كذلك إذا وضعها فى الحلال كان له أجر » وقال رسول الله : لمداد تريقه أقلام العلماء خير من دماء الشهداء » .

وقال رسول الله أيضاً : « إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها الصوم ولا الصلاة» قيل فما يكفرها يارسول الله ؟قال : «الهموم فى طلب العيش» .

وقال عليه الصلاة والسلام : « عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة » ، و « علم ساعة خير من عبادة عشر سنين » .

فما الذى يستقر فى يقينك ، وأنت تطالع هذه الأحاديث البينة الناطقة الدلالة ، الواحدة بعد الآخر ؟ ألا ترى معها ، أن الدنيا عند المسلمين ليست قليلة القدر ، ولا هى بالمصاب الذى لا حيلة فى علاجه ، إلا بمحاولة نسيانه ، فالمسلمون مدعوون أن يحبوا حياتهم فى أشد حالات التيقظ والإقبال ، ودنيا المسلمين هى دنيا الأصحاء العقلاء الأقوياء المشغولين بهموم العيش ، وهى دنيا الأناقة والنظافة والرقة واللطف ، يكره فيها الصوت القبيح ، والرائحة الكريهة ، والجلسة المعوجة ، والحركة الجافة ، والصيحة المزعجة .

وأهم من هذا كله ، أن دنيا المسلمين ، ليست خارج الدين ، ولا تقع بعيداً عن أحكامه ، ولا هى كيان قائم بذاته ، فهى محكومة به خاضعة له ، تتحرك على قواعده ، وتسير فى نطاقه . والدين لا يدع منها صغيرة ولا كبيرة إلا ويصدر حكمها ، ويرسم مسارها ، ويبين غايتها ، وها قد رأيت أن رسول الله ، عليه الصلاة والسلام ، قد بين لنا أن العبادة فى الإسلام ، ليست وحدها الصلاة والصوم ، وأن الهموم فى طلب العيش تكفر من الذنوب ما لا يكفره الصيام ولا القيام ، وأن ثواب المرء يأتيه حتى فى أخص علاقاته ، وأبعدها عن تصور اتصالها بالثواب والأجر ، فكما « يثاب المرء على اللقمة إذا رفعها إلى فى امرأته » كذلك يثاب الرجل إذ يفضى إلى زوجته ، ففى دنيا المسلمين ، يؤجر الإنسان على كل جهد وعمل وسعى وحركة .

ولكن كيف نوفق بين هذه العناية البالغة بالحياة الدنيا . وبرفع ثواب العمل فيها ، وتحصيل الرزق ، وطلب العلم ، والإنفاق على الأهل ، على ثواب الجهاد فى سبيل الله ، بمعناه الخاص ؟ كيف نوفق بين هذه العناية الفائقة ، وبين آيات فى كتاب الله كثيرة مثل قوله تعالى : (تريدون الحياة الدنيا والله يريد الآخرة) ، (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو) ، (أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟).

والتوفيق بين هذه الأحكام التى تبدو متناقضة ، وهى متكاملة ، هو هذا النسج البديع الذى تفرد به الإسلام بين المذاهب والمبادئ ، فكل خطوة فى الحياه الدنيا مباركة ونافعة ، إذا اتصلت بالمثل الأعلى ، الذى يسميه الإسلام « الآخرة » فالحياة الدنيا إذا انفصلت عن هذا المثل ، وأصبحت غاية عند الناس ، أصبحت ملعونة : واستحق محبوها الشقاء والعذاب ، ولذلك تتداخل الدنيا والآخرة تداخلا يجعلهما كلا لا ينفصل ، فكل عمل فى أولاهما ، له أثر فى أخراهما ، فالعمل الدنيوى لا يحكم عليه فى ذاته ، وإنما يحكم عليه بغاياته وأهدافه ، فقد يكون نافعاً وضاراً ومأجوراً أو منكراً فى آن واحد : مثال ذلك أن رجلا مر على النبى ، فرأى أصحاب الرسول من جلده ونشاطه فى الكسب والارتزاق ما جعلهم يتحدثون فيـ . قالوا : يا رسول الله لو كان هذا فى سبيل الله فقال : « إن كان خرج يسعي على ولده صغاراً ، فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين ، فهو فى سبيل الله ، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو فى سبيل الله وإن كان يسعى رياء ومفاخرة فهو فى سبيل الشيطان » .

فالدنيا هى الطريق المفضية إلى الآخرة ، والناس جميعاً ، ــ يصلون إلى هذه الآخرة إلا عن طريق الدنيا ، وهذه الطريق ــ وإن كانت ممراً ومعبراً تكسب لاتصالها بالآخرة من الفضل والقيمة ما يجعل فرضاً على السائرين فيها أن يجعلوها طريقاً نظيفة أنيقة فسيحة ، تحفها الأزهار والرياحين إلى عالم يسوده السلام الشامل ، يعيش فيه الناس

إخوانـًا متحابين ، (فى جنة عالية لا تسمع فيها لاغية ، فيها عين جارية ، فيها سرر مرفوعة) ، (لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما ، إلا قيلا سلامـًا سلامـًا) .

أما من يفضل الدنيا على الآخرة ، أى من فضل العمل ، أيـًا ما كان صغيراً أو كبيراً ، نافعـًا أو ضارًا فقد استحالت دنياه إلى شىء لعين ، واستحال هو وأمثاله إلى مجرمين يحبون العاجلة ، ويذرون الآجلة ، وهؤلاء يقال لهم إن ما عندكم ينفد وما عند الله باق ، أى أن (حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) .

ولما كانت الدولة فرعـًا من الدنيا ، فهى تأخذ حكمها ، فليس فى الإسلام دين قائم بذاته ودولة تقوم إلى جواره ، فيتساويان أو يتناظران ، فالدولة فى الإسلام هى فرع من دنيا المسلمين ، وهى كدنيا المسلمين خاضعة للدين ، ومنبثقة منه ، وهى ليست كدولة غيرهم ، فهى للدين تقوم ، وبالدين تحيا ، وله تسعى ، وفى سبيله تفنى ، وليس لها من أغراض الدول الأخرى وأطماعها شىء ، وهى لا تقوم إلا حين يؤمن المسلمين ويكتمل إيمانهم ، ثم يجتمعون فى صعيد واحد ، وتظلهم راية واحدة ، وبالجملة هى دولة الإسلام ، غاياتها غاياته ، أو غايات الحياة كما يريدها الإسلام على الوجه الذى بيناه .

فدولة المسلمين أدنى مقامـًا من عقيدتهم ، لأنها لا تعدو أن تكون وسيلة من وسائل هذه العقيدة ، وقد حققت هذه العقيدة ، بحيويتها الرائعة ، وجاذبيتها الآسرة ، ما لم تحققه أكثر دول المسلمين منذ خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، فقد انتشر الإسلام فى شرق إفريقيا وغربها واتسعت رقعته فى آسيا من أقصاها إلى أقصاها ، على يد رجال تجردوا من كل نفوذ ، انتشروا فى الأرض يبتغون فضل الله ، فأدخلوا فى الإسلام أممـًا وشعوبـًا ، يتزايد عددها ، ورقعتها ، على عدد ورقعة ما فتحته دول الإسلام جميعـًا على تعاقب العصور .

هذه دنيا المسلمين ، ودينهم ، ودولتهم .

أزمة بلا مأزومين

من بين التعبيرات الموفقة فى اللغة الإنجليزية : عبارة « تفكير التمنى » أو « تفكير الأمانى » ، فكثيراً ما يفكر الناس فى أمور لا وجود لها ، ولكنهم من فرط تعلقهم بها ، يحسبونها أمراً واقعاً ، ويرتبون على وجود هذا « الموهوم » نتائج تتسلسل وتطول .

ومن أوضح الأمثلة على ما يخلقه التمنى هو ما تواضعنا على تسميته « بالفكر الإسلامى الحديث » ، فقد طال انتظارنا لهذا الفكر الإسلامى، واشتدت رغبتنا فى أن يخرج إلى الوجود ، وأن يسهم بالعناء والنقد ، والاقتراح والإلهام ، والتوجيه والإرشاد ، والمقاومة والمعارضة ، فى تكييف حياتنا وحل مشكلاتنا .

ولكن الأمة الإسلامية فى عصرها الأخير — وإن كانت قد حملت هذا الفكر ، ودفعت ما تدفعه من ضرائب الحمل ، من قلق وضيق ، ومن غثيان ودوار ، ومن ضعف ووهن — لم تضع بعد حملها ، حتى ظن بعض الأطباء ، أنه حمل كاذب . .

ولكننا رفضنا أن نسلم بهذه الحقيقة المرة ، وأبينا إلا أن نتعامل مع الفكر الإسلامى باعتباره واقعاً يلمس ويرى ، ويتحرك بيننا ويعمل بالأحياء ، ولكى نؤكد لأنفسنا حقيقة وجوده تصورنا له من أدوار الأحياء وأدوائهم ، كل شيء . فأعلنا — فيما أعلنا — أن « الفكر الإسلامى فى أزمة » .

ولا بأس من هذا كله ، فإن هذه أعراض التطور المأمول ، ولابد أن يسبق الحلم الواقع ، وأن يمهد الوهم للحقيقة ، ولابد من شيء من الخيال ، لنخلق حياة جديدة ، ولنغير واقعاً كريهاً .

والحق أن المسلمين ، ونعني مفكريهم وعلماءهم ، وأدباءهم

وشعراءهم ، قدموا للفكر الإسلامى الحديث هذا الوليد المرتقب ، فى القرن الأخير ، ما كان جديراً بأن يبعث هذا الفكر ، صبيباً فتياً ، مليئاً بالحيوية ، راغباً فى المناجزة والقتال ، بارعاً فى الكر والفر ، قوى الساعد ، مسدد الإصابة . ففيم تأخر ميلاده ولمَ طالت فترة الوضع ؟

يقول الشيخ عبد الوهاب خلاف فى بيان أسباب جمود المسلمين ، وتحجر فكرهم :

جمد التشريع الإسلامى ، ووقف عن مماشاة الزمن عن التطور بتطور المسلمين ، وزاد هذا الجمود تحجراً أن علماء المسلمين رسموا الإجماع بصورة لا سبيل إلى أن تتحقق فى الوجود ، وسموه بأنه اتفاق جميع المجتهدين فى الأمة الإسلامية بعد عهد الرسول على حكم شرعى . وقرروا أن الإجماع لا يتحقق إلا إذا عرف جميع المجتهدين من المسلمين فى العالم الإسلامى ، وأحصوا ، وأبدى كل منهم رأيه صراحة فى الواقعة المفروضة ، وعلم رأى كل واحد منهم ، وعلم أن كل واحد منهم أصر على رأيه إلى أن يتم إبداء كل واحد رأيه ، وكأنهم أرادوا إجماعاً عالمياً قاطعاً فى الحكم الذى ينعقد ، لا ما أراده الرسول حين قال لعلى : «أجمعوا له العالمين من المؤمنين واجعلوه شورى بينكم ولا تقضوا فيه برأى واحد ، فهو إنما أراد أن يكون الرأى للجماعة لا للفرد » .

والمعلوم أن مصادر الأحكام فى الإسلام هى القرآن وسنة الرسول عليه السلام ثم الإجماع . وقد عرفت ما يفهمه من الإجماع فقهاء المسلمين فى أيامهم الأخيرة .

وما يقوله الشيخ عبد الوهاب خلاف ، عليه رحمة الله، ليس المرض وإنما هو العرض كما سبق القول . فلماذا تشدد فقهاء المسلمين وعلماؤهم هذا التشدد الذى يبدو معجزاً، فى حين بدأت حياة المسلمين الفكرية باجتهاد الرسول عليه الصلاة والسلام ، واجتهاد صحابة الرسول وهو بين ظهرانيهم ، واجتهاد الصحابة والخلفاء بعد حياة رسول الله ؟ لماذا

قال الرسول صلى الله عليه وسلم : لا تقطع الأيدى فى السفر ؟ أى لا تقطع يد السارق إذا كان المسلمون فى حرب ؟ لماذا عطل عمر رضى الله عنه حق المؤلفة قلوبهم ، وهو حق منصوص عليه فى القرآن ، وكان الرسول يؤديه لهم ، وجرى على نفس النهج أبو بكر رضى الله عنه ؟ لماذا نهى عمر عن زواج أمراء المسلمين من الكتابيات وهو جائز بنص لا خلاف عليه ؟

كل ذلك لأن الحياة تسبق التفكير وتأده ، فإذا خرج للوجود ، ورأى نور الدنيا ، وسع آفاق الحياة وأغناها . وأمدها كل يوم بجديد، ثم راح الاثنان : الحياة والتفكير ، يتفاعلان ويتبادلان الخبرات .
لكن لابد أولا من إرادة الحياة . ولو نظرنا فى تاريخ المسلمين لوجدنا أنه بدأ بدعوة بسيطة هى أن خالق هذا الكون كله واحد ، وأنه ليس كمثله شيء ، وأن جميع الأوثان والأصنام والأرباب والأحبار وأدعياء الولاية والكهان ، ومن يجرى فى فلك الملوك والسلاطين والشيوخ والرؤساء، مخلوقات هذا الخالق الأسمى . ولما رضى المسلمون بهذه العقيدة وحدتهم ، وجعلت من العرب أمة ، وعندها تلفتوا حولهم فى هذا الكون البديع ، وقد تفجر فهمهم لعلم أحكامه وقوانينه وكشف خفاياه وخباياه ، وتذوق ما فيه من جمال ، وأدركوا ما يتخلله من دقة ورقة ، فإذا هم علماء مبدعون ، ومشرعون مقننون ، وقادة جيوش ، ومؤسسو دول ، ثم شعراء وأدباء ، وصانعو أساطير ، وفنانون وصناع .

فقهاء المسلمين كانوا يجتهدون ، وكانوا يشعرون أن هذه الحياة حياتهم ، وأن هذه الدنيا دارهم ، وأن هذا الكون الفسيح يدعوهم إلى التأمل والدرس ، والابتكار والخلق ، وأنه ليس هناك ربع خال لا تدوسه الأقدام ، ولا حرم منيع لا تتخطى إليه الأفكار . قالوا كل شيء : توهموا وشكوا ، وتحققوا وآمنوا ، وراجعوا القديم وعلقوا عليه ، وأضافوا إليه ، واختلفوا حوله ، فاستحرت الخلافات ، وتعددت المذاهب

والمدارس . ولكن لما أدال الزمان على المسلمين ، وسلبهم استقلالهم ، وجعل بلادهم حمى مستباحاً لكل أجنبي ، ولكل عقيدة وثقافة وحضارة ولغة ، انكمشت نفوسهم ، وضؤلت عزائمهم ، وخافوا من كل شيء حتى من دينهم ، وأمهات الكتب التي وضعها فقهاؤهم وعلماؤهم . فانقطعت الصلة بينهم وبين أصل ثقافتهم ، وأصبحوا مستهلكين لا ينتجون شيئاً ويستوردون كل شيء : الملابس والمآكل ، والكتب والأفكار ، والأنظمة والمبادئ ، وتسولوا فأصبح دينهم ملكياً وجمهورياً وفاشيستياً وديموقراطياً واشتراكياً ، ورجعياً ، فإذا صعد الناس إلى القمر ، قالوا في القرآن تنبؤ بذلك ، وإن حطمت الذرة ، قالوا إن في القرآن بياناً لهذا التحطيم .

ولو لم تغادر إرادة الحياة المسلمين ، وتتخلى عنهم ، لما وضعوا هذه الشروط المعجزة لمصدر من مصادر أحكام دينهم ، يضمن له متابعة الحياة ، وملاحقة تطوراتها ، ويقول الأستاذ أبو زهرة في هذا المعنى : « وقد يخلو بعض الأقاليم أو بعض العصور من المجتهدين ، وليس ذلك لأن الاجتهاد محرم وبابه مقفل ، بل لأن المدارك لم تتجه والهمم تقاصرت ، وإن كان السبب ميسراً والباب مفتوحاً » .

بل لو أن هذه الإرادة تعيش شاكية سلاحها ، لاجتمع مجتهدو المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها بأيسر الجهد ، فما أكثر ما يجتمع علماء الطب أو العلوم الطبيعية أو الاجتماعية في مؤتمرات دولية ، ومؤتمر لمجتهدي المسلمين لا يمكن أن يكون أبعد منالا من مؤتمر يضم المشتغلين بأي علم من علوم الإنسان وبخاصة أن دافع علماء المسلمين سيكون دنيوياً ودينياً ، في حين لا يكون لعلماء الفلك أو الهندسة إلا دافع دنيوي بحت . وللمسلمين مؤتمر سنوي يمكن أن يغني عن سواه من المؤتمرات ، هو مؤتمر الحج .

ومع ذلك فإن في هذا الإجماع آراء لبعض الأئمة والفقهاء ، من

ذلك ما نقل عن ابن حنبل فى قول . وعن الشافعى فى قول آخر : « من ادعى بالإجماع فهو كاذب » فى حين يقول الشيخ شلتوت : « ولا أكاد أعرف شيئاً اشتهر بين الناس أنه أصل من أصول التشريع فى الإسلام ثم تناولته الآراء واختلفت فيه المذاهب من جميع جهاته كهذا الأصل الذى يسمونه الإجماع » فاحتشاد الصعاب فى طريق اجماع الأئمة ليس مرده إلى الدين ، ولا إلى شىء فى قواعد الإجماع . وإنما هو ما أصاب المسلمين أنفسهم . فنحى الإسلام عن حياتهم ، ونحاهم عن الحياة. ولذلك يصعب القول — أو يستحيل — إن التفكير الإسلامى فى أزمة . فإننا مهما تمنينا أن تقع هذه الأزمة . وتستفحل . باعتبارها علامة حياة ، فإنها لن تقع حتى يخوض المفكرون الإسلاميون مشكلات الحياة الحاضرة . يفكرون فيها ، ويفكرون لها ، ويقترحون مستوحين دينهم وتراثهم ، ولا يقتصر دورهم على عرض التراث الإسلامى وتنقيحه ، على الرغم من أن هذا الدور عظيم ولا مناص منه . ولكن حينما نفرغ منه ينبغى أن يقدم الإسلاميون للناس نظاماً يعيشون فى ظله . يعطيهم مالا تعطيهم أنظمة غيرنا ، وعندها ستنفرج الأزمات ، وبانفراجها ندل على أن تفكيرنا كائن حى ، يكسب من كل ما يعرض له من شر وخير .

المعارضة

لما اقتحم ثوار فرنسا سجن الباستيل فى ١٤ يولية سنة ١٧٨٩ حطموا أبواب الزنازين بالبلط والفؤوس ودعوا المساجين والمعتقلين الذين طال عليهم الأمد فى غيابات السجن أن ينطلقوا إلى الحرية ، ولكن كم كانت دهشة الثوار إذ رأوا بعضهم يقاوم ويتشبث بالبقاء فى السجن . وقد بدا عليهم فزع هائل ؛ ولا غرابة فى مسلك هؤلاء التعساء فهم لطول مكثهم بعيداً عن الحياة الحرة ألفوا القيد وخافوا جلبة الدنيا . فالحرية — على تمكن غريزتها — نبات حساس سريع العطب ما لم نتعهده بالرّى والرعاية ؛ ومن أجل هذا جاء القرآن الكريم بنصوص إن تأملها المسلمون وتدبروها فإنها تقيهم العبودية . ففى القرآن أربع طوائف من الآيات لكل منها رسالة فى إبقاء جذوة الحرية متقدة فى النفوس .

فالطائفة الأولى : أثبتت كل ما وجهه خصوم الإسلام إليه من قذائف الإهانة .

والطائفة الثانية : سجلت كل حجج خصوم الإسلام فى جدالهم إبان نزول القرآن .

والطائفة الثالثة : بينت كل ما كان من الرسول من أمور عاتبه الله تعالى عليها ورده فيها إلى الصواب .

أما الطائفة الرابعة والأخيرة : فقد أعطت طرفاً مما توجه به المسلمون إلى الرسول من الأسئلة ، وجدالهم أحياناً معه عليه الصلاة والسلام .

عن آيات الطائفة الأولى ما قاله الكافرون عن القرآن : (إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون) ، ومنه ما يريدون به غمز أمانة الرسول (ومنهم من يلمزك فى الصدقات) ، ومنها اتهامه عليه الصلاة

والسلام بالجنون : (يأيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون) . . أو بأنه شاعر ومجنون (إنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون) ، أو بأنه ساحر كذاب : (وقال الكافرون هذا ساحر كذاب) .

ويخاطب القرآن الكريم بهذه الآيات كل من يتولى أمراً من أمور المسلمين بقوله إنكم لستم كرسول الله ؛ ولا أبعد منه عن المعصية ، ولا أكرم على الله منه ؛ ولكن هأنتم أولاء ترون كيف سبه الجهال وتطاولوا عليه ، فلم يجرح ذلك صدره ، ولم يثنه عن الجهاد ؛ فلا تضيقوا بدوركم بتجنى المتجنين ؛ ولا عيب العائبين فهذه ضريبة القيادة والأمانة .

أما الطائفة الثانية فقد سجلت كل حجج الخصوم بنصها ، وسجلت الرد عليها ، فقد جاء فى القرآن مثلا : (لسان الذى يلحدون إليه أعجمى ، وهذا لسان عربى مبين) ، مسجلا ما قاله خصوم الرسول من أن القرآن كان من إملاء راهب مسيحى ؛ ولم يخش القرآن على عقول المسلمين من سماع هذه التهمة ، وتناقلها جيلا بعد جيل ، وقال المشركون ساخرين بلسان أحدهم : (من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) .

وقال المشركون إذا كنت رسولا حقًّا فأتنا بمعجزة كمعجزات موسى وعيسى ، فرد عليهم القرآن : (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) .

ولذا فرسول الله يحاج مشركى العرب وزعماء الكفار من قريش بالحجة والقرآن ، مطمئنًّا إلى نصر الله .

والقرآن الكريم يخاطب المسلمين على مر الدهور ، بهذه الآيات ، بأن العقيدة السليمة لاخوف عليها من حجج الخصوم وجدالهم ، بل إن إثبات هذه الحجج وبيانها والرد عليها يكسب العقيدة قوة ويربك خصومها .

أما الطائفة الثالثة فهى التى عاتب فيها الله سبحانه وتعالى عبده محمداً خاتم الرسل . على أمر من الأمور ، ومن هذه الآيات : (عفا الله عنك لم أذنت لهم) ، (عبس وتولى أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى) (يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك ، وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) .

وبهذه الطائفة من الآيات يخاطب القرآن المسلمين بأنه لا عليكم من الخطأ ، فالرسول نفسه قد خوطب على الوجه الذى رأيتم فى هذه الآيات . فاعملوا واجتهدوا ، فإن أصبتم فلكم أجران ، وإن أخطأتم فلكم أجر . لا تظنوا أنكم لا تخطئون .

أما الطائفة الأخيرة فتطلعنا على بعض ما توجه به المسلمون من أسئلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وفى القرآن نحو خمسة عشر موضعاً أو يزيد ، بها آيات تبدأ بلفظ (يسألونك) ، ذلك لأن المسلمين درجوا على أن يسألوا الرسول فى كل ما يعن لهم من أمور . لا يبين لهم فيها وجه الحق . وكان القرآن يقول لنا إنكم إذا كنتم مطالبين بأن تطيلوا صبركم على الخصوم ، فما أحراكم أن توسعوا صدوركم للأصدقاء : يسألونكم ويجادلونكم كما جادل الرسول أصحابه .

وقد اجتمع للإسلام هذا كله ، بفضل الظروف التى نشأ فيها ، فقد عانى المسلمون الأوائل الأمرين ، عانوا الاضطهاد والمعارضة اللجوجة الشرسة .

ولكن الإسلام لم يعرف — فى أى دور من أدوار حياته — المعارضة المتحزبة كجزء من نظامه ، كالتى يحسب أنها النظام الأمثل فى حين أن العمل يؤكد أنها على أحسن الأحوال شر لا بد منه ، فقد سجل التاريخ الحديث ، أن العالم ألقى به فى أتون المجزرة البشرية على يدى هذه المعارضة التى عميت عن المصلحة الكبرى ، من أجل المصلحة الذاتية .

ولعل الفوضى التى يعانى منها العالم فى السياسة والمال والفقر ، والتى يدل عليها تعثر العدل الدولى وعجزه ، وتأييد المشكلات الدولية وتفاقمها ، والبلايين المبددة فى التسليح من جانب والمخدرات من جانب آخر . والمخاوف التى تجتاح الجماعات والأفراد — لعل هذا كله يقطع بأن النظام السياسى فى العالم أخفق إخفاقا يجعل من حق الإسلام علينا ، أن نتأمل تجربته فى الحكم والمعارضة ، التى تلقى بعض المسئولية على أفراد المجتمع أجمعين : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » . بعد أن ترهف الضمير العام والضمير الشخصى على السواء . وتزيل الحواجز بين الحاكم والمحكوم ، وتفرض على الموظف العام حياة بسيطة . وتجعله فى متناول السرية يسألونه وينصحونه ، ويلتمسون عنده الإرشاد والنصح أيضا ، وتجعل دور العبادة ندوات مفتوحة على الدوام ، لمناقشة الشئون العامة تنقش على بابها « من رأى منكم منكراً فليغيره »

العلمانية

يروى تشرشل فى مذكراته ، أنه اجتمع مع روزفلت رئيس الولايات المتحدة ولتفينوف ، سفير الاتحاد السوفيتى فى واشنطن ليضعوا إعلان الأمم المتحدة الذى نشر فى أول يناير سنة ١٩٤٢ ، فاعترض السفير السوفيتى على عبارة « الحرية الدينية » التى وردت فى المشروع ، فانبرى له روزفلت وألقى محاضرة طويلة : عن الموت والنشور ، والبعث والحساب ، والجنة والنار ، فأغرقه فى بحر طام من العلم اللاهوتى ، فلم ير السفير بداً من أن يسحب معارضته نجاة بنفسه من موجة أخرى من التلقين الدينى .

ويقول تشرشل إنه مازح روزفلت قائلا له : لقد كنت مشفقاً عليك من نتائج انتخابات الدورة الثانية لرياستك ، أما الآن فلا خوف عليك ، إذ لو لم يعد الأمريكيون انتخابك ، فسيكون البريطانيون سعداء إذا قبلت أن تعين كبيراً للأساقفة فى بلادهم ، فبلاغتك فى الوعظ ، وعلمك بالدين يؤهلانك لذلك .

وهذه القصة الصغيرة على طرافتها ، تتضمن من المعانى ما يحسن سوقه للذين يؤمنون « بعلمانية الدولة » . فماذا تكون هذه العلمانية أولا ؟

والعلمانية اصطلاح حديث يقصد به ما ليس دينياً أو كهنوتياً ، ولعله مشتق من لفظ « العالم » ، وترجع أصول العلمانية إلى ردود الفعل لثورة مارتن لوثر فى سنة ١٥٢٠ على البابا وانتقاده العنيف إياه لبيع صكوك الغفران للعصاة والخاطئين من المسيحيين مقابل مال كثير يدفع للبابا ، فيضمن لهم دخول الجنة ، ولسخط لوثر على عبادة القديسين ودعوته إلى العمل بالكتاب المقدس وحده ، ولم تلق هذه الدعوة أول

الأمر استجابة ذات شأن ؛ ولكن لما أخذ أتباع لوثر يكثرون سلطت عليهم الكنيسة والأمراء الذين انحازوا لها مايصفه جوستاف لوبون بقوله : أبيد الشيوخ والنساء والأطفال ، وصار رئيس برلمان « إكس » البارون « دويبن » مثالا يحتذى لقتله فى عشرة أيام ثلاثة آلاف شخص وتدمير ثلاث مدن ، واثنتين وعشرين قرية . بعد هذه المجازر انتهى الرأى السياسى إلى تجريد الدولة من كل نشاط دينى ، وإبعاد الخدمات الدينية عن نطاق إشرافها وتوجيهها ،وعدم تحميل ميزانية الدولة شيئاً من نفقات الكنائس والأديرة ، وتحريم التعليم الدينى فى المدارس والمعاهد الحكومية .

فهل كفّت الدول — لاسيما فى غرب أوربا — حقّاً عن النشاط الدينى ، وغسلت يديها منه . يهمنا فى الإجابة عن هذا السؤال الجانب الخارجى من نشاط الدول « العلمانية » فالثابت من تاريخ الاستعمار الأوربى الغربى فى آسيا وإفريقيا أن هذه الدول اتخذت من الدين وسيلة لتسويغ استعمارها ولنهب أرزاق أهل المستعمرات ، وحرمانهم من ثقافتهم الوطنية ، ومن نفض نير الاستعمار عن أعناقهم .

وإذا أردنا أن نضرب الأمثلة على زيف هذه « العلمانية » وكذبها ، تزاحمت بين أيدينا الأمثلة ، حتى لاندرى أيها نأخذ وأيها ندع ، ولكن أحسب أن ما جرى فى الجزائر — فضلا عن اتصاله بنا ، لوقوعها فى محيطنا العربى والإسلامى نموذج صارخ لعلمانية الغرب ، وسننقل المثل التالى من كتاب الكاتبين الفرنسيين كوليت وفرانسيس جانسون المعنون : « الجزائر خارج القانون » قالا :

« لعل العبث بالدين الإسلامى كان هو المجال المفضل لدى القائد « روفيجو » ليعيث فيه فساداً واستهتاراً ، فقد وقف هذا القائد الفاجر ونادى بين قومه بأنه يلزمه أجمل مسجد فى مدينة الجزائر ليجعل منه معبداً لإله المسيحيين ، وطلب من أعوانه إعداد ذلك فى أقرب وقت ممكن ، وأشار لهم إلى جامع القشاوة لأنه كما قال أجمل جوامع

الجزائر طرازاً ، وحدد يوم ١٨ من ديسمبر سنة ١٨٣٢ لإنجاز هذا العمل ، وفى الموعد المحدد تقدمت بطاريات الجيش تزحف إلى المسجد ، فإذا بداخله أربعة آلاف مسلم اعتصموا به خلف المتاريس ، فاندفعت نحوهم القوة العسكرية ودحرتهم بالسناكى . . . » ، ثم وضع فى هذه الكاتدرائية منبراً كان يعرف فى الجزائر بأنه « منبر الرسول » وهو آية فى النقش العربى ، وعلى هذا المنبر وقف الحاكم « موجو » يقول : إن آخر أيام الإسلام قد دنت ، وفى خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح » .

وهو بطبيعة الحال غير المسيح الذى يؤمن به المسلمون ، كما أمرهم بذلك دينهم ، ولا هو المسيح الناصرى الذى قال للناس : أحبوا أعداءكم ، باركوا لأعينيكم .. إلخ » ، ونحمد الله إذ أعفى الجنرال ديجول ، بلاده فرنسا ، موطن الثورة ، والإنسانية من هذه الوصمة الكاذبة . فلنر ، فى الجانب الآخر ، كيف حقق الإسلام كل ما عقد على « العلمانية » من آمال لم تتحقق لا فى داخل الدول ولا خارجها .

أولا — ليس فى الإسلام هيئة ولا طبقة تحترف صناعة الدين ، أو تستأثر بشرح أحكامه ، فكل مسلم مدعو لقراءة الدين والتفقه فيه ، وله الحرية فى أن يفهم ما يشاء ما دام يفهم لنفسه ، وله أن يستعين بمن هم أرسخ منه قدماً فى اللغة ، وأقدر منه لثقافتهم وعلمهم ليأخذوا بيده ، فليست تلاوة القرآن حكراً لأحد ، ولا هى ممنوعة عن أحد ، بل إنها مستحبة كلما تيسرت للإنسان . والإنسان يصلى وحده بلا رقيب ولا موجه ، وإذا اجتمع المسلمون ، تقدم أحدهم فأمهم ما دام يعرف أصول الصلاة ، ولو كان أشعث أغبر لا يؤبه له .

وفى هذا المعنى يقول الشيخ شلتوت : قد اتصلت بالقرآن ، بعد أن التحق الرسول بربه ، أفهام العلماء والأئمة فيما لم يكن من آياته نص فى معنى واحد ، وكثرت الآراء والمذاهب فى النظريات والعمليات ،

لا على أنها دين يلزم وإنما هى آراء وأفهام » .

ثانيًا ــ عبادة المسلمين وصلاتهم جائزة فى كل شبر من كل أرض ، فالله تعالى قال : (فأينما تولوا فثم وجه الله) ، وقال الرسول عليه أفضل السلام « . . وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً » .

ثالثًا ــ ونبى المسلمين ورسول الله إليهم بشر مثلهم ، يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق ، وكان له كل نشاط الآدميين ، فتزوج وأنجب ، وصام وأفطر وحارب وسالم وعاهد ، وعرف اليتم والثكل ، ماتت له زوجات وبنات وبنون ، وأكد القرآن والحديث بشريته ، ووصفه القرآن بأنه عبد الله ، وقال عن نفسه « إنه عبد يأكل كما يأكل العبد ، ويجلس كما يجلس العبد » ففى القرآن : (سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولاً) ، وفيه (قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعًا إلا ما شاء الله) ، وفى الحديث : « لست ملكًا ولا جباراً ، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد فى مكة » .

والرسل جميعًا ــ عند الإسلام ــ ليسوا إلا مبلغين لرسالات الله ووظيفتهم الإرشاد والتعليم عن طريق الوحى ، وفى علماء المسلمين من يقول إن الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، يجوز عليه من الخطأ والصواب ــ عدا ما خصه الله به ــ ما يجوز على أى فرد من البشر .

رابعًا ــ الأصل فى الأشياء الإباحة ، ولا تحريم إلا بأمر الله ، فى نص من القرآن أو نص من الحديث قطعى الورود ، فالإباحة والتحريم من حقوق الله وحده ، ولا يشاركه فى ذلك شريك من رسول أو خليفة ، أو هيئة ، أو جماعة أو طبقة أو فئة . وبالتالى لا يوجد من يغفر الذنوب إلا الله ، وكل مسئول عن عمله لا تنفع أحداً عند الله قرابة حتى للرسول الكريم ، فقد قال عليه السلام : « يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا » وقال : « لو سرقت فاطمة بنته ــ رضى الله عنها ــ لقطعت يدها » .

وأخيراً يساوى الإسلام بين رسل الله جميعاً ، وأديانهم (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله) .

وقد أمر الإسلام المسلمين أن يعاشروا أهل الكتاب بالحسنى ، وأن يأكلوا طعامهم ، ويتزوجوا نساءهم ، كما أمرهم : (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن) .

وقد نشأ من كل ذلك جو من حرية الرأى والإخاء الإنسانى ، والتعاون الأخوى ، أتاح للمسلمين وإخوانهم من أهل الكتاب مسيحيين ويهود، أن يتعاونوا فى إنشاء حضارة إنسانية ، بقى التسامح وكراهية القسر والعنف ، طابعها المميز حتى فى أدوار انحلالها ، وقد روى مصطفى كامل فى كتابه الشهير « المسألة الشرقية » أنه لما فتحت القسطنطينية على يد محمد الفاتح السلطان التركى ، وانتخب المسيحيون الروم بطريركاً قال له السلطان محمد : « كن بطريركاً لليونان والله يحميك ، وفى كل الأحوال والظروف اعتمد على مساعدتى وتمتع بكل الامتيازات التى كانت لأسلافك من قبل » .

فهل علمانية كائنة ما كانت قادرة على أن تحقق هذا أو شيئاً قريباً منه ؟

الهيبيز ومستقبل الدين

قد لا يكون هذا العنوان ، على قدر كاف من الوقار الواجب توافره فى كتاب دينى ، ولكن من تقاليد ديننا أنه « لا حياء فى الدين » ، ومن آيات الله تعالى : (والله لا يستحى من الحق) .

والحق أن ظاهرة الهيبز ، وما يشبهها ويجرى مجراها ، من تمرد الشباب وخروجهم على المألوف ، واصطناعهم الأزياء الغريبة ، والسير حفاة ، والتلذذ بالقذارة ، وإن كان فى عنق أحدهم آلة تصوير بمئات الجنيات ، والتعرى بدنيـًا على قارعة الطريق ، مع الصراخ والصياح — إن هذه الظاهرة ، هى دعوة عنيفة لرجال الدين لأن يفيقوا ، وأن يدركوا أن الأزمة التى تجتاح الإنسانية أكبر من أن تحلها ، أو تفرج كربها ، الأساليب التى تواضعوا عليها ، التى لم تعد توقظ نائمـًا ، ولاتردع ظالمـًا ، ولاتبعث همة ، ولا تحرك إرادة . . إن الدين الآن — وفى مقدمة الأديان دين المسلمين — قد عاد غريبـًا كما بدأ ، وجاهلية القرن العشرين ، التى تكاد الأنوار فيه تغرق المدن والقرى ، هى جاهلية أشد قتامـًا وأبعد أغواراً ، وأشق تناولا من جاهلية عشرين قرنـًا مضت حينما قال الناصرى لتلاميذه فوق الجبل فى فلسطين : « أحبوا أعداءكم » ومن جاهلية مكة وما حولها حينما قال اليتيم الفقير : « لا إله إلا الله » .

إن جاهلية اليوم هى جاهلية العلم والتخصص ، جاهلية المبادئ المعتزة بذاتها ، والجماعات المنظمة المعززة بالصحف والأقلام ، والباحثين والمحللين ، والإخصائيين ، والأساتذة والجهابذة ، جاهلية معامل البحث المدقق والمحقق ، ولكيلا تتهمنى بالتجنى أدع القول لعالم من علماء هذه الأيام حصل على جائزة « نوبل » سنة ١٩٢١ ، وكان طبيبا استمر فى أبحاثه المتعلقة « بالقلب الميكانيكى » بعد أن اعتزل ممارسة الطب ،

وكانت غاية أبحاثه فى هذا القلب : أن يصل الحياة فى جسد نزع منه القلب لفترة ما . وأعنى به الأستاذ الدكتور ألكسيس كاريل فى كتابه : الإنسان ذلك المجهول .

قال : إن التقدم الهائل الذى أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة : هو إحدى الكوارث التى عانت منها الإنسانية . فالبيئة التى ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة بالنسبة لقوامنا ولا بالنسبة لهيئتنا . إننا قوم تعساء لأننا ننحط خلقياً وعقلياً . وإن الجماعات التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم ، هى على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة فى الضعف ، والتى ستكون عودتها إلى البربرية والهمجية أسرع من عودة غيرها إليها » .

ثم قال : « إن العلم الخالص لا يجلب لنا مطلقاً ضرراً مباشراً ، ولكن حينما يسيطر جماله الطاغى على عقولنا ، ويستعبد أفكارنا فى مملكة الجماد ، فإنه يصبح خطراً ، ومن ثم يجب أن يحول الإنسان اهتمامه إلى نفسه وإلى السبب فى عجزه الخلقى والعقلى . . وليس هناك أى ظل من الشك فى أن علوم الميكانيكا والطبيعة والكيمياء ، عاجزة عن إعطائنا الذكاء والنظام الأخلاقى والصحة والتوازن العصبى والأمن والسلام » .

وأحسب أن هذا القدر من الفقرات يثبت أن عيسى ومحمداً ، عليهما الصلاة والسلام دعوا إلى لون من العلم ، ثبتت صحته ، كما توالت خيراته وبركاته ، وهو علم صحيح غاية الصحة لا يقوم على الخرافة ولا على الوهم ولا الدجل واستغلال الجهال ، ولكن ميزته الكبرى أنه نابع من هذه الآية القرآنية الكريمة ومثالها (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم) .

فالعلم الإسلامى المسيحى ، يتخذ من الإنسان نفسه وعواطفه ، آماله ومخاوفه ، شكه وتردده ، يقينه وإيمانه ، طمعه وزهده ، ميدان البحث ، ومجال الدراسة .

إن الإنسان قد تحكم فى الماء والهواء . واستخرج النار . وصنع البارود . ثم حطم الذرة ، وصعد فى الفضاء . ووصل إلى أعماق المحيط . وقد وصل هذا الطراز من العلم الإنسانى إلى نتائج مذهلة .

ولنعد إلى الهيبز لنتساءل ما الذى هزّ عقولهم ، وملأ نفوسهم بالمرارة ؟ وما الذى أطلق مظاهرات السخط والاحتجاج فى الشرق والغرب . يتزعمها الشبان الصغار ؟ وما الذى جعل الأدب ضرباً من الجنون . والفنون لوناً من العبث ؟

واضح ، أن الذى قذف اليأس فى القلوب . وأشعر الناس أنهم يسيرون فى طريق مسدود ، هذا العلم الناقص : العلم الذى لا يزال ينتزع لقمة الجائع من فمه ليصنع بها صاروخاً عابراً للقارات ، وينتزع من الفقير المريض ثوبه البالى الممزق ، ليضيف أسلحة هلاك كل يوم ، نعلم بعضها ، ونجهل أكثرها .

كان الشبان فى أوربا يظنون أن العالم بعد المسيحية والديموقراطية والاشتراكية والشيوعية والجامعات والصحف والموسيقى ، والمتاحف ، سيصبح أكثر إنسانية وأقل وحشية ، فإذا هو وحش ضار لا يشبع من طلب الدماء ، وتعذيب الأبرياء . وفرض الأحكام الظالمة باسم أطهر المؤسسات وأشرفها . لذلك صرخ الشبان : كل شىء باطل . ولا أمل فى الإنسانية ، ولا رجاء فى العلم ، أما الدين فقد انتهى دوره ، لأنه رأى كل ذلك ، ولم يفعل شيئاً .

لكن لا يزال هناك أمل فى أن يعود رجال الدين ، فى كل مكان ، إلى دينهم ، ويعيدوا الإنسانية إلى العلم الإنسانى الذى وضع القرآن أسسه . فإن القرآن لم يدع دوراً من أدوار حياة الإنسان إلا سجلها : (هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا) .

وكانت آيات القرآن التى تتحدث عن الإنسان بأنه (كان كفوراً)، (وكان قتوراً) ، (وكان عجولا) (وكان أكثر شىء جدلا) دعوة

لرجال الدين ، الذين هم رجال العلم الأوائل ، لينظروا فى الآفاق ، ثم ليعودوا إلى نفس الإنسان ، يجوسوا خلالها ويستنبطوا منها القوة ، ويخرجوا أحسن معادنها .

ليعلم رجال الدين فى كل مكان أن الأصنام التى حطمها محمد بن عبد الله النبى الأمى ، بعصاه فى الكعبة ، وهو يقول : (جاء الحق وزهق الباطل) عادت من جديد .

فإن لم يخرج رجال الدين ، وقد تركوا سياسة إيثار العافية ، والإخلاد إلى الراحة ، ليواجهوا هذه الأصنام الجديدة ، حق لنا أن نتساءل فى جزع : هل للدين مستقبل ؟

المرأة والرق

من أظهر الأمثلة على الطابع الإنسانى للشرع الإسلامى أحكامه فى المرأة والرقيق . وهما مثلان إن دلا على إنسانية الشرع الإسلامى فإن الأمر انعكس فيهما ، فبدا أمر الشرع الإسلامى بشأنهما : دليلا عند خصومه أو عند الذين تخفى عليهم حكمته : أو عند الذين استسلموا لتيار حضارة وثقافة مغايرة للحضارة التى قامت على أسس من الإسلام بدا لهم أن حكم الإسلام فى المرأة وحقوقها ، والرق وحقوقه : حكم تأخر وتخلف .

ولكى نعرف ما فعله الإسلام من أجل المرأة : لابد أن نعرف كيف كانت تعامل قبل نزول القرآن لا عند العرب وحدهم ، بل عند الأمم كافة .

فالمرأة قبل الإسلام كانت عاراً يتخلص منها أبوها وأولياؤها الذكور بوأدها ، أى قتلها حية .

وقد أشار القرآن إلى ذلك : (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون) .

ثم وردت إلى ذلك إشارة ثانية : « أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ، وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً وهو كظيم » .

وفى سورة التكوير : (وإذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت) ، وقد استقرت عادة الوأد حتى قيل : « وأد البنات من المكرمات » ، وقد

يلتمس للرجال العذر فى حزنهم إذا رزقوا بالبنات ، فقد كانت المرأة متاعًا تورث ، كما يورث غيرها من عناصر المال ، كالبهائم وأثاث المنازل ، وكان يحق للابن أن يتخذ من زوجة أبيه ، زوجًا له ، وهو ما سماه القرآن بزواج « المقت » — وقد يكون الزواج أقل ما يصيب المرأة من الشرور . فقد كان للابن حق التصرف فى زوجات أبيه بالبيع أو بالهبة .

وكانت المرأة اليهودية أحط درجة من المرأة العربية ، فقد كان لأبيها أن يبيعها قبل بلوغها ، وكان للابن أن يفعل ذلك ، وكلنا نعرف ماذا كان مكان المرأة الهندية فى عهد بعثة الرسول بل فى القرن العشرين . فقد كان زواج الأطفال متفشياً ، فكانت الطفلة دون الخامسة تزف إلى صبى فى مثل سنها أو أقل ، فإذا مات حرم عليها الزواج ، وأصبح مرآها مما يجلب نحس الطالع ، وغالبًا ما يموت زوجها الطفل دون أن يدخل بها ، فإذا بلغت سن المراهقة ، وأصبحت صالحة للزواج كتب عليها الترمل إلى آخر العمر .

وكانت إلى جانب هذه العادة عادة حرق الزوجات ، ولعلهما عادتان متكاملتان ، فالأرملة التى يموت عنها زوجها إن لم تحرق مع زوجها وعاشت بعده نفر منها المجتمع ، وتحاماها الرجال وفر منها الناس كأنها برصاء . ولذلك كان من أكبر أعمال الحركة الوطنية الهندية مكافحة هذه الآفات الاجتماعية المدمرة ، وقد لقيت عناء شديداً فى اقتلاع جذورها .

وقد بقيت المرأة على هذا الوضع المؤسف والمخزى معًا ، حتى بعد البعثة المحمدية بقرون عديدة .

حسبك أن تعلم أن مؤتمرات كنسية كانت تعقد للبحث فى هل للمرأة روح كروح الرجل ، أو أن لها روحًا كروح الحيوانات

كالكلاب . والثعالب . بل إن أحد هذه الاجتماعات فى روما قرر أنه لا روح لها على الإطلاق . وأنها لن تبعث فى الحياة الأخرى .

وفى القرون الوسطى اشتدت الغيرة على المرأة . واشتد سوء الظن بخلقها وطبيعتها ، فحرمت الظهور فى المجتمعات . وشاعت عادة أقفال العفة . وهى أقفال من حديد ركبت فى أحزمة خصصت لتلبسها النساء حول خصورهن ، إذا غاب عنهن أزواجهن فى سفر . ثم تغلق بمفاتيح يبقيها الزوج معه لا تفارقه لحظة .

بل إن بعض المجتمعات وضعت على فم المرأة قفلا تغدو به وتروح[١] . وأحسب أن هذا القفل كان لا يقفل إلا عند خروجها من دارها ، حتى لايدور بينها وبين الرجال حديث ؛ تغويهم به إلى الرذيلة ، فماذا فعل الإسلام ، إنه قفز بها قفزة ضخمة ؛ فقد وضعها إلى جانب الرجل تماماً ، فجعل لها من الحقوق ما له ؛ وكلفها مثله بالتكاليف الدينية والمدنية ، فهى ترث كما يرث ، وتملك كما يملك ، وتبيع وتشترى ، وتهب وتوصى ، وتؤجر وتوكل ، ولها أن تزوج نفسها إذا بلغت سن الرشد ، ولا يجوز لوليها أن يزوجها على عكس إرادتها ، أو أن يزوجها ، قبل أن يعرف رأيها . من خلف ظهرها ، وإذا هم بشىء من ذلك ، وأراد أن يفرض عليها زوجاً بعينه ، كان لها أن ترفض ذلك[٢] . وفى القرآن الآيات الكثيرة التى تقرن المرأة بالرجل ، وتساوى بينهما من ذلك قوله تعالى : (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض) ، ثم قوله تعالى : (ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة

---

(١) الإسلام دين الهداية والإصلاح ، محمد فريد وجدى ، ص ١٨١ .

(٢) فى الحديث : لا تنكح الأيم حتى تستأمر ، ولا البكر حتى تستأذن. إن الثيب أحق بنفسها من وليها ، والبكر تستأمر وسكوتها إذن .

طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) . ويفيض القرآن كما تفيض أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى احترام المرأة ، يدل على ذلك الآية الكريمة : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة) .

ولم يرتفع الإسلام بمركز المرأة اجتماعيًّا واقتصاديًّا فحسب . بل إنه رفع قدرها أدبيًّا وروحيًّا ، فالمرأة مكلفة القيام بالصلاة والصوم والحج والزكاة وقد أشركها الإسلام فى نشر دعوته ، وهو بعد حركة ، تكافح وتلاقى الشدائد ، فقد كانت أسماء بنت أبى بكر ، هى التى تحمل إلى رسول الله وأبيها الطعام ، وهما لائذان بغار ثور فلما اشتد ساعد الإسلام ، كانت السيدة عائشة زوج رسول الله ذات أثر بيِّن فى الدعوة الإسلامية فسمعت الكثير من أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحفظتها ، ونقلتها بعد وفاته ، فكانت مصدراً من أهم مصادر السنة ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها : «خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء» مشيراً إليها .

والثابت أنها تأتى بعد أبى هريرة فى الرواية عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد روى أبو هريرة ٥٣٧٤ حديثًا وروت السيدة عائشة ٢٢١٠ .

ولما ثارت مسألة الخلافة عن الرسول ، واختير أبو بكر لها دون على ، هددته فاطمة بنت رسول الله وزوج الإمام على بأنها ستدعو الله عليه ، فبكى أبو بكر . وقال لا حاجة لى فى بيعتكم ؛ ولما ولى على الخلافة ، قاومته السيدة عائشة ، واشتركت فى الحرب التى أعلنها بعض كبار الصحابة ضده . فأحكام القرآن ، والإسلام ، فى شأن المرأة والتسوية بينها وبين الرجل ، والاعتراف لها بالإرادة الكاملة والحرية غير المنقوصة ، طبقت فى الإسلام عمليًّا وظهرت آثارها فى المجتمع .

وقد قرر عليها الإسلام العلم فريضة ، كما قرره على الرجل ، إذ

قال رسول الله : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » ، ولم يفرض العلم على المرأة من قبيل تهذيبها وتحليتها كزوجة ، بل إن الفقهاء أجازوا لها الانتفاع بهذا العلم فى الشئون العامة ، فالإمامان الطبرى والظاهرى أجازا لها القضاء عموماً ، وأجاز لها أبو حنيفة القضاء .

وهذه المشاركة من جانب المرأة المسلمة فى الشئون العامة وهذا التكريم الذى عبرت عنه الآيات القرآنية ، يثبت كم تتخلف المرأة الغربية بعد أربعة عشر قرناً من الإسلام ، فقد جرى استفتاء فى سويسرا سنة ١٩٦٦ فى هل تمنح المرأة حق العضوية فى الانتخابات أو تحرم منه ؟ فأسفر استفتاء عام عن تقرير حرمانها .

قارن هذا بما ثبت من معارضة امرأة لعمر بن الخطاب ، الخليفة الثانى ، وهو يتحدث على منبر المسجد عن المغالاة فى المهور ، فذكرته امرأة كانت تصلى فى المسجد بالآية (وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً) وهى آية تدحض رأى عمر ، فأقر لها بصحة رأيها وقال : أصابت امرأة وأخطأ عمر . وتدل هذه الواقعة على كثير : تدل أولا على صلاة النساء فى المساجد ، وعلى حفظهن القرآن وقدرتهن على الجدل ، ثم على عدم تهيبهن الحديث فى المجالس العامة ، ثم على احترام أكبر رجال الدولة لحقهن فى المناقشة وإبداء الرأى .

وقد روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم حديثه الذى راح عنواناً على الرأفة بالمرأة والحدب عليها فقد قال : « رفقاً أنجشة بالقوارير » وكان « أنجشة » يحدو الإبل : أى يغنى لها لتسرع فى السير : فآذى ذلك النساء الراكبات هذه الإبل ، لذلك دعاه الرسول ألا يسرع فى حدائه .

ولما خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبته الأخيرة ، المعروفة

بخطبة الوداع ، لم ينس أن يوصى الرجال بحسن معاملة النساء .

ولكن يأخذ خصوم الإسلام عليه فى شأن المرأة أربعة أمور :

أولا — قول الله تعالى : (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) .

ثانياً — أنه جعل نصيب المرأة فى الميراث نصف نصيب الرجل .

ثالثاً — أنه أباح للرجل أن يتزوج مثنى وثلاث ورباع .

رابعاً — أنه أباح للرجل أن يطلق زوجته ، دون الرجوع إليها ودون تعويضها .

أما أن القرآن قال إن الرجال قوامون على النساء فقول صحيح من ناحيتين : من ناحية تقريره لما كان واقعاً عند نزول القرآن ، ولما استمر فى غير بلاد المسلمين حتى اليوم ، فالإسلام لم يفرضه فى بلاد البوذيين والبراهمة والمسيحيين واليهود .

ولسنا نود أن نقول إنه طبيعة الأمور . ولكننا نود أن نقول إنه كان قائماً قبل الإسلام ، وكان شائعاً عند بدء البعثة الإسلامية ، ثم استمر إلى اليوم فى العالم كله بأسره تقريباً ، ولكن هذه القوامة فى الإسلام مشروطة بحدين ، أولهما : (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة) ، وثانيهما أن قوامة الرجل على المرأة مبينة فى الإسلام ، فليست هى قوامة بطش ولااستباحة لعقلها أو إرادتها أو ازدراء بشخصيتها .

فالقوامة تكاد تكون مساواة لا يفرق بين العضوين فيها إلا درجة واحدة فى مجتمع كانت الفوارق بينهما درجات ودرجات لعلها او قيست لبلغت مائة درجة .

ولم يكن ممكنـًا لدين يجعل للاعتبارات العملية وحقائق الحياة مكانها اللائق بها ، فى كل ما يقننه ويقرره . أن يتجاهل حقيقة وضع المرأة فى المجتمع . ويعلن نبذها لكل ولاية للرجل . فإنه لو فعل لكان حكمه نقشـًا على الماء ، أو نفخا فى الهواء . ولكنه بالخطوة التى خطاها . وهى فى واقع الأمر خطوات . قرر للمرأة حريتها ، وفتح أمامها أبواب التقدم والتحرر ، والسيادة. واعترف بالأمر الواقع : وهو أن الأسرة ككل وحدة إنسانية لابد لها من رئيس : ولابد للرئيس من حقوق الولاية ، وإلا فشت الفوضى ، ولكن هذا الرئيس محدود السلطة . ورياسته هدفها رعاية المرءوسين لا البطش بهم ، ولا الاستعلاء عليهم : ولا تجاهل إرادتهم ولو فعل ذلك لما حماه الشرع . ولما جعل لخروجه على حدود ولايته قيمة ، ولا أقام لها وزنـًا . فإذا رأى الرجل والمرأة بعد ذلك أن يتقاسما الأمور ، واستقامت حياتهما فليس فى الإسلام ما يمنع ذلك .

أما كون نصيب المرأة دون نصيب الرجل فى الميراث إذ هو النصف فهذا أيضـًا تقدم ، بل هو ثورة على أوضاع المجتمعات الإنسانية كلها فى ذلك : فالمرأة العربية التى أصبحت ترث نصف ما يرثه أخوها ، منذ أربعة عشر قرنـًا كانت هى نفسها تورث كالمتاع : بل كانت تقتل وتحرم من الحياة ثم هى بعد ذلك أفضل من السيدة الفرنسية فى القرن العشرين التى لم يكن لها ذمة منفصلة عن ذمة زوجها والتى بقيت محرومة من صرف مبلغ من مصرف إلا بإمضاء زوجها إلى جانب إمضائها .

ولكن الإسلام راعى فى تقدير نصيبها بالنصف ثلاثة أمور « أولها » ما كان معمولا به عند بدء الدعوة الإسلامية ، فقد كانت المرأة تورث ولا ترث « ثانيا » أنها معفاة من الإنفاق على بيتها وأولادها . « ثالثا » أن للمرأة حق استثمار مالها ، حرة بغير إشراف ، أو رقابة

من ذويها الذكور سواء كانوا أزواجاً ، أم آباء أم أبناء ، وقد توفق فى هذا الاستثمار فتفوق ثروتها ثروة زوجها .

على أن للأب ، إذا شاء ، أن يسوى بين أبنائه وبناته بطريق الهبة ، حال حياته ، وقد أجاز الشرع الإسلامى الوصية للوارث وغير الوارث فى حدود الثلث ، وقد أصبح هذا مقرراً الآن فى قوانين المواريث بمصر .

أما أن الاسلام قد أباح للرجل أن يجمع بين أربع زوجات ، فذلك لأن الإسلام على منهجه فى التطور جاء فى وقت كان الرجال فيه يتزوجون بغير قيد مطلقاً ، وقد بلغ عدد زوجات النبى داود حسب الثابت فى القرآن تسعاً وتسعين ، والثابت من تعدد الزوجات بقى ممارساً حتى القرن السابع عشر بعلم الكنيسة .

وقد اشترط الإسلام أن يعدل الرجل بين زوجاته وإلا فلا يحق له أن يتزوج سوى واحدة ، وقرر القرآن صراحة أن الرجال لن يعدلوا بين النساء ولو حرصوا ، فقيد الزواج بأكثر من واحدة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من كانت له امرأتان فلم يعدل بينهما بعث يوم القيامة وشقه ساقط » ، ومع ذلك فإن زواج الرجل بأكثر من زوجة يقع الوزر فيه على الزوجات اللائى يقبلن أن يتزوجن رجلا تزوج قبلهن. ولو تطور المجتمع ، ورفضت النساء الزواج برجل متزوج لتحقق ما هيأ القرآن له بنصه على استحالة العدالة بين الزوجات .

وقد تؤثر المرأة أحياناً أن يكون لزوجها زوجة أخرى تعرفها ، وتعرف أولاده منها ، وما ينفقه عليهم من أن يكون له خليلات مجهولات ، وأن يعيش معها مخادعاً كاذباً لا تعرف شيئاً عن حقيقة صلاته ، ولا فيم ينفق أمواله .

وقد تدرج المجتمع الغربى فى الاعتراف بالخليلات ، فأجاز لهن

طلب التعويض ، وأجاز للولد غير الشرعى طلب النفقة .

وليس لدينا شبهة فى أن تطور المجتمع ، هو الذى يضيق من نطاق تعدد الزوجات ، وهو الأمر المشاهد حتى فى ريف بلادنا الذى تكثر فيه حالات تعدد الزوجات لانحطاط مستوى الرجال والنساء اقتصادياً واجتماعياً .

وأخيراً إن الإسلام قرر للمرأة الحق فى أن تشترط على زوجها حقها فى طلب الطلاق إذا تزوج عليها أخرى .

وحسبنا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه أنه أبغض الحلال إلى الله . وإن المجتمع الحديث كله أصبح لا يمارس الطلاق فقط بل يسرف فى هذه الممارسة ، ولو حرم الإسلام الطلاق ، لصادم الطبيعة البشرية ، ولدفع الرجال والنساء إلى حرج شديد ، ولجعل الحياة الزوجية جحيماً لا فكاك منه ، إلا بالموت ، أو الجنون .

فالزواج شركة لا تتم إلا باتفاق الطباع ، ولا يتم هذا الاتفاق فى جميع الأحوال . فما العيب فى فض شركة عواقب بقائها بغير اتفاق أوخم من فضها ؟ وقد يكون فضها أدعى إلى استئنافها بعد حين على أسس أكثر دواماً .

والإسلام لم يقرر هذا الحق مطلقاً ، فقد رسم له منهجاً ، فقد أمر الرجل بأن يسرح زوجته عند الطلاق بإحسان ، وألا يرهقها ، أو يستبقى عنده مالها ، وعليه أن يوفيها مؤخر صداقها ، وعليه أن ينفق عليها خلال فترة عدتها ، أى حتى يثبت أنها ليست حاملا ، حتى تستطيع الزواج بسواه . فإن ادعت أنها لم يأتها الحيض ، استمر ينفق عليها ، ولو لبثت على هذا الإنكار سنتين ، كما ذهب أبو حنيفة .

ولا يطلق الرجل زوجته إلا بعد أن يرسل كل من الزوجين حكماً ليصلحا بينهما .

جملة القول أن جميع ما قرره الإسلام فى حقوق المرأة وواجباتها ، وفى الزواج والطلاق اعترف بالأمر الواقع ، ولم يلتزم به ، أو يقف عنده . بل فتح جميع الأبواب للتحرر منه ، والسمو عليه ، بحيث يصبح الزواج مقصوراً على واحدة ، ويصبح الطلاق أمراً نادراً ، وعنه تصبح الفوارق بين المرأة والرجل ، هى فوارق الطبيعة وحدها ، التى لا سبيل إلى إلغائها .

وقد جرى الإسلام فى تحرير الرقيق ، وإلغاء الرق ، على ما يجرى عليه دائماً ، فى كل ما يريد أن يلغيه من الشرور ، أو يفرضه من العقوبات .

فالإسلام لم يلغ الرق لأنه يريد الإبقاء عليه ، بل لأنه كان يريد إلغاءه فى الواقع . إذ لو ألغاه طفرة لانفض الناس عنه ، واعتبروا رسوله مجنونا يهذى ، فالرق كان أساساً من أسس الحياة الاقتصادية والاجتماعية . فإلغاؤه فى الحال كان بمثابة نفى المجتمع الذى جاء الرسول لهدايته والأخذ بيده فى مدارج التقدم والتطور . لذلك ترك الرق كمبدأ لتستهلكه وتقضى عليه أخلاقيات المجتمع الإسلامى والأسس التى قررها الإسلام .

فبدأ بتحديد مصادر الرق ، فلم يعد ثمة إلا مصدر واحد فقط للرق ، هو الوقوع فى أسر المسلمين فى حرب مشروعة ، يعلنها الإمام بقصد إعلاء كلمة الحق والدين ، وفيما عدا ذلك لا يسترق الإنسان ، فلا يسترق بدين ، ولا يسترق لبيع ، ولا يسترق فى حرب قبلية ولا حرب بقصد الحصول على الغنائم . .

ثم التمس لتحرير الرقيق أو فك الرقاب ، عشرات من المسوغات ، وكأنما يتخذ منها مجرد ذرائع لإلغاء الرق .

وحينما جاء الإسلام كان الرق نظاماً شرعياً معترفاً به ومقبولا ، وقد أخذت به جميع الأمم تقريباً ، فاليونان والرومان أقروه كما أقره

أفلاطون وأرسطو ، والمسيحية لم تستنكر الاسترقاق ولم تعمل على إبطاله ، بل قد نصح بعض القديسين العبيد أن يطيعوا سادتهم ، والصبر على أحوالهم ويذكرون لهم أن استرقاقهم مستند إلى أصول إلهية . بل إن آباء الكنيسة كانوا ينافسون أمراء الإقطاع فى اقتناء العبيد .

وقد جاء فى رسالة بولس الرسول للعبيد :

« أيها العبيد أطيعوا سادتكم ، حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح » .

« ولا بخدمة العين ، كمن يرضى الناس بل كعبيد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب ، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس ، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك سيناله من الرب عبداً كان أم حراً » .

وقد كان حال العبيد فى ظل القانون الرومانى بالغاً حد السوء ، فقد كان فى وسع السيد أن يقتل عبده ، بلا حساب أو عقاب ، أو شعور بالإثم أو وخزة من ضمير ، والقوانين التى كانت تصدر للتخفيف على العبيد تبين كيف كانوا ضحايا نظام ظالم قاس لا يرحم ، فقد صدر قانون الإمبراطور بترونيا وهو يحرم على السادة إلزام عبيدهم بمقاتلة الوحوش إلا بإذن من القاضى .

وفى عهد الإمبراطور « انتوفان » صدر أمر يقضى بأن من يقتل عبده يعاقب بغرامة . .

ولما صدر فى عهد الإمبراطور كلوبوس قانون يعتبر فيه قاتل العبد مرتكباً لجناية القتل ، ألغى بمجرد وفاة ذلك الإمبراطور .

وفى سنة ١٦٨٥ صدر قانون ينص على أنه إذا اعتدى أحد الزنوج بأقل إكراه على سيده أو أحد الأحرار ، أو ارتكب أخف السرقات ، فإن جزاءه القتل .

ومن هنا جاء قولنا إن الإسلام لو ألغى الرق ، لما ظهرت خصائصه الإنسانية التى ظهرت بإبقائه الرق ، والعمل على إلغائه تدريجياً .

فإنه – إلى أن يزول الرق – اعتبر الرقيق إنساناً ، واعتبره مساوياً لسيده ، وبذلك أعلن أن إنسانية الإنسان لا تزول بأى سبب لا بالرق ولا بالمعاداة والحرب ، فالإنسان لا يفقد حقوقه كإنسان .

قرر الإسلام : « من قتل عبده قتلناه ، ومن جدع عبده جدعناه ، ومن أخصى عبده قتلناه » .

ثم قال : « إخوانكم خولكم ، أى عبيدكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس » .

وحرم الإسلام على المسلمين أن يخدشوا إحساس هؤلاء الأرقاء ، بمجرد التسمية الجارحة ، فقال : « لا يقل أحدكم عبدى ولا أمتى ، ولكن ليقل فتاى وفتاتى وغلامى » ، ثم قال : « من كانت له جارية فعلمها وأحسن إليها وزوجها كان له أجران » .

وقد طبق المسلمون هذه المبادئ ، فقد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً ، وقد كان رقيقاً حبشياً ، المدينة وفيها وجوه العرب وساداتهم . وكان كثير من الموالى فقهاء ، يعلمون الدين فى الأمصار الإسلامية المختلفة .

ولما ذهب عمر بن الخطاب إلى الشام ليبرم معاهدة مع أهل دمشق استصحب رقيقاً له ، فكان يركب هو مرحلة ، ويركب عبده مرحلة ، وهكذا ، فلما وصلا إلى المدينة كان العبد فوق الدابة ، وكان الخليفة وراءها وقد كان مندوب المسلمين فى مفاوضة المقوقس حاكم مصر ، عبادة بن الصامت ، وهو زنجى .

وقد وصل كثير من الأرقاء الذين تحرروا مناصب الدولة الكبرى فكانوا وزراء وتولى بعضهم الملك .

وقد قرر الفقهاء بالإجماع أن مكاتبة العبد مستحبة ، ويقصد بها أن يتفق العبد مع سيده على أن يدفع لسيده ثمن حريته ، بأن يعمل ويحصل على مال يدفعه إلى مالك رقبته ، مقسطاً ، وقد استحسن الفقهاء أن يدع السيد عبده ليعمل ويحصل على الثمن الذى وعد به .

وخرج الفقهاء على القاعدة المقررة من أن البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر انحيازاً إلى الأرقاء وتخفيفاً عليهم ، فإذا ادعى غلام أنه حر ، وادعى آخر أنه عبده ، كان على الغلام ؛ اليمين فإن أداها صدق ما لم يقدم الآخر بينة .

وقضت الشريعة بأن من يتزوج أمته ، ورزق منها بأولاد ، فقد تحررت ، ولا يجوز له أن يبيعها ، فإن مات كملت حريتها ، لأن أولادها يكونون أحراراً .

وقد أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يجود بنفسه المسلمين « بالصلاة وما ملكت أيمانكم » ، وقال رسول الله أيضا : « لقد أوصانى حبيبى جبريل بالرفق بالرّقيق حتى ظننت أن الناس لا تستعبد ولا تسترق » .

ويذهب البعض إلى أن « ظن » هنا ، بمعنى : اعتقد أو أيقن ؛ فلها فى اللغة هذا المعنى أيضاً .

ولكى يعجل الإسلام بانتهاء الرق ، بعد كل هذه الضوابط ، التى تعدم الفارق بين العبد والحر ، جعل كفارة كثير من الذنوب فك الرقبة ، أى إعتاق العبيد وجعل من مصارف الزكاة تحريرهم ، ومن ذلك : (فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة ، فك رقبة ، أو إطعام فى يوم ذى مسغبة ، يتيماً ذا مقربة) .

ثم (ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوا فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير

رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) .

(لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان . فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة) .

(والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا ، فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا) .

فلينظر الناس إلى ما تؤمن به حضارة الغرب اليوم ، من أن غير أهلها ، هم دماء مهدرة ، وحرمات مستباحة ، بل أصحاب الأرض الأصلاء لأنهم من غير الفاتحين ، وإن كانوا من دينهم ، يعاملون معاملة دون معاملة البهائم ، ويفرض عليهم الجهل والعجز ، إلى أبد الآبدين ، وليعرفوا كم كان الإسلام متقدما .

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٥٥١٠ / ١٩٧٣

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧٣

